

مجموع آثار سماحة الشيخ

عبد الله بن محمد بن حميد

رحمه الله

١٣٢٩هـ - ١٤٠٢هـ

شرح كتاب التوحيد

للشيخ محمد بن عبد الوهاب

المجلد الخامس

الجزء الثاني



ح رئاسة الشؤون الدينية بالمسجد الحرام والمسجد النبوي ، 1446هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر
رئاسة الشؤون الدينية بالمسجد الحرام والمسجد النبوي
مجموع آثار سماحة الشيخ عبد الله بن حميد رحمه الله
رئاسة الشؤون الدينية بالمسجد الحرام والمسجد النبوي
ط 1 - مكة المكرمة ، 1446 هـ
23 مج ، 430 ص؛ 17×24 سم

رقم الإيداع: 1446/9287
ردمك: 978-603-8506-00-4 (مجموعة)
ردمك: 978-603-8506-05-9 (ج5)







مجموع آثار سماحة الشيخ

عبد الله بن محمد بن حميد

رحمه الله

١٣٢٩هـ - ١٤٠٢هـ

شرح كتاب التوحيد

للشيخ محمد بن عبد الوهاب

المجلد الخامس

الجزء الثاني

بسم الله الرحمن الرحيم

(٢٥) باب ما جاء في الكهان ونحوهم

روى مسلم في «صحيحه»، عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقه؛ لم تقبل له صلاة أربعين يوما»[(١)].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «من أتى كاهنا فصدقه بما يقول؛ فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» رواه أبو داود[(٢)].

وللأربعة، والحاكم -وقال: «صحيح على شرطهما»-، عن أبي هريرة: «من أتى عرافا أو كاهنا فصدقه بما يقول، فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ»[(٣)].

ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود موقوفا[(٤)].

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعا: «ليس منا من تطير أو تطير له، أو تكهن أو تكهن له، أو سحر أو سحر له، ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد ﷺ» رواه البزار بإسناد جيد[(٥)].

ورواه الطبراني في «الأوسط» بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٢٣٠) دون قوله: (فصدقه).
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (ح: ٩٢٩٠)، وأبو داود في سننه (ح: ٣٩٠٤)، والترمذي في جامعه (ح: ١٣٥).
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ٩٥٣٦)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (ح: ٥٠٣)، والحاكم في المستدرك (ح: ١٥).
(٤) أخرجه ابن الجعد في مسنده (ح: ٤٢٥)، والبزار في مسنده (ح: ٨٧٣)، وأبو يعلى في مسنده (ح: ٥٤٠٨).
(٥) أخرجه البزار في مسنده (ح: ٣٥٧٨)، والطبراني في المعجم الكبير (ح: ٣٥٥).

قوله: «ومن أتى..» إلى آخره[١].

قال البغوي: «العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق ومكان الضالة ونحو ذلك»[٢].

وقيل: هو الكاهن، والكاهن هو: الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

وقال أبو العباس ابن تيمية: «العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق»[٣].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوم يكتبون: «أبا جاد»، وينظرون في النجوم: «ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق»[٤].



(١) أخرجه الطبراني (ح: ٤٢٦٢).
(٢) ينظر: شرح السنة للبغوي (١٢/ ١٨٢).
(٣) ينظر: الفتاوى الكبرى (١/ ٦٣).
(٤) أخرجه معمر في جامعه (ح: ١٩٨٠٥)، والبيهقي في السنن (ح: ١٦٥٩٢) والشعب (ح: ٣٨٣١).

شرح: باب ما جاء في الكهان ونحوهم

(الكهان) جمع كاهن، والكاهن هو: من يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقيل هو: الذي يخبر عما في الضمير.

(ونحوهم): من الرمالين والعرافين، ممن يدعي علم الغيب، وكونهم يخبرون عما في المستقبل هذا كثير قبل مبعث النبي ﷺ، فعند العرب كهان يرجعون إليهم، ويتحاكمون إليهم، وذلك أنهم يتقربون للشياطين، والشياطين يركب بعضهم بعضا، حتى يصلوا إلى عنان السماء فيسمعون الكلمة من السماء، فيلقيها هذا إلى من تحته ثم الآخر إلى من تحته حتى يلقيها على لسان الساحر أو الكاهن، ثم هذا الكاهن يكذب معها مئة كذبة، ثم يستدل بما وقع من صدقه مرة واحدة على صدقه فيما كذب به مئة مرة، ولكن بعد مبعث النبي ﷺ حجبت السماء، فما كانوا يستطيعون الوصول إلى خبر السماء كما كانوا يستطيعونه من قبل، قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا ۝٨ وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٨-٩].

والعراف كما أنه يطلق على الكاهن، فكذلك يطلب على الطبيب -أيضًا-، ولذا قال الشاعر(١):

جعلت لعراف اليمامة حكمه ۞ وطبيب نجد إن هما شفياني

(١) وهو: عروة بن حزام العذري. ينظر: الشعر والشعراء (٢/ ٦٠٨).

فالعراف هو -أيضًا-: الطبيب الذي يداوي الأمراض الجسمية؛ لأنه يعرف العلة ويعرف المرض غالبا فيداويها، وقصة البيت معروفة، أشار إليها ابن خلدون(١) وغيره.

روى مسلم في «صحيحه»، عن بعض أزواج النبي ﷺ عن النبي ﷺ قال: «من أتى عرافا فسأله عن شيء فصدقه، لم تقبل له صلاة أربعين يوما»(٢).

هذا يدل على تحريم المجيء للكهان وسؤالهم، فيحرم على المسلم الذهاب إلى الكهان، فمتى سألهم لم تقبل له صلاة أربعين يوما، وهذه الصلوات لا يؤمر بإعادتها، بل صلاته في الظاهر مجزئة، أما الأجر والثواب فلا، وهذه الأحاديث وغيرها من أحاديث الوعيد الذي ذهب إليه أحمد والبخاري وسفيان وغيرهم أنها تجرى على ظاهرها ولا ينبغي التعرض لتأويلها؛ لأن ذلك أبلغ في الزجر، وتأويلها يخفف وقعها في القلوب.

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ أَتَى كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ» رواه أبو داود(٣).

---

(١) تاريخ ابن خلدون (١/ ١٣٦).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٢٣٠) دون قوله: (فصدقه).

(٣) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (ح: ٩٢٩٠)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (ح: ٤٨٢)، والدارمي في سننه (ح: ١١٧٦)، وأبو داود في سننه (ح: ٣٩٠٤)، والترمذي في جامعه (ح: ١٣٥)، والنسائي في الكبرى (ح: ٨٩٦٨)، وابن ماجه في سننه (ح: ٦٣٩)، والبزار في مسنده (ح: ٩٥٠٢)، والخلال في السنة (ح: ١٢٥٢)، وابن عدي (ح: ٤٢٦٤)، وابن بطة في الإبانة (ح: ٩٩٤)، والبيهقي (١٤٢٣٩) من حديث حكيم الأثرم، عن أبي تميمة الهجيمي، عن أبي هريرة، به مرفوعا.

أبو تميمة لم يسمع من أبي هريرة، وحكيم لا يحتمل منه هذا، وقد تكلم فيه بعضهم. =

(من أتى كاهنا فصدقه فقد كفر بما أنزل على محمد): يأتي إلى الكاهن فيقول: إنه ضل لي كذا وكذا، متى يأتي؟

ثم يحدس فيقول: يأتي كذا وكذا، وكلهم كذبة، لا يعلم الغيب إلا الله، وربما صادف الحق بسبب حدة ذهنه، وذكائه فيفتتن به الناس.

وأنا أعرف شيئا من هذا، فأعرف رجلا من الأردن يتعاطى مثل هذا، ولكن يذكر أنه من باب الفراسة، فأذكر أنه سأله شخص وكان الأردني عندنا في بيتنا فقال له: يا فلان، ماذا يكون عند فلان؟

قال: سيأتي ضيوف من المشرق، ويقع كذا وكذا.

قلت له: من أين لك هذا؟

قال: ستجده.

قلت: لا أصدقك، لكن أخبرني عن أي شيء قلته؟

عرفت أنه يكذب، وكان ذلك الوقت عندنا غنم لأننا كنا في وقت الحج؛ فظن أن الغنم لضيوف سيأتون، وأنا شرقي فضيوفي من الشرق.

وكان يتعاطى علم الكف -بزعمه-، جاءه شخص فقال: «هذا ابني ما رأيك فيه»؟

= قال البخاري في التاريخ الكبير (٣/ ١٧): «هذا حديث لا يتابع عليه-؛ يعني: حكيما-، ولا يعرف لأبي تميمة سماع من أبي هريرة».
وقال الترمذي بعد إخراجه: «لا نعرف هذا الحديث إلا من حديث حكيم الأثرم، عن أبي تميمة، عن أبي هريرة...، وضعف محمد هذا الحديث من قبل إسناده».
وقال البزار: «حكيم منكر الحديث، لا يحتج بحديث له إذا انفرد به، وهذا مما انفرد به».

نظر فيه ثم قال: «أعفني».

قال: «لا».

قال: «ابنك هذا سيكون كابن تيمية»، ففرح الأب.

فقلت له: هذا يكذب.

ثم بعد زمن أصبح ذاك الولد سائق سيارة.

وقال له آخر: ما رأيك في مستقبلي؟

فقال: «ستتزوج امرأة وتطلقها، وتتزوج ثانية وتتركها، وتتزوج ثالثة وتصلح معها، أعرف هذا من خطوط كفك».

وكان كل هذا كذبا، هذا شأن الكهان يكذبون على الناس.

والفراسة شيء آخر، مثل ما قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ ﴾ [الحجر: ٧٥]؛ أي: للمتفرسين، يكون عنده فراسة بنور الله، يعرف بها بعض الأشياء، مثل ما ذكر ابن القيم في «الطرق الحكمية» أخبار إياس بن معاوية، وأخبار المعتضد العباسي، وما أشبه ذلك[1].

ومن جملتها: أن المعتضد العباسي كان في قصره، فرأى رجلا جالسا على محل مرتفع فقال: هذا معلم صبيان، وله عبد ضائع، وعبده أعور.

فسألوه وإذا هو معلم صبيان، وضاع له عبد، وعبده أعور.

فقالوا: كيف عرفت هذا؟! ما الذي أدراك؟!

---

(١) ينظر: الطرق الحكيمة (١/ ٢٨).

قال: «رأيته اختار أعلى مكان وجلس فوقه وهذه عادة معلم الصبيان، وكل من مر عليه لا ينظر إليه إلا إذا كان أعور، فعلمت أن له عبدا ضاع، وأن عبده أعور»، يستنبطون الأحكام بفراستهم وذكائهم[1].

وللأربعة، والحاكم -وقال: «صحيح على شرطهما»-، عن أبي هريرة: «مَنْ أَتَى عَرَّافًا أَوْ كَاهِنًا فَصَدَّقَهُ بِمَا يَقُولُ، فَقَدْ كَفَرَ بِمَا أُنْزِلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ»[2].

«وقال الحاكم: صحيح على شرطهما»؛ أي: على شرط الشيخين.

ولأبي يعلى بسند جيد عن ابن مسعود موقوفا[3].

---

(١) وقد وقع من ذلك شيء كثير للشارح؛ فإنه كان من أذكياء الخلق رحمه الله. **ينظر**: تاج القضاة للعثيم.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ٩٥٣٦)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (ح: ٥٠٣)، والخلال (ح: ١٣٩٨)، وابن بطة (ح: ٩٩٢)، والحاكم في المستدرك (ح: ١٥) - ومن طريقه البيهقي في السنن الكبرى (ح: ١٦٥٧٤)- من حديث عوف -وهو ابن جميلة-، عن خلاس، عن أبي هريرة، به مرفوعا.
خلاس لم يسمع من أبي هريرة. **ينظر**: جامع التحصيل (ص١٧٢).
تنبيه: ذكر محمد بن سيرين متابعا لخلاس عند الحاكم ومن طريقه البيهقي غلط في الإسناد؛ فإن الإسناد من غير طريق الحاكم خال من هذه المتابعة، والله أعلم.
تنبيه آخر: في رواية الإمام أحمد: (عن خلاس، عن أبي هريرة، والحسن عن النبي ﷺ...) فطريق الحسن مرسل.
تنبيه ثالث: عزا المصنف رحمه الله الحديث للأربعة وليس عند أحد منهم، وقد أشار إلى ذلك حفيده العلامة سليمان بن عبد الله (التيسير ٢/ ٨٣٠)، ولعل الإمام رحمه الله تبع في ذلك الحافظ ابن حجر (الفتح ١٠/ ٢٢٧).

(٣) أخرجه ابن الجعد في مسنده (ح: ٤٢٥)، والبزار في مسنده (ح: ٨٧٣)، وأبو يعلى في مسنده (ح: ٥٤٠٨) من حديث أبي إسحاق السبيعي، عن هبيرة بن يريم، عن عبد الله، به موقوفا.
وإسناده جيد كما قال المصنف، وجود الحافظ إسناده وقال: «ومثله لا يقال بالرأي». **ينظر**: الفتح (١٠/ ٢١٧).

وعن عمران بن حصين رضي الله عنه مرفوعا: «ليس منا من تطير أو تطير له، أو تكهن أو تكهن له، أو سحر أو سحر له، ومن أتى كاهنا فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد صلى الله عليه وسلم» رواه البزار بإسناد جيد(١).

ورواه الطبراني في «الأوسط» بإسناد حسن من حديث ابن عباس دون قوله: «ومن أتى..» إلى آخره(٢).

«ليس منا من تطير»: تطير بنفسه، فهو المتطير بما يقابله، أو بشهر صفر، أو ما أشبه ذلك.

«أو تطير له»: عمد إلى شخص آخر يتطير له، كل هؤلاء مخطئون في صنيعهم هذا، والطيرة قد عقد لها المصنف بابا يأتي، والله يقول: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١]، ويقول سبحانه: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡۚ أَئِن ذُكِّرۡتُمۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ﴾ [يس: ١٩] إلى غير ذلك.

الأمور كلها بيد الله سبحانه وتعالى، وكان من عادة العرب أنهم يتطيرون إذا أرادوا

(١) أخرجه البزار في مسنده (ح: ٣٥٧٨)، والطبراني في المعجم الكبير (ح: ٣٥٥) من حديث أبي حمزة العطار، عن الحسن، عن عمران، به مرفوعا.
أبو حمزة هو: إسحاق بن الربيع، ضعفه الفلاس، وابن عدي (الكامل ١/ ٥٤٧)، والحسن لم يسمع من عمران كما قال ابن المديني، والإمام أحمد، والبيهقي في آخرين. ينظر: علل ابن المديني (ص٥١)، المراسيل لابن أبي حاتم (ص٣٨)، سنن البيهقي (١٠/ ١٢١).

(٢) أخرجه ابن عدي (٤/ ٣٦٧)، والطبراني (ح: ٤٢٦٢) من حديث زمعة بن صالح، عن سلمة بن وهرام، عن عكرمة، عن ابن عباس، به مرفوعا.
وهو خبر واه، وهذه نسخة رويت بها مناكير؛ زمعة وشيخه ضعيفان، وشيخه أحسن حالا منه. ينظر: العلل لأحمد (٢/ ٥٢٧)، ميزان الاعتدال (٢/ ١٩٣ - ٨١).

سفرا، فإذا ولاه الطير ميامنه واتجه يمينا قالوا: «هذا سفر ميمون»، وإن اتجه شمالا قالوا: «هذا سفر مشؤوم»، وإن طار إلى الأمام قالوا: «ناطح ونطيح».

وكانوا يتشاءمون بالبوم، فإذا وقعت على بيت أحدهم وجعلت تنادي بالليل، قالوا: إنها تنعي لنا صاحب هذه الدار، وأن صاحب الدار سيموت، وكل هذا من جاهلية العرب التي لا أصل لها.

والتطير تارة يكون بالطير، وتارة بالشهر، فهم يتزوجون في شهر صفر، ويزعمون أنه شهر مشؤوم، وكذلك لا يتزوجون في شوال، ويظنون أن الأمور في هذين الشهرين تخرج عكسية، وقد تزوج رسول الله ﷺ عائشة في شهر شوال[(١)].

والتعلق بمثل هذه الأوهام يدل على منافاة التوحيد بالكلية، أو منافاة كماله الواجب، بحسب ما وقع في قلب هذا المتطير أو المتكهن.

قال البغوي: «العراف: الذي يدعي معرفة الأمور بمقدمات يستدل بها على المسروق، ومكان الضالة، ونحو ذلك»[(٢)].

وقيل: هو الكاهن، والكاهن هو: الذي يخبر عن المغيبات في المستقبل.

وقيل: الذي يخبر عما في الضمير.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ١٤٢٣)، ولما حكت ذلك رضي الله عنها قالت: «فأي نساء رسول الله ﷺ كانت أحظى عنده مني؟!»، ولهذا استحب جماعة من أهل العلم أن يكون النكاح في شوال، وقد بوب على هذا النووي في المنهاج شرح صحيح مسلم.

(٢) **ينظر**: شرح السنة للبغوي (١٢/ ١٨٢).

المعنى واحد، فهو: العراف، وهو: الكاهن، وهو: المنجم، ما دام أنه يدعي علم الغيب، أنه سيموت ولدك، أو سيجري عليك حادث في المستقبل، أو يأتيك خير تسر به في المستقبل؛ فإنه من علوم الجاهلية التي لا أصل لها، وهي داخلة في الكهانة والتنجيم، ولهذه الأشياء كتب مؤلفة مثل: «شمس المعارف الكبرى»، ولأبي معشر الفلكي كتاب ذكر فيه الحروف والاستدلال لما سيقع عليك بالمستقبل عن طريقها، مثلا: متى ستموت؟ وكم يأتيك من الأولاد؟ وهل أنت غني أو فقير؟ وماذا يجري عليك من المصائب والأحداث؟ كل هذا يقوله أبو معشر!، له طريقة خاصة في التوصل إلى معرفة الأشياء، بكتابة اسم الشخص واسم أمه، ثم إذا كتب هذا وهذا جمع الحروف التي تكونت من اسمك ومن اسم أمك، وحسبها على حساب الجمل، ثم إذا بلغت عددا معينا قسمه على اثني عشر، فإذا بقي بقية قابلها بالبروج، التي هي: برج الحمل، والثور، والجوزاء، والعذارء، والسرطان، والأسد، والميزان، والعقرب، والقوس، والجدي، والحوت، والدلو، هذه اثنا عشر برجا، ويقابل ما تبقى من الحروف، وهكذا.

ثم يقول: «أنت ولدت في البرج السابع» إذا بقي من الحروف سبعة، وإن كان بقي من الحروف ثمانية فيقول: «أنت ولدت في البرج الثامن»، وإن بقي تسعة: «فأنت ولدت في البرج التاسع»، وإن بقي ثلاثة: «فأنت ولدت في البرج الثالث» الذي هو الجوزاء؛ لأن أولها عندهم: الحمل، ثم الثور، ثم الجوزاء.

ثم ينظر في مواليد ذلك البرج ماذا يجري عليهم؟ وكم تكون أعمارهم في

الدنيا؟ وهذه كلها باطلة، ولا أصل لها، من يعلم الغيب إلا الله؟! ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ﴾ [لقمان: ٣٤].

فالتعلق بمثل هذه الأوهام ينافي التوحيد بالكلية أو ينافي كماله الواجب، حسب اعتقاد الشخص أو حسب ما تعلمه من تلك العلوم الباطلة.

وقال أبو العباس ابن تيمية: «العراف: اسم للكاهن والمنجم والرمال ونحوهم، ممن يتكلم في معرفة الأمور بهذه الطرق»(١).

أي: بأي طريق يتعلمه ويتوصل به إلى معرفة المغيبات في المستقبل، هو داخل في هذا، وهناك علم يسمونه: (علم الأوفاق)، أو: (علم الحرف)، واختلف الناس فيه هل هو مباح؟ بعضهم حرمه وبعضهم أباحه، والغزالي والنووي تكلموا على هذا(٢)، ولهذا العلم مؤلفات، يتوصلون به إلى معرفة الأمور المستقبلة، والواقع أنه لا أصل له ولا حقيقة، وإن ألفوا وزعموا وادعوا، ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

وقال ابن عباس رضي الله عنهما في قوم يكتبون «أبا جاد» وينظرون في النجوم-: «ما أرى من فعل ذلك له عند الله من خلاق»(٣).

---

(١) ينظر: الفتاوى الكبرى (١/ ٦٣).

(٢) نسبت للغزالي كتب في أنواع من السحر وفي الأوفاق، ألف: (الوفق الثلاثي). ينظر: الفتاوى الحديثية لابن حجر الهيتمي (ص٢-٨).

(٣) أخرجه معمر في جامعه (ح: ١٩٨٠٥)- ومن طريقه البيهقي في السنن (ح: ١٦٥٩٢) والشعب (ح: ٣٨٣١) – من طريق ابن طاووس، عن أبيه، عن ابن عباس، به موقوفا. =

(ما أرى): يجوز بالفتح: بمعنى: ما أعلم، ويجوز: (ما أرى): بالضم، بمعنى: ما أظن.

(من فعل ذلك له عند الله من خلاق)؛ أي: ما أظن أن له نصيبا في الآخرة؛ فإنه لا حظ له عند الله ولا نصيب، متى تعلق بهذه الأوهام الباطلة، والشقشقات الفاسدة.

وهذه الأمور لا تزال موجودة في بعض أنحاء اليمن والمغرب وأفريقيا، وهم يتعلمون شيئا من هذا ويرونه جائزا ومباحا، في حين لم يصلوا إلى نتيجة، ولم يعرفوا شيئا، لكن تعلقوا بها؛ وهي أوهام لا أصل لها، بل هي أوهى من بيت العنكبوت.

ثم أغرب من هذا كله: أنهم يزعمون أنهم يتعلمون هذا لاستخراج الذهب، فالقطعة النحاسية يقلبونها ذهبا خالصا، وهو ما يسمى: بـ (علم الكيمياء)، وكلها باطلة، وهم من أفقر الناس، وأشر الناس، وأتعس الناس في هذه الحياة(١).

= وروي مرفوعا كما عند الطبراني (ح: ١٠٩٨٠)، وابن الأعرابي (ح: ١٧٢٨) من حديث خالد بن يزيد العمري، نا محمد بن مسلم الطائفي، عن إبراهيم بن ميسرة، عن طاووس، عن ابن عباس، به مرفوعا.

فخالف إبراهيم ابن طاووس، وهذا خبر منكر، والحمل فيه على خالد، قال فيه البخاري: «ذاهب الحديث»، وكذبه ابن معين، وأبو حاتم. ينظر: التاريخ الكبير (٣/ ١٨٤)، الجرح والتعديل (٣/ ٣٦٠).

وقال ابن حبان في المجروحين (١/ ٢٨٥): «لا يشتغل بذكره؛ لأنه يروي الموضوعات عن الأثبات».

(١) الكيمياء التي تكلم أهل العلم في تحريمها هي: التي تقلب المواد ظاهريا إلى أعيان أخرى، وهي موروثة عن قدماء الفلاسفة، قال أبو يوسف القاضي: «ومن طلب المال بالكيمياء أفلس» (مجموع الفتاوى ٢٩/ ٣٦٨).

وأما المصطلح الحديث للكيمياء وهو: (العلم الذي يدرس المادة وتفاعلاتها وعلاقتها بالطاقة) فباب آخر.

وقد كتب لي رجل من المغرب قال لي: «أحب أن تخبرني بما عندك من علوم الفلك، فإن عندي من العلم خاتم سليمان، وسأبعث لك بعلم خاتم سليمان الذي توصل به إلى الشياطين وتسخير الجن».

فقلت له: «سخر الجن والشياطين لخدمتك ما دمت تعرف هذا!»؛ لأنه من أفقر الناس، كتب إلي يسأل مالا، ومع هذا يقول أنه يعرف خاتم سليمان الذي يسخر به الجن ويسخر به الشياطين!

يتعلقون بهذه الأمور، مع أن واقعهم أنهم من أفقر الناس بقطع النظر عن العلوم الشرعية وما جاءت به الرسل والقرآن العزيز، يزعمون أنهم يستطيعون أن يسخروا الجن فتأتيهم بما يطلبون وما يريدون، والقوم لم يكونوا على علم، ولا على صراط مستقيم.



(٢٦) باب ما جاء في النشرة

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن النشرة فقال: «هي من عمل الشيطان»، رواه أحمد بسند جيد وأبو داود[(١)].

وقال: سئل أحمد عنها فقال: «ابن مسعود يكره هذا كله»[(٢)].

وفي «البخاري» عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته، أيحل عنه أو ينشر؟

قال: لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه. انتهى[(٣)].

وروي عن الحسن أنه قال: «لا يحل السحر إلا ساحر»[(٤)].

قال ابن القيم: «النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:

إحداهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز»[(٥)].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ١٤١٣٥)، وأبو داود في سننه (ح: ٣٨٦٨).

(٢) ينظر: الآداب الشرعية (٣/ ٧٧).

(٣) ذكره البخاري في صحيحه معلقا (٧/ ١٣٧).

(٤) أخرجه الطبري في «تهذيب الآثار» كما في الفتح (١٠/ ٢٣٣). ينظر: تغليق التعليق (٥/ ٤٩).

(٥) ينظر: إعلام الموقعين (٤/ ٣٠١).

شرح: باب ما جاء في النشرة

(النشرة): هي: الرقية التي يحل السحر بها، فإذا سحر الإنسان وذهب يتطبب ويبحث عمن يحل عنه السحر، فهذا الذي يحل عنه السحر يقال له: منشر، وحل السحر يقال له: نشرة.

والمصنف لما ذكر السحر والكهانة وما يحصل من التأثير في جسم المسحور، حتى إنه يخيل إليه أنه يفعل الشيء ولا يفعله، وربما حبس عن الوصول إلى زوجته، وربما حصل عنده تخبط في عقله فاحتاج إلى دواء أو من يحل عنه السحر، عقد المصنف هذه الترجمة تنبيها لما يجوز وما لا يجوز من حل السحر.

عن جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن النشرة فقال: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»، رواه أحمد بسند جيد وأبو داود[(١)].

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ١٤١٣٥) – ومن طريقه أبو داود في سننه (ح: ٣٨٦٨) – ومن طريق أبي داود البيهقي (٩/ ٥٩٠) – من حديث عقيل بن معقل قال: سمعت وهب بن منبه، يحدث عن جابر بن عبد الله فذكره مرفوعا.

عقيل هو: ابن معقل بن منبه، ابن أخي همام بن منبه ووهب بن منبه، وثقه أحمد، وابن معين. ينظر: تهذيب الكمال (٢٠/ ٢٤١).

لكن قال ابن معين: الصحيفة التي يرويها وهب بن منبه عن جابر ليست بشيء، إنما هو كتاب وقع إليهم، ولم يسمع وهب بن منبه من جابر شيئا». ينظر: تاريخ ابن معين برواية الدوري (٣/ ١١٨)، المراسيل لابن أبي حاتم (ص٢٢٨).

وقد تعقب المزي (تهذيب الكمال ٣/ ١٤٠) ابن معين فقال: «وروى ابن خزيمة في «صحيحه» عن محمد بن يحيى، عن إسماعيل بن عبد الكريم، عن إبراهيم بن معقل، عن أبيه، عن=

= وهب بن منبه قال: هذا ما سألت عنه جابر بن عبد الله...، وهذا إسناد صحيح إلى وهب بن منبه، وفيه رد على من قال: إنه لم يسمع من جابر؛ فإن الشهادة على الإثبات مقدمة على الشهادة على النفي، وصحيفة همام عن أبي هريرة مشهورة عند أهل العلم، ووفاة أبي هريرة قبل وفاة جابر، فكيف يستنكر سماعه منه وكانا جميعا في بلد واحد..؟!».

وتعقب أبا الحجاج الحافظ ابن حجر (التهذيب ١/ ٣١٦) فقال: «قلت: أما إمكان السماع فلا ريب فيه، ولكن هذا في همام، فأما أخوه وهب الذي وقع فيه البحث فلا ملازمة بينهما، ولا يحسن الاعتراض على ابن معين بذلك الإسناد؛ فإن الظاهر أن ابن معين كان يغلط إسماعيل في هذه اللفظة عن وهب: (سألت جابرا)، والصواب عنده: (عن جابر)، والله أعلم».

وقد أحسن الحافظ رحمه الله، والحاصل: أن الحافظ المزي أراد إثبات سماع وهب من جابر بسماع أخيه همام من أبي هريرة، وأبو هريرة أقدم وفاة من جابر؛ فإذن سمع وهب من جابر! ولا ملازمة كما قال ابن حجر، فإن هماما أكبر من وهب، وسماعه من أبي هريرة ثابت يقينا، أما وهب فروايته عنه جابر قليلة، ولم يثبت تصريحه بالسماع، ونفى السماع إمام لم يخالفه في ذلك أحد من المتقدمين، وبهذا يعلم أن الحديث لا يصح مرفوعا.

وقد رواه معمر في جامعه (ح: ١٩٧٦٢) عن عقيل بن معقل، عن همام بن منبه، عن جابر موقوفا.

وهذا هو الصواب في الخبر، ورواية همام عن جابر ليست معروفة، وسماعه منه ممكن، ولم ينفه أحد فيما وقفت عليه.

وللخبر شاهد من حديث أنس رواه البزار (ح: ٦٧٠٩)، والحاكم (٤/ ٤٦٤) من طريق مسكين بن بكير، حدثنا شعبة، عن أبي رجاء، عن الحسن، قال: سئل أنس بن مالك عن النشرة فقال: ذكر لي أن رسول الله ﷺ قال: «هي من عمل الشيطان».

وخالف مسكينا ابن عيينة وأبو أسامة كما عند ابن أبي شيبة (ح: ٢٣٥١٦)، وعلي بن الجعد كما عند أبي داود في (المراسيل ٤٥٣)، فرواه الثلاثة عن شعبة، عن أبي رجاء، عن الحسن مرسلا.

صوب الإرسال أبو حاتم كما في العلل لابنه (٦/ ١٣٩)، ولعل البزار يشير إلى إعلال رواية الوصل حين قال: «وهذا الحديث لا نعلم رواه عن شعبة إلا مسكين بن بكير، ومسكين حراني ثقة مشهور».

فالحديث لا يصح مرفوعا لا من مسند جابر، ولا من مسند أنس، والله أعلم.

وقال سئل أحمد عنها فقال: «ابن مسعود يكره هذا كله»[١].

الحديث يدل على أن حل السحر عن المسحور من عمل الشيطان، ولكن هذا ليس على إطلاقه، إن كان حل السحر بمثله فهو من عمل الشيطان، أو كان حل السحر بأشياء لا تجوز فهو من عمل الشيطان، أما إذا حل السحر بآيات قرآنية، وأحاديث نبوية، وأدعية مشروعة، أو أدوية مباحة فهذا لا بأس به؛ فإن الرسول ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً، فَتَدَاوَوْا وَلَا تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ»[٢]، والله يقول: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، فكما أنه شفاء للقلوب، فهو أيضًا شفاء للأبدان من العلل والأمراض والأسقام؛ كما في حديث أبي سعيد في البخاري في قصة رئيس الحي الذي لدغته عقرب، فطلب من يرقيه فلم يجد إلا أناسا من الصحابة، فطلبوا أن يرقوه فقالوا: نعم نرقي، ولكنا أضفناكم فلم تضيفونا فلا نرقي إلا بجعل، فجعلوا لهم قطيعا من الغنم، فجاء أحدهم فجعل يتفل على محل اللدغة ويقرأ سورة الفاتحة، فكأنما نشط من عقال، وأخذوا الجعل فذهبوا به إلى النبي ﷺ فأخبروه، فقال: «وَمَا كَانَ يُدْرِيهِ أَنَّهَا رُقْيَةٌ؟ اقْسِمُوا وَاضْرِبُوا لِي بِسَهْمٍ»[٣]، هذا يدل على أن التداوي بالقرآن لا بأس به، وكذلك النبي ﷺ عالج سعد بن معاذ رضي الله عنه لما أصيب بالكي[٤]، وقال ﷺ: « الشِّفَاءُ فِي ثَلَاثَةٍ: شَرْبَةِ

---

(١) ينظر: الآداب الشرعية (٣/ ٧٧).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٢٠٨).

عَسَلٍ، وَشَرْطَةِ مِحْجَمٍ، وَكَيَّةِ نَارٍ»[1]، إلى غير ذلك، فيكون حينئذ المعنى: أن النبي ﷺ لما سئل عن النشرة غير الجائزة قال: «هِيَ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ»، ومثاله: لو سحر إنسان فتقرب إلى شخص كما يقول بعض الجهلة ممن يحل السحر: «اذبح جديا أو تيسا أسود»، فهذا كله من السحر، ومن الأمور الباطلة.

أو يكتب حروفا مقطعة، وأسماء: (زنكبور) وغيرها، هذا كله من الأمور الباطلة؛ لأنها أسماء شياطين، فإذا كانت النشرة من الآيات القرآنية فهذا لا مانع منه، أو كانت بأدوية مباحة فلا مانع - أيضًا-، كما لو استعمل دواء مباحا، معلومة مركباته ومفرداته، وهي من الأشياء المباحة، من نبات، أو من بر، أو من غيره مما يجوز استعماله؛ فهذا لا مانع منه.

وفي «البخاري» عن قتادة: قلت لابن المسيب: رجل به طب أو يؤخذ عن امرأته، أيحل عنه أو ينشر؟

قال: «لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح، فأما ما ينفع فلم ينه عنه». انتهى[2].

قتادة بن دعامة السدوسي رَحِمَهُ اللَّهُ، من أئمة العلماء، ولد أكمه؛ أي: أعمى منذ ولادته، لكنه كان حافظا؛ لا يسمع شيئا إلا ويحفظه، والإمام الترمذي مثله، فإنه -أيضًا- ولد أكمه[3]، ولكنه أعطي حفظا لم يعطه غيره، حتى إنه كان لا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٥٦٨٠) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.
(٢) ذكره البخاري في صحيحه معلقا (٧/ ١٣٧).
(٣) نقل ذلك، وصوب الذهبي أن بصره ذهب في كبره. ينظر: سير أعلام النبلاء (١٣/ ٢٧٠).

يدخل السوق لئلا يسمع كلام من فيه فيحفظه، وكان قتادة يروي عن سعيد بن المسيب، لازمه حتى أخذ علومه، قال له ابن المسيب مرة: «إليك عني يا أعمى فقد غرفت ما عندي»[(١)].

(رجل به طب)؛ أي: سحر.

(أو يؤخذ عن امرأته): بمعنى: يحبس عن جماعها.

(أيحل عنه أو ينشر قال ابن المسيب: «لا بأس به، إنما يريدون به الإصلاح»).

يعني: إذا كان حل السحر للإصلاح فهو على رأي ابن المسيب جائز، لكن الشارح حمل كلام ابن المسيب هذا على النشرة الجائزة، وقال: «حاشا أن ابن المسيب يجوز حل السحر بما هو محرم كسحر مثله»[(٢)]؛ لأن الرسول ﷺ يقول: «إِنَّ اللهَ أَنْزَلَ الدَّاءَ وَالدَّوَاءَ، وَجَعَلَ لِكُلِّ دَاءٍ دَوَاءً، فَتَدَاوَوْا وَلَا تَدَاوَوْا بِحَرَامٍ»[(٣)]، فكلام ابن المسيب وإن كان عاما لكنه يحمل على ما هو جائز، والممنوع لا يريده ابن المسيب؛ لأنه يقول: «إنما يريدون به الإصلاح»، وما كان ممنوعا لا إصلاح فيه.

وروي عن الحسن أنه قال: «لا يحل السحر إلا ساحر»[(٤)].

المجيء للسحرة لحل السحر تعظيم لهم، ورفع لمنزلتهم، وهو من باب

---

(١) ينظر: سير أعلام النبلاء (٥/ ٢٧١).

(٢) ينظر: تيسير العزيز الحميد (٢/ ٨٤٨).

(٣) سبق تخريجه.

(٤) أخرجه الطبري في «تهذيب الآثار» كما في الفتح (١٠/ ٢٣٣). ينظر: تغليق التعليق (٥/ ٤٩).

تعاطي السحر -أيضًا-، وإن كان الغرض منه حل السحر، فالسحر لا يجوز حله إلا بما أباحه الله ﷻ.

قال ابن القيم: «النشرة: حل السحر عن المسحور، وهي نوعان:

إحداهما: حل بسحر مثله، وهو الذي من عمل الشيطان، وعليه يحمل قول الحسن، فيتقرب الناشر والمنتشر إلى الشيطان بما يحب، فيبطل عمله عن المسحور.

والثاني: النشرة بالرقية والتعوذات والأدوية والدعوات المباحة، فهذا جائز»[1].

معلوم أن الناشر هو: الذي يحل السحر، والمنتشر هو: المحلول عنه، وكل منهما يتقرب للشيطان، فالشيطان يبطل عمله عن المسحور بسبب ما تقرب به إليه، وذلك أن الشيطان هو الذي يعمل هذا العمل فيؤثر في بدن المسحور -بإذن الله-.

والجن والشياطين لا يخدمون أحدا من الإنس إلا بصرف شيء من العبادة لهم، أو بترك واجب من الواجبات الشرعية، أو بفعل محرم، فإذا تقرب إليهم بشيء من هذا ساعدوا على قضاء حاجة ذلك المتقرب إليهم، هذا معنى قول ابن القيم.

لكن قد تقول: أنا أقرأ على المريض ولكن لا أرى لذلك تأثيرا، فنضطر إلى استعمال حل السحر بالسحر.

نقول: بل للقراءة تأثير لو صدرت من قلب حي مؤمن بالله، لكنها لم تصدر من قلب حي مؤمن معتمد على الله، إنما يقرأ القرآن بطرف لسانه، وإلا لو

---

(١) ينظر: إعلام الموقعين (٤/ ٣٠١).

صدر من القلب حقيقة لأثر؛ كما في قصة الإمام أحمد بن حنبل؛ فإن الإمام أحمد جاءه رجل وأخبره بأن عنده بنتا تصرع، فقرأ عليها الإمام أحمد فشفيت، ثم لما توفي الإمام أحمد عاد إليها الصرع، فجاؤوا إلى أبي بكر المروذي فقرأ كما كان الإمام أحمد يقرأ، فقال له من صرعها: «لا تستطيع؛ فإن السيف واحد، ولكن الضارب غير الضارب!».

فإذا كان الرجل تقيا مخلصا لله متصلا قلبه بالله، فهذا تنفع قراءته، ويكون لها من التأثير الشيء الغريب.

أما إذا كان بخلاف ذلك فلا تأثير لقراءته، وقد جرى لابن تيمية وابن القيم شيء من هذا، فابن القيم يقول: كنت في مكة ومرضت مرضا شديدا، فلم أجد طبيبا فعالجت نفسي بقراءة الفاتحة، فبرئت من كل علة، وعادت صحتي كما كانت، وذلك كما قال الله: ﴿ وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الإسراء: ٨٢]، كما أنه شفاء للقلوب من العمى، وهداية للقلوب ونور، فكذلك هو شفاء للأبدان[١].

ونقل عن وهب بن منبه أن المسحور يأخذ سبع ورقات سدر خضر، ويدقها بين حجرين، ويجعلها في ماء، ثم يقرأ عليها الآيات المتعلقة بالسحر من سورة (يونس)، و(الأعراف)، و(طه)، و(آية الكرسي)، ثم يشرب من الماء، ويغسل بدنه ببقيته[٢]، وهذا جيد ومجرب، ولا بأس به.

---

(١) ينظر: زاد المعاد (٤/ ١٦٤).

(٢) ينظر: جامع معمر (١١/ ١٣).

(٢٧) باب ما جاء في التطير

وقول الله -تعالى-: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

وقوله: ﴿قَالُواْ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمۡ﴾ [يس: ١٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن الرسول ﷺ قال: «لا عدوى، ولا طيرة، ولا هامة، ولا صفر» أخرجاه[١].

زاد مسلم: «ولا نوء، ولا غول»[٢].

ولهما عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لا عدى ولا طيرة، ويعجبني الفأل».

قالوا: وما الفأل؟

قال: «الكلمة الطيبة»[٣].

ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: «أحسنها الفأل، ولا ترد مسلما، فإذا رأى أحدكم ما يكره فليقل: اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٥٧٥٧)، و مسلم في صحيحه (٢٢٢٠).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأما «ولا غول» من حديث جابر رضي الله عنه (ح:٢٢٢٢).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٥٧٧٦)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٢٢٤).

ولا حول ولا قوة إلا بك»[(١)].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا: «الطيرة شرك، الطيرة شرك وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل»، رواه أبو داود، والترمذي وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود[(٢)].

ولأحمد من حديث ابن عمرو: «من ردته الطيرة عن حاجة فقد أشرك».

قالوا: فما كفارة ذلك؟

قال: «أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»[(٣)].

وله من حديث الفضل بن عباس رضي الله عنهما: «إنما الطيرة ما أمضاك أو ردك»[(٤)].



(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ح: ٢٦٣٩٢)، وأبو داود في سننه (ح: ٣٩١٩).
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ٣٦٨٧)، وأبو داود في سننه (ح: ٣٩١٠)، والترمذي في جامعه (ح: ١٦١٤).
(٣) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ٧٠٤٥)، والطبراني في المعجم الكبير(ح: ٣٨).
(٤) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ١٨٢٤).

شرح: باب ما جاء في التطير

التطير على نوعين:

النوع الأول – وهو من الشرك الأكبر-: إذا اعتقد أن المؤثر لإيجاد الشر هو نفس ما تطير به، فهذا قد جعل مع الله شريكا؛ فإن الموجد للخير وضده هو الله -سبحانه-، وليس للطائر ولا غيره إيجاد شيء، بل الذي يملك النفع والضر هو رب العالمين دون غيره.

النوع الثاني -وهو مناف لكمال التوحيد-: وذلك إذا اعتقد أن المؤثر هو الله، وأن النافع والضار هو الله، ولكن يقول: هذه علامات.

وكانت الجاهلية تتطير بما تشاهده، تارة بالظباء، وتارة بالطيور، وتارة بالأزمنة، فكانوا لا يتزوجون في شهر شوال، وكذلك يتشاءمون بشهر صفر، ويتشاءم بعضهم -أيضًا- بيوم السبت، يقولون: إن طالع السبت هو المريخ، وهذا كله من الباطل، فالله هو خالق الشر وخالق الخير، أوجد هذا وهذا: ﴿مَآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِۖ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَۚ﴾ [النساء: ٧٩]، فمتى تعلقت نفس الإنسان بالطيرة، فإنه يبتلى بالشر، ويكون دائما في قلق؛ لأنه لم يعتمد على الله.

وكذلك كانوا يتشاءمون بآخر أربعاء من كل شهر، يقولون: لا ينبغي أن

تسافر في يوم الأربعاء، ولاسيما الأربعاء الذي يقع في آخر كل شهر، وروي في ذلك حديث موضوع[١].

وكانت الجاهلية عندما يريدون أن يسافروا أو يعملوا عملا تطيروا بالطيور، وهم يسمونها: السوارح والبوارح، والناطح والنطيح، والقاعد القعيد، فإذا ولاك الطائر ميامنه، قالوا: هذا سفر ميمون، وتجارة رابحة.

وإن ولاك مياسره، قالوا: هذا سفر مشؤوم، لا تسافر، ولا تعمل شيئا.

فإن قابلك الطائر من أمامك قالوا: ناطح ونطيح.

وإن جاء من خلفك قالوا: قاعد وقعيد.

وهذه كلها لا أصل لها، كما وقع لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه لما أراد غزو الخوارج جاءه من جاءه فقال: يا أمير المؤمنين، لا تسافر هذا اليوم؛ فإن طالعه العقرب، وإن من خرج فيه سيهزم.

قال علي رضي الله عنه: «آمنت بالله وعليه توكلت»، ثم خرج ولم يبال، فكسر الخارج كسرة شنيعة[٢].

وقول الله -تعالى-: ﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ١٣١].

---

(١) أخرجه الخطيب (١٦/ ٥٨٤)- ومن طريقه ابن الجوزي (الموضوعات ٢/ ٧٣) – من مسند ابن عباس ولفظه: «آخر أربعاء من كل شهر يوم نحس مستمر»، وهو كذب مختلق. ينظر: لسان الميزان (٨/ ٥٥٩).

(٢) ذكر هذه القصة شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله. ينظر: الفتاوى الكبرى (١/ ٦٧).

أول الآية: ﴿ وَلَقَدْ أَخَذْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ بِٱلسِّنِينَ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿١٣٠﴾ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ۗ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ١٣٠- ١٣١]، ﴿ فَإِذَا جَآءَتْهُمُ ٱلْحَسَنَةُ ﴾؛ أي: خصب، ووفرة أرزاق، وصحة، وعافية، ونعمة، ﴿ قَالُوا۟ لَنَا هَٰذِهِۦ ﴾ قالوا: نحن جديرون بأن نكون من أهلها، ونحن المستحقون لها.

﴿ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ ﴾: وإن يصبهم جدب وغلاء أسعار أو مرض، ﴿ يَطَّيَّرُوا۟ بِمُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ ﴾ قالوا: هذا بشؤم موسى!، ما أصابنا من الجدب والقحط وغلاء الأسعار والبلاء والشر كله هو بسبب وجود موسى بين أظهرنا، ﴿ أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمْ عِندَ ٱللَّهِ ﴾، بل طائركم الذي تطيرتم به هو بسبب كفركم، وعنادكم، وعدم قبولكم ما جاء به نبيكم، أصبتم بسبب هذا لا بسبب موسى، والذي أوجد هذا هو الله، ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴾[1].

وقوله: ﴿ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ﴾ [يس: ١٩].

﴿ قَالُوا۟ طَٰٓئِرُكُم مَّعَكُمْ ۚ أَئِن ذُكِّرْتُم ﴾، متى ذكروا بالله، وأمروا بتقوى الله، وأمروا باتباع ما جاء به رسول الله، نفروا فأصيبوا بسبب إسرافهم وانحرافهم، فتطيروا برسولهم، وإنما أصابكم ما أصابكم بسبب ذنوبكم حيث أمرتم ونهيتم فلم تقبلوا، ﴿ بَلْ أَنتُمْ قَوْمٌ مُّسْرِفُونَ ﴾: مجرمون ظالمون، فينبغي للعبد ألا

---

(١) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٣/ ٤٨)، ومعالم التنزيل للبغوي (٣/ ٢٦٨).

يتعلق بنجم، ولا بيوم، ولا بطائر، ولا بأي شيء، بل يتعلق بالله ﷻ، ويعلم أنه هو النافع الضار، وأن ما أصابه لم يكن ليخطئه، وما أخطأه لم يكن ليصيبه، بهذا يستريح قلبه، ويرتاح ضميره، بخلاف ما إذا تعلق العبد بهذه الأوهام بقي في قلق وكلفة وبلاء.

ومن ذلك ما ذكره بعضهم في التطير أنهم يزعمون أن صاحب التجارة يستفتح بأول من يشتري منه، إن اشترى منه شخص جميل تعلق بذلك، وقال: اليم يوم كسب وربح وخير، وإن اشترى منه شخص أعور قال: يوم مشؤوم، نخسر فيه.

فإذا جاء الشخص الأعور -مثلا-، فهم لا يبيعونه أول النهار؛ لأنهم يتطيرون به، بخلاف ما إذا كان يبصر بعينيه أو لا يبصر بهما جميعا، وهذه كلها أوهام.

وبعض الناس الآن يتطير بمثل هذا، فالعبد يجب أن يعتمد على الله ويتوكل عليه، ويعتقد ما جاء في الحديث: «أَنَّ مَا أَصَابَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُخْطِئَكَ، وَمَا أَخْطَأَكَ لَمْ يَكُنْ لِيُصِيبَكَ»[1]، مع أن التجارب -أيضًا- كلها تبطل هذا وتنفيه، ولاسيما مع الثقة بالله؛ فإن كل هذه خرافات لا أصل لها، لهذا قال الله:

---

(١) روي من طرق، أمثلها ما رواه أحمد في مسنده (ح: ٢٨٠٣)، والترمذي في جامعه (ح: ٢٥١٦) من حديث قيس بن الحجاج، عن حنش الصنعاني، عن ابن عباس، به مرفوعا.
قال العقيلي (الضعفاء ٣/ ٣٩٧): «الأسانيد في هذا لينة»، إلا أن الحافظ ابن رجب (جامع العلوم والحكم ص٤٦٩) قال: «طريق حنش التي خرجها الترمذي حسنة جيدة».

﴿أَلَآ إِنَّمَا طَٰٓئِرُهُمۡ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأعراف: ١٣١] فما أصاب العبد هو بسبب ذنوبه وسيئاته، لا بسبب أمر آخر، وأي شيء عند هذا الطائر؟! وأي شيء عند هذا الظبي؟! وأي شيء عند فاقد العين؟!، فلهذا عقد المصنف هذا الباب ليميز بين الفعل المطلوب شرعا، وبين التطير المنهي عنه الذي هو شرك على ما يأتي بيانه في الأحاديث الآتية.

عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن الرسول ﷺ قال: «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ» أخرجاه[١].

زاد مسلم: «وَلَا نَوْءَ، وَلَا غُولَ»[٢].

(لا عدوى): نفي لحقيقة العدوى في قول طائفة من العلماء، فسروه بهذا؛ فقالوا: إن العدوى لا تقع، وليس هناك شيء يسمى عدوى، هذا قولهم، لكن هذا فيه ما فيه.

والمعنى الصحيح دل عليه ما قاله النبي ﷺ حين سأله الأعرابي قائلا: يا رسول الله، ما بال الإبل يخالطها البعير الأجرب فتجرب كلها؟

فقال ﷺ: «فَمَنْ أَعْدَى الأَوَّلَ؟»[٣]؛ أي: الذي أوجد الجرب في الأول هو الذي نقل الجرب إلى الثاني والبقية، لا أن المرض يتعدى بنفسه دون ناقل له،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٥٧٥٧)، و مسلم في صحيحه (٢٢٢٠).

(٢) زيادة: «ولا نوء» رواها مسلم (ح: ٢٢٢٠- ١٠٦) من مسند أبي هريرة، وأما زيادة: «ولا غول» فرواها (٢٢٢٢) من مسند جابر رضي الله عنه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٥٧١٧)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٢٢٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

بل الله هو الذي نقله؛ فإن الله ربط الأسباب بمسبباتها، والأسباب جاءت بها الشريعة، فالذي أوجد الجرب في البعير الأول هو الذي نقله من هذا إلى هذا، فجعل مجرد المخالطة سببا لوجود هذا المرض، ولهذا جاء في الحديث الآخر: «فِرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ كَمَا تَفِرُّ مِنَ الْأَسَدِ»[1]؛ أي: ابتعد عن مواطن الشر مع اعتقاد أن الله هو المقدر لذلك، هذا هو المعنى -وإن تنوعت آراء العلماء في ذلك-.

وقال بعضهم: إن قول الرسول ﷺ: «لا عدوى» إنما قاله لمن قوي توكله ويقينه بالله.

وقال لمن كان في نفسه شيء من ضعف الإيمان: «فر من المجذوم»، ولكن هذا كله رده العلامة ابن القيم وغيره، فقال: «المعنى: أن تعتقد أن الله هو المؤثر، وأنه هو الذي ينقل المرض من هذا إلى هذا، وأنت مأمور بتعاطي الأسباب واتقاء الأمراض، فقوله: «فر من المجذوم» لا ينافي قوله: «لا عدوى» بل تتوكل وتعتمد على الله، مع أنك مأمور بتعاطي الأسباب بما يحفظ عليك صحتك»[2].

فمعنى: (لا عدوى)، ليس المراد نفي وجود العدوى، فالعدوى موجودة، وإنما المراد أن العدوى لا تنتقل إلا بإذن الله، لا أنها تنتقل بنفسها.

وقوله ﷺ: «فر من المجذوم»: هو من باب تعاطي السبب، وهو أنك تبتعد عن كل ما من شأنه أن يضرك.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٥٧٠٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) إعلام الموقعين (٢/ ٢١٢)، الهدي (١/ ١٣٧)، ومفتاح دار السعادة (٢/ ٢٢٤).

وأما قوله ﷺ: «الشُّؤْمُ فِي ثَلاَثَةٍ: فِي الفَرَسِ، وَالمَرْأَةِ، وَالدَّارِ»(١) فليس هو من التطير؛ لأن بعض الأعيان جعلها الله خيرا وبركة، وبعض الأعيان جعلها بخلاف ذلك، لكن إن كان عندك يقين وثقة بالله واعتماد عليه فلا ينبغي أن تخرج من دارك، ولا أن تطلق زوجتك، لا أن تترك دابتك، فإذا أحسست من نفسك الثقل والكراهية لهذا الموضع بسبب ما حصل عليك فيه فلا مانع من الانتقال؛ لأن الله خلق الأعيان وفيها شيء من الشر أو من الخير، كالمسك؛ فإن الناس يتلذذون برائحته، وعكسه الشيء النتن، من ميتة أو عذرة أو ما أشبه ذلك.

وفرق الشارح(٢) بين هذا وبين نعيق الغراب، فقال: «إن هذا متكرر، فالناس يسافرون، وكلما سمعوا غرابا وقع في أنفسهم شيء، أما هذه الثلاث فما دام أنهم سيلازمونها بصورة دائمة أمر النبي ﷺ بمفارقة هذا المكان، طلبا لراحة الضمير وطمأنينته».

(ولا هامة)، العرب كانت تتشاءم بالهامة، وهي: البومة، فإنها متى وقعت على جدار دار أحدهم وصوتت بالليل قال: «نعت إلي نفسي»، يتطير بصوتها، وأنه سيموت، أو سيموت أحد من أهله، فأبطل النبي ﷺ هذا بقوله: «ولا هامة»، ليس عندها شيء، ما هي إلا طائر، وكانت العرب تزعم أن الميت إذا مات يتكون من عظامه طائر وهي: البومة، وهذا هو القول بالتناسخ، وهو: أن الإنسان إذا مات

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له (ح: ٢٨٥٨)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٢٢٥) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) **ينظر**: تيسير العزيز الحميد (٢/ ٨٧٤).



تنتقل روحه إلى جسم شخص آخر[1]، ولاشك أن الإسلام أبطله، وهذا كفر؛ لأنه تكذيب للقرآن، بل أخبر النبي ﷺ: أن أرواح الشهداء في حواصل طير خضر، وأنها تسرح وتروح إلى الجنة[2]، والقول بالتناسخ باطل بالكتاب، والسنة، وإجماع الأمة، وهو مذهب إلحادي.

وقيل: إن معنى (الهامة): أن العرب كانت تعتقد أنه ينبعث من رأس الميت طائر هو (الهامة)، يطير على قبره سبعة أيام ثم يذهب، لكن المعروف أن (الهامة) هي (البومة)، التي تصوت بالليل.

(ولا صفر): كذلك كانت العرب تتشاءم بشهر صفر، وقيل: (صفر) حية تكون في البطن، وإذا خالط غيره تعدى الأذى والمرض إليه[3]، لكن المعروف أنه شهر صفر؛ قال ابن رجب: «هذا هو الأشبه»[4]؛ لأن العرب كانت تتطير بشهر صفر، لا يسافرون فيه، ولا يتزوجون فيه.

من الذي أوجد هذه الأوقات والأزمنة؟! الله هو الذي يقدر الخير ويقدر الشر، الله بيده كل شيء، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

وكانوا يزعمون أن السنة إذا دخلت يوم الأربعاء أنه يكثر فيها موت العلماء والرؤساء، وكذلك إذا دخلت السنة يوم الثلاثاء يقع كذا وكذا من الفتن

---

(١) **ينظر**: الفصل لابن حزم (١/ ٧٦)، الفرق بين الفرق (ص٢٥٣).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ١٨٨٧) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٣) **ينظر**: غريب الحديث لأبي عبيد (١/ ٢٥)، غريب الحديث لابن الجوزي (١/ ٥٩٢).
(٤) **ينظر**: لطائف المعارف (ص٧٤).

والبلاء، وكل هذا من الأمور الباطلة، لكن الإنسان متى تعلقت نفسه بهذه الأوهام يبقى قلقا وفزعا ومندهشا، فاستعن بالله ودع عنك هذا كله؛ ولهذا قال النبي ﷺ: «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ وَلَا هَامَةَ وَلَا صَفَرَ».

(ولا نوء): كما أنهم كانوا يتطيرون بالأزمنة كالأربعاء والثلاثاء وصفر، فكذلك -أيضًا- يتطيرون بالنجوم، ويقولون: «زحل طالعه كذا، والمشتري طالعه كذا، والزهرة طالعها كذا».

وأي خير أو شر عند هذا النوء؟! الأمور كلها بيد الله، فالعبد إذا اعتمد على الله، وتوكل على خالقه وباريه، وامتلأ قلبه بالإيمان لم يهمه شيء، مع أن التجربة -أيضًا- تبطل هذا؛ فإن أحد خلفاء بني العباس مرض فدعا المنجمين من كافة أنحاء مملكته حتى اجتمع عنده نحو خمسين منجما، ففرقهم وجعل كل واحد وحده، وقال: «انظروا متى يكون أجل أمير المؤمنين؟».

فحدسوا وحسبوا وأجمعوا من غير أن يعلم أحد بأحد على أنه بقي من عمر أمير المؤمنين خمسون سنة، فمات بعد ذلك بعشرة أيام!![(١)]

(ولا غول): بضم الغين؛ وهو: جنس من الجن، ووجودها حق، تضل الطريق، لكن العرب يتشاءمون بها، وهي تتعرض للمسافرين كثيرا في صورة نار، فيراها المسافر من بعيد يظن أن هذا منزل بادية فيقصدها، ثم تنتقل إلى جهة أخرى، فيأتيها فتضله الطريق، وقد تتلون بصورة حمار، أو بعير، أو امرأة، والمسافرون الذين يسلكون الأراضي المهجورة التي يقل سالكوها يجدون

---

(١) هو الخليفة الواثق بالله. ينظر: تاريخ الطبري (٩/ ١٥١)، والكامل (٦/ ١٠٧).

شيئا من هذا، ولكن عندما يؤذن الإنسان فإن هذا يذهب عنه.

ولهما عن أنس رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا عَدْوَى وَلَا طِيَرَةَ، وَيُعْجِبُنِي الْفَأْلُ».

قالوا: وما الفأل؟

قال: «الْكَلِمَةُ الطَّيِّبَةُ»[1].

(«ويعجبني الفأل»، قالوا: وما الفأل؟ قال: «الكلمة الطيبة»: من طبع الإنسان إذا سمع الكلمة الطيبة ارتاح لها ضميره، واطمأن لها باله، كالمريض يسمع شخصا يقول له: «يا سالم»، يفرح ويقول: «هذا فأل طيب»، وهذا ليس فيه شيء.

ولأبي داود بسند صحيح عن عقبة بن عامر رضي الله عنه قال: ذكرت الطيرة عند رسول الله ﷺ فقال: **«أَحْسَنُهَا الْفَأْلُ وَلَا تَرُدَّ مُسْلِمًا، فَإِذَا رَأَى أَحَدُكُمْ مِنْ ذَلِكَ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُلِ: اللَّهُمَّ لَا يَأْتِي بِالْحَسَنَاتِ وَلَا يَدْفَعُ السَّيِّئَاتِ إِلَّا أَنْتَ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِكَ»**[2].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٥٧٧٦)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٢٢٤).

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ح: ٢٦٣٩٢)، وأبو داود في سننه (ح: ٣٩١٩)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (ح:٢٩٣)، والبيهقي في السنن الكبرى (ح: ١٦٥٢١)، الدعوات الكبير (ح: ٥٦٨)، من حديث حبيب بن أبي ثابت، عن عروة بن عامر، به مرفوعا.
الأثر على عدم إثبات الصحبة لعروة، وقد نص على أن الحديث مرسل: أبو حاتم، والبيهقي.
ينظر: تاريخ ابن معين برواية الدوري (٣/ ٥٧٦)، المراسيل لابن أبي حاتم (ص١٩٤)، معجم الصحابة لابن قانع (٢/ ٢٦٢)، جامع التحصيل (ص٢٣٧).
وله علة أخرى وهي: الانقطاع بين حبيب وعروة، قال الحافظ: «والظاهر أن رواية حبيب عنه منقطعة». ينظر: التهذيب (٣/ ٩٥)، الإصابة (٧/ ١٥٤). =

(أحسنها الفأل): وجه كون الفأل من الطيرة: أن الطيرة تعلق على تشاؤم، والفأل: تعلق على أمر يدخل على الإنسان السرور والطمأنينة، فلو كنت مريضا فسمعت رجلا يقول: «يا سالم»، أو دخل عليك رجل اسمه: (سالم)، فإنك ترتاح لهذه الكلمة، وتتفاءل بها بحصول السلامة لك.

وفيه أن الحسنات من الله، وأن دفع السيئات من الله، مع أن لك مشيئة في ذلك لكنها لا تخرج عن مشيئة الله.

(ولا حول): ذكرا في تفسيرها وجهين:

الأول: أي: لا تحول عن معصية الله إلى طاعة الله إلا بإذن الله وإعانته.

الوجه الثاني: -وهو أجمع وأشمل-؛ أي: لا تحول من حال إلى حال إلا بإذن الله وإعانته.

فلم تترك المحرم إلا بإعانة الله لك، وما فعلت عبادة إلا بإعانة الله لك، وما حصل لك علم إلا بإعانة الله لك.

فإذا أحس الإنسان بكراهية في قلبه لأمر معين فليبادر بذكر هذا الدعاء، وهذا شبيه بالتوجيه النبوي لمن رأى في منامه ما يكره أن يتفل عن يساره،

= وليس الحديث عن عقبة بن عامر، وقد تعقب المصنف في ذلك حفيده الشيخ سليمان (٢/ ٨٨٤)، ولعله تبع في ذلك الوهم ابن القيم في الوابل الصيب (ص٣٧٤).
وأما تصحيح الإسناد فلعل الإمام قد تبع فيه النووي في رياض الصالحين (ص٥٣٨).
وقد أخرجه معمر في جامعه (ح: ١٩٥١٢) من حديث الأعمش مرسلا.
تنبيه: وقع في المطبوع من عمل اليوم والليلة: (عقبة) وهو تصحيف، والله أعلم.

ويستعيذ بالله من الشيطان الرجيم[١].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه مرفوعا: «الطيرة شرك، الطيرة شرك، وما منا إلا، ولكن الله يذهبه بالتوكل» رواه أبو داود، والترمذي وصححه، وجعل آخره من قول ابن مسعود[٢].

فيه: أن التطير من الشرك، وذلك أن يعتقد أن هذا الطائر سبب في الخير أو الشر، فإن اعتقد أنه مسبب فهو شرك في الربوبية.

أي سبب عند هذا الطائر وأي خير إذا ولاك ميامنه؟! وأي شر عنده إذا ولاك مياسره؟! وما الذي يؤثر إذا قابلك – وهو: (الناطح والنطيح)-؟! وأي تأثير يحصل إذا صار خلفك – وهو: (القاعد والقعيد)-؟!

(وما منا إلا..): في الجملة حذف دل عليه السياق والتقدير، وهو: (وما منا إلا وقد وقع في قلبه شيء من التطير).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٢٦١) من حديث أبي سلمة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه الطيالسي في مسنده (ح: ٣٥٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (ح: ٢٦٩١٩)، والإمام أحمد في مسنده (ح: ٣٦٨٧)، والبخاري في الأدب المفرد (ح: ٩٠٩)، وأبو داود في سننه (ح: ٣٩١٠)، والترمذي في جامعه (ح: ١٦١٤)، وابن ماجه في سننه (ح: ٣٥٣٨)، وابن حبان في صحيحه (ح: ٦١٢٢)، والحاكم في مستدركه (ح:٤٣)، والبيهقي في الشعب (٢/ ٣٩٧)، من طريق سلمة بن كهيل، عن عيسى بن عاصم، عن زر بن حبيش، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، به مرفوعا.
إسناده صحيح، وعيسى بن عاصم هو: الأسدي.
وقوله: «وما منا إلا...» هو من كلام ابن مسعود، قاله سليمان بن حرب والبخاري (العلل الكبير ص٢٦٥)، والبيهقي، والخطيب التبريزي (المشكاة ٢/ ١٢٩٠)، والهيثمي (موارد الظمآن ٤/ ٤١٦) في آخرين.

(ولكن الله يذهبه بالتوكل): هذا من كلام ابن مسعود رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فإذا وقع في قلبك شيء من ذلك فتوكل على الله، واعلم أنه هو الضار النافع، وأن هذا ليس بسبب الخير أو الشر، وبهذا لا يضرك ما وقع في قلبك.

ولأحمد من حديث ابن عمرو: «من ردته الطيرة عن حاجة فقد أشرك».

قالوا: فما كفارة ذلك؟

قال: «أن تقول: اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك»[(١)].

المعنى: أن الإنسان إذا تشاءم في قلبه من شيء فإنه لا يكون من الطيرة إلا إذا رده ذلك عن حاجته، فلو أن تاجرا كان يبيع فجاءه أول الصباح رجل أعور، إن رده فتح على نفسه باب شر، وباب شرك، وتعلق بغير الله.

فالواجب أن الإنسان لا يتعلق قلبه بغير الله، فمن أراد السفر فسمع غرابا

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ٧٠٤٥)، وابن السني في عمل اليوم والليلة (٢٩٢)، والطبراني في المعجم الكبير(ح: ٣٨)، من حديث ابن لهيعة، عن ابن هبيرة، عن أبي عبد الرحمن الحبلي، عن عبد الله بن عمرو، به مرفوعا.
ولا يصح لما علم من حال ابن لهيعة رَحِمَهُ اللَّهُ.
تنبيه: وقع في المطبوع من عمل اليوم والليلة «عن ابن عمر»، وهو تصحيف.
وأخرجه ابن وهب في جامعه (ح: ٦٥٩- ٦٦٠)، وابن أبي شيبة (ح: ٢٦٩٣٩)، والبيهقي في الشعب (ح: ١١٣٧)، من حديث عبد الله بن عمرو موقوفا عليه، وهو أصح.
وللمرفوع شاهد من حديث بريدة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، رواه البزار (ح: ٤٣٧٩)، والطبراني في الدعاء (ح: ١٢٧٠)، وإسناده ضعيف؛ فإن فيه: الحسن بن أبي جعفر، قال أحمد وابن معين: «ليس بشيء»، وقال البخاري: «منكر الحديث». ينظر: سؤالات ابن هانئ (٢/ ٢١٠)، والعلل (٢/ ٦٠٤)، والتاريخ الكبير (٢/ ٢٨٨).
وروى نحوه ابن أبي شيبة (ح: ٣٠٤٩٢) من حديث ابن عباس موقوفا عليه.

ينعق فرده ذلك عن سفره فإنه قد تطير، وولج في باب الشرك.

والمتعين على الموحد أن يقطع العلائق عن جميع الخلائق ويتصل بالخالق، فالله هو الذي ينفع ويضر، فإن وقع في قلبك شيء من ذلك فقل: (اللهم لا خير إلا خيرك، ولا طير إلا طيرك، ولا إله غيرك)، وهذا من جنس قوله في الحديث السابق: (اللهم لا يأتي بالحسنات إلا أنت، ولا يدفع السيئات إلا أنت، ولا حول ولا قوة إلا بك)، فهذه الكلمات تقلع جذور شجرة الشرك من قلبك، وتجعله صافيا لله، ويذهب عنك هذا التطير.

وله من حديث الفضل بن عباس رضي الله عنهما: «إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ، أَوْ رَدَّكَ»(١).

(وله): أي: لأحمد، وهذا الحديث له سبب وهو أن الفضل بن عباس قال: خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما فبرح ظبي فمال في شقه فاحتضنته، فقلت: «يا رسول الله تطيرت؟».

فقال: (إِنَّمَا الطِّيَرَةُ مَا أَمْضَاكَ، أَوْ رَدَّكَ)؛ فلا يثبت حكم الطيرة إلا إذا أمضتك أو ردتك تعلقا بها.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ١٨٢٤) من حديث ابن علاثة، عن مسلمة الجهني، عن الفضل، به مرفوعا.
وإسناده ضعيف، ابن علانة قال البخاري (التاريخ الكبير ١/ ١٣٢): «فيه نظر»، وقال الدارقطني (السنن ١/ ٤١٠): «ضعيف متروك».
وله علة أخرى وهي: أن مسلمة لم يسمع من الفضل بل لم يدركه! والخبر قد أعله المصنف كما نقله عنه حفيده الشيخ سليمان (٢/ ٨٩٢).



(٢٨) باب ما جاء في التنجيم

قال البخاري في «صحيحه»: «قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدي بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به». انتهى(١).

وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه، ذكره حرب عنهما، ورخص في تعلم المنازل أحمد وإسحاق(٢).

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثلاثة لا يدخلون الجنة: مدمن الخمر، وقاطع الرحم، ومصدق بالسحر» رواه أحمد وابن حبان في «صحيحه»(٣).



(١) ذكره البخاري في صحيحه معلقا (٤/ ١٠٧)، ووصله ابن جرير (١٤/ ١٩٣)، وابن أبي حاتم (ح: ١٦٥٣٦).

(٢) ينظر: القول في علم النجوم للخطيب (ص١٣٣)، وشرح العمدة (ص٥٥٣).

(٣) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ١٩٥٦٩)، وابن حبان في صحيحه (ح: ٥٣٤٦).

شرح: باب ما جاء في التنجيم

(التنجيم) هو: الاستدلال بالأحوال الفلكية على الحوادث الأرضية، يقولون – مثلا-: إذا اجتمعت الزهرة مع كذا: وقع كذا، وإذا حصل للمشتري كذا: وقع كذا.

فإن اعتقد أن المؤثر والموجد للخصب أو الجدب أو غيرهما هو الكوكب نفسه فهو كافر بإجماع المسلمين، وبعض الناس على هذا الاعتقاد، خاصة الصابئة.

أما إذا اعتقد أن الموجد والمؤثر هو الله، وأن هذه الكواكب سبب في معرفة ما سيقع، فهذا اختلف العلماء فيه، والصواب أنه كفر؛ لأنه تعاطى شيئا قد استأثر الله بعلمه، فمثلا هم يستدلون بأمور في الكواكب على معرفة وقت وفاتك، فيقولون: أنت تموت بعد خمسين سنة –مثلا– أين هذا من قول الله –تعالى-: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْأَرْحَامِ ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا ۖ وَمَا تَدْرِى نَفْسٌۢ بِأَىِّ أَرْضٍ تَمُوتُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌۢ ﴾ [لقمان: ٣٤]؟! وأين هذا من قوله تعالى: ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]؟!

يقول المنجم: «سيأتيك من الأولاد سبعة، ومن البنات ثلاث»، «ستسجن»، «ستقتل»، «ستتولى رئاسة»، وكل هذا من الباطل، لا يعلم ما في غد إلا الله.

وقد ألف قوم في ذلك، ككتاب: «شمس المعارف»[1]، و«المجربات»[2]، وما أشبه ذلك.

وهم يتعلقون بهؤلاء المنجمين مع أن ما يقولونه لا يقع إلا نادرا، وقد ألف أبو معشر الفلكي كتابا في التنجيم، رتبه على البروج، فمن ولد في برج الجدي -مثلا-: فله من العمر كذا، ومن المال كذا، ويحصل له من المصائب كذا وكذا.

ثم يحسب اسمه واسم أمه، فلو كان اسمه: (زيد) -مثلا-؛ فالزاي تساوي: سبعة، والياء تساوي: عشرة، والدال تساوي: أربعة، فالمجموع: واحد وعشرون.

وإذا كان اسم أمه: (هند) - مثلا-؛ فالهاء تساوي: خمسة، والنون تساوي: خمسين، والدال تساوي: أربعة، المجموع: تسعة وخمسون، ومع حساب اسمه صار المجموع: ثمانون، ثم إذا كان مولودا في البرج الثامن - وهو: (برج العقرب)- خصم من ذلك المجموع ثمانية، فيقول: «أنت تعيش اثنتين وسبعين سنة!»، الأبراج اثنا عشر، وكل هذا من الخرافات التي لا أصل لها، وكذلك يدخل في هذا علم الأكتاف، وعلم الأوفاق، وعلم الجفر، وقد استأثر الله بعلم الغيب: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النمل: ٦٥].

---

(١) منسوب لأبي العباس، أحمد بن علي البوني.

(٢) لابن سينا.

وهناك نوع آخر من تعلم منازل النجوم -وهو جائز-، وهو: تعلمها لمعرفة القبلة، وزوال الشمس، وجهة السير، كما قال الله ﷻ: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٧].

وكذلك معرفة الأحوال الجوية ليست من النوع المحرم، فنحن نعرف أن نهاية طول الليل وقصر النهار هو: في برج الجدي، ونهاية قصر الليل وطول النهار هو: في برج السرطان، ونعرف أن تساوي الليل والنهار هو: في برج الميزان.

قال البخاري في «صحيحه»: «قال قتادة: خلق الله هذه النجوم لثلاث: زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدي بها، فمن تأول فيها غير ذلك أخطأ، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به». انتهى(١).

لم يخلق الله النجوم لنستدل بها على المستقبل، وإنما خلقها كما قال قتادة: (زينة للسماء، ورجوما للشياطين، وعلامات يهتدى بها)، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنۡيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ ﴾ [الملك: ٥]، وقال سبحانه: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلنُّجُومَ لِتَهۡتَدُواْ بِهَا فِى ظُلُمَٰتِ ٱلۡبَرِّ وَٱلۡبَحۡرِۗ قَدۡ فَصَّلۡنَا ٱلۡأٓيَٰتِ لِقَوۡمٖ يَعۡلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ٩٧]، فمن زعم غير هذا فقد أخطأ، وتكلف ما لا علم له به، وأضاع نصيبه من الدين والخير.

---

(١) ذكره البخاري في صحيحه معلقا (٤/ ١٠٧)، ووصله ابن جرير (١٤/ ١٩٣)، وابن أبي حاتم (ح: ١٦٥٣٦) من حديث سعيد بن أبي عروبة، عن قتادة، وإسناده صحيح. ينظر: تغليق التعليق (٣/ ٤٨٩).

وقد استدل طائفة من أهل العلم بقوله: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ على أن النجوم هي في السماء الدنيا معلقة كالقمر.

فإن قلت: ما القول فيما تناقله الناس وتلقوه بالقبول من أن قوما وصلوا إلى القمر؟! هل في القرآن ما يدل على هذا؟ وهل جرت محاولات في ذلك قديما؟

نقول لك: ليس ببعيد أنهم وصلوه، وقد ذكر الآلوسي في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ءَايَتَيْنِ فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّتَبْتَغُوا۟ فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ وَكُلَّ شَىْءٍ فَصَّلْنَٰهُ تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء: ١٢] أن الفلاسفة صنعوا سفنا من زئبق وأرادوا الوصول بها إلى القمر فلما تكامل بناؤها ركبوها واتجهوا إلى القمر فرجعا وقد انتفخت أجسامهم، وعادوا خاسئين خاسرين(١).

وسبب ذلك أنهم لما صعدوا لم يكن عندهم من الآلات ما يغذيهم بالأوكسجين، فتضرروا؛ فيمكن أن يصلوا الآن إلى القمر، وإن كان بعض الناس يقول: لا يمكن – ومن جملة هؤلاء مدير الأرصاد الفلكية في أمريكا سابقا-، أذكر أني قرأت له مقالا قال فيه: «إن الذين زعموا أنهم وصلوا إلى سطح القمر ليسوا على شيء، إنما وصلوا إلى مرتفع خال من الحياة في أقصى الأرض» - هذا قوله-، والله أعلم بحقيقة الحال، لكن من حيث الإمكان نقول: ذلك ممكن، فالله يقول: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلشَّفَقِ ﴿١٦﴾ وَٱلَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٧﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا ٱتَّسَقَ ﴿١٨﴾ لَتَرْكَبُنَّ طَبَقًا عَن طَبَقٍ﴾ [الانشقاق: ١٦- ١٩]، قال بعض المفسرين:

(١) ينظر: روح المعاني (٨/ ٢٨).

معناه: لتصعدن طبقا فوق طبق، وجمهور المفسرين على أن المعنى: لتركبن حالا بعد حال؛ أي: تتقلب بكم الأحوال[1].

وقد قال المنجمون في قوله تعالى: ﴿وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] المعنى: يهتدون بأحوال النجوم على ما سيقع.

والمسلمون يقولون: لا، بل يهتدي بها في معرفة الجهات؛ لأنه قال سبحانه في الآية الأخرى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ [الأنعام: ٩٧] فقوله: ﴿فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾ دليل على أن الاهتداء هو في جهات السير، إذ لو كان على معرفة ما سيقع لم يقيد ذلك بظلمات البر والبحر!

وكذلك يستدلون بقصة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِن شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ ﴿٨٣﴾ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ ﴿٨٤﴾ إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ ﴿٨٥﴾ أَئِفْكًا آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ ﴿٨٦﴾ فَمَا ظَنُّكُم بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ فَنَظَرَ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ ﴿٨٨﴾ فَقَالَ إِنِّي سَقِيمٌ﴾ [الصافات: ٨٣- ٨٩]، قالوا: هذا إبراهيم نبي الله وخليله نظر في النجوم واستدل بها.

نقول: هذا باطل؛ فإبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ لم ينظر في النجوم على وجه معرفة التأثير، بل على وجه التفكير، وقد كان قومه من الصابئة عبادا للنجوم، يدلك على هذا ما

(١) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (٢٤/ ٢٥٠- ٢٥٤)، وتفسير ابن أبي حاتم (١٩١٩٧- ١٩١٩٨).

جاء في سورة الأنعام من قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ ٱلَّيْلُ رَءَا كَوْكَبًا ۖ قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْـَٔافِلِينَ ﴿٧٦﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى ۖ فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ ﴿٧٧﴾ فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ ۖ فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ ﴿٧٨﴾ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا ۖ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام: ٧٦- ٧٩].

ويدلك -أيضًا- على بطلان ذلك أن قوله عليه السلام: ﴿إِنِّى سَقِيمٌ﴾ كان كذبة منه، لا حقيقة، ففي حديث الشفاعة الطويل أنه عليه السلام يعتذر عنها، ويذكر أنه كذب ثلاث كذبات(١)، وأن اثنتين منها في ذات الله(٢).

فالحاصل: أن التنجيم منهي عنه، وذهب بعض أهل العلم إلى أنه كفر إذا اعتقد أن النجم سبب، أما إذا اعتقد أن النجم مسبب فهذا قد جعل مع الله شريكا، وهو كفر بالربوبية بإجماع المسلمين، والله يقول: ﴿قُل لَّا يَعْلَمُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ٱلْغَيْبَ إِلَّا ٱللَّهُ ۚ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥].

وكره قتادة تعلم منازل القمر، ولم يرخص ابن عيينة فيه، ذكره حرب عنهما، ورخص في تعلم المنازل أحمد، وإسحاق(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٤٧١٢)، ومسلم في صحيحه (١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٣٣٥٨)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٣٧١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) ينظر: القول في علم النجوم للخطيب (ص١٣٣)، وشرح العمدة (ص٥٥٣).

تعلم منازل القمر والنجوم للتسيير لا للتأثير كهذه التقاويم الموجودة كرهه قتادة وسفيان بن عيينة، بل حرموا ذلك، ولكن رخص فيه الإمام أحمد، وإسحاق بن راهويه، وغيرهما من أهل العلم، تعرف بها الزوال، وجهة القبلة، وما مضى من الليل، وما تبقى منه، كل هذا لا بأس به، والتقاويم مبنية على هذا.

كذلك -أيضًا- معرفة خسوف القمر وكسوف الشمس من حيث مدته، وهل هو خسوف كلي أو جزئي؟

هذا يدرك بالحساب، وتمكن معرفته بسهولة.

وعن أبي موسى قال: قال رسول الله ﷺ: «ثَلَاثَةٌ لَا يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ: مُدْمِنُ الْخَمْرِ، وَقَاطِعُ الرَّحِمِ، وَمُصَدِّقٌ بِالسِّحْرِ» رواه أحمد وابن حبان في «صحيحه»[(١)].

هذا من أحاديث الوعيد، وطريقة السلف فيها أن تجرى على ظاهرها؛ لأن ذلك أبلغ في الزجر فلا ينبغي تأويلها، وطريقة النووي وأمثاله تأويل هذه الأحاديث، وقد سبق بيان ذلك.

(مدمن الخمر)؛ أي: المستديم لشربه، والخمر هو: ما خامر العقل؛ أي: غطاه.

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ١٩٥٦٩)، وابن حبان في صحيحه (ح: ٥٣٤٦)، والحاكم في مستدركه (٧٢٣٤) من حديث الفضيل بن ميسرة، عن أبي حريز، عن أبي بردة، عن أبي موسى رضي الله عنه، به مرفوعا.

أبو حريز عبد الله بن الحسين، قاضي سجستان، قال فيه أحمد (العلل ١/ ٤٥٨): «منكر الحديث»، وضعفه ابن معين -في رواية-، وأبو داود، والنسائي، وقال ابن عدي: «وعامة ما يرويه لا يتابعه أحد عليه». **ينظر**: السنن الكبرى (٥/ ٣٥٤)، الكامل (٥/ ٢٦٠)، الميزان (٢/ ٤٠٦).

ومن المعلوم أن الخمر محرم بالكتاب والسنة والإجماع، وأن من اعتقد إباحة الخمر فهو مرتد كافر بالله العظيم؛ لأنه أنكر تحريم ما علم تحريمه بالضرورة، وقد روى مسلم في «صحيحه» من حديث طارق بن سويد أنه قال: سألت رسول الله ﷺ عن الخمر نجعلها في الدواء؟

فقال: «إِنَّهُ لَيْسَ بِدَوَاءٍ، وَلَكِنَّهُ دَاءٌ»[(١)].

وزعم قوم أنه دواء، وأنه يكثر الدم في الجسم، ويبعث فيه القوة، والطب الحديث اليم اكتشف أنه ضار، وهذا مقتضى ما صح عنه ﷺ.

وقال أطباء الإفرنج وغيرهم: إن شارب الخمر يضعف نسيج بدنه، فيكون نسيج بدن شارب الخمر وهو ابن أربعين سنة كنسيج بدن ابن ستين.

وقالوا: للخمر أثر على عقول نسل مدمنه؛ لأن مواد السكر تخالط الدم ومعلوم أن الولد من الدم، فتتأثر خلقته بهذه المواد.

ولأحد الفرنسيين كتاب سماه: «ثلاثون عاما في الإسلام»، عاش في الجزائر في عهد الملك عبد القادر، وأظهر الإسلام، وتعلم اللغة العربية، وخالط العلماء، وقرأ عليهم كتب المالكية، وحفظ القرآن، ثم تطورت به الأحوال وكان ذكيا حتى وصل إلى الملك عبد القادر، وصار رئيس ديوانه، ثم صار يكاتب الفرنسيين بأسرار الجزائر، ومن جملة ما ذكر أنه قال: «لو أن أهل الجزائر شربوا خمرنا لاستقبلونا وذلوا لنا»[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ١٩٨٤).

(٢) اسم الكتاب: (اثنان وثلاثون عاما في رحاب الإسلام)، ومؤلفه هو: ليون روش، طبعته دار جداول بالعربية مختصرا.

وقد ذكر القرطبي أن شاربا للخمر رؤي وهو يمسح بوله بوجهه ويقول: «اللهم اجعلني من التوابين واجعلني من المتطهرين!»[١].

وألحق بعضهم الدخان بالخمر، وأئمة الدعوة في فتاويهم جعلوا تعزير شارب الدخان كحد شارب الخمر، سواء بسواء[٢]؛ نظرا إلى ضرره الكبير، حتى أن مدمنه إذا لم يشربه يصيبه كسل وتعب كثير، وهو من الخبائث، وإن كان هناك من يقول بإباحته، لكن لا دليل على ذلك، وقد جزم بعض علماء المالكية بتحريم الدخان[٣].

ومما قرأنا في تاريخ الدولة التركية: أنها كانت تعاقب من يشرب الدخان -في أول ظهوره- بسلخ جلده وهو حي!

ولاشك أن هذا لا ينبغي، لكن بهذا تعرف كبير ضرره، حتى أنهم عاقبوا من يشربه بهذه العقوبة الشديدة.

(وقاطع الرحم): الأقارب لهم حق، قال سبحانه: ﴿ وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ ﴾ [الإسراء: ٢٦]، وفي الحديث: أن الله -تبارك وتعالى- قال للرحم: (أَلَا تَرْضَيْنَ أَنْ أَصِلَ مَنْ وَصَلَكِ، وَأَقْطَعَ مَنْ قَطَعَكِ)[٤]، فقاطع الرحم متعرض للوعيد العظيم الوارد في هذا الحديث، وهو أنه لا يدخل الجنة.

---

(١) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٣/ ٤٤١).
(٢) ينظر: الدرر السنية (١٥/ ٩٣).
(٣) ينظر: فتاوى عليش (١/ ١٢٢).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٤٨٣٠)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٥٥٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(ومصدق بالسحر): هذا هو شاهد الترجمة من الحديث، لكن لو قلت: الحديث: (ومصدق بالسحر)، والترجمة: (باب ما جاء في التنجيم) ما علاقة هذا بهذا؟!

نقول لك: السحر هو: ما خفي ولطف سببه، فيدخل فيه التنجيم، والطلاسم، وما أشبه ذلك.

وجاء في الحديث قوله ﷺ: «مَنِ اقْتَبَسَ عِلْمًا مِنَ النُّجُومِ، اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ، زَادَ مَا زَادَ»[1]؛ أي: كلما زاد تعلمه للنجوم زاد تعلمه للسحر.

والساحر حده القتل، وهل تقبل توبته في الدنيا؟

اختلف العلماء في ذلك، فذهب الشافعية إلى أنها لا تقبل؛ وذلك أن السحر علم ولا يمكن انتزاعه من القلب، وبقاؤه يؤدي إلى الكفر.

وقيل: بل تقبل توبته، وهذا هو الصواب؛ لأن الله سبحانه وتعالى قبل توبة سحرة فرعون: ﴿فَأُلْقِيَ ٱلسَّحَرَةُ سَٰجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ ﴿٤٨﴾ قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ فَلَسَوْفَ تَعْلَمُونَ لَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٤٩﴾ قَالُواْ لَا ضَيْرَ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّا نَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لَنَا رَبُّنَا خَطَٰيَٰنَآ أَن كُنَّآ أَوَّلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ٤٦ - ٥١]، وأما كون هذا العلم ما زال في قلبه، فنقول: معرفة الكفر مع اعتقاد الحق لا تضر، كما أنك تعرف علوم الزندقة، وكيفية عبادة الأصنام ومع ذلك تعتقد بطلانها.

---

(١) سبق تخريجه في: (باب بيان شيء من أنواع السحر).

(٢٩) باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

وقول الله -تعالى-: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر بالأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة».

وقال: «النائحة إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران، ودرع من جرب» رواه مسلم(١).

ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هل تدرون ماذا قال ربكم؟».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «قال: أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر، فأما من قال: «مطرنا بفضل الله ورحمته»، فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب، وأما من قال: «مطرنا بنوء كذا وكذا»، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب»(٢).

ولهما من حديث ابن عباس بمعناه، وفيه: قال بعضهم: «لقد صدق نوء

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٩٣٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٨٤٦)، ومسلم في صحيحه (ح: ٧١).

كذا وكذا»، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلَآ أُقْسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥- ٨٢][(١)].



(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٧٣).

شرح: باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

(الأنواء): جمع نوء، وهي: منازل القمر؛ وذلك أن أهل الجاهلية ينسبون سقوط الأمطار لهذه الأنواء، فكذبهم القرآن الكريم.

وقول الله -تعالى-: ﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٨٢].

أي: تجعلون شكركم وحظكم ونصيبكم من هذه الأمطار أنكم تكذبون، وذلك بإضافتها إلى غير الله، هذا هو معنى الآية.

وقيل: تجعلون حظكم من القرآن ونصيبكم أنكم تكذبون به، والآية تعم هذا وهذا.

وقد جاء في بعض الآثار أن الله عَزَّ وَجَلَّ يقول: «إني والجن والإنس في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيري إليهم نازل، وشرهم إلي صاعد»[(١)].

عن أبي مالك الأشعري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «أَرْبَعٌ فِي أُمَّتِي مِنْ أَمْرِ الْجَاهِلِيَّةِ لَا يَتْرُكُونَهُنَّ: الْفَخْرُ فِي الْأَحْسَابِ، وَالطَّعْنُ فِي الْأَنْسَابِ، وَالِاسْتِسْقَاءُ بِالنُّجُومِ، وَالنِّيَاحَةُ»، وقال: «النَّائِحَةُ إِذَا لَمْ تَتُبْ قَبْلَ مَوْتِهَا، تُقَامُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَعَلَيْهَا سِرْبَالٌ مِنْ قَطِرَانٍ وَدِرْعٌ مِنْ جَرَبٍ» رواه مسلم[(٢)].

---

(١) أخرجه الطبراني في مسند الشاميين (ح: ٩٧٤)، والبيهقي في الشعب (ح: ٤٢٤٣)، وعبد الغني في التوحيد (ص١٠٨) من حديث عبد الرحمن بن جبير وشريح بن عبيد، عن أبي الدرداء، عن النبي ﷺ، قال: قال الله عز وجل... فذكره.
وإسناده منقطع.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٩٣٤).

(أربع)؛ أي: أربع خصال.

(من أمر الجاهلية): إضافتها إلى الجاهلية إضافة ذم وعيب لها، وتقتضي ذم الجاهلية -أيضًا-، مثل قوله تعالى: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، فالتبرج مذموم بإضافته للجاهلية، إذ هي إضافة ذم وعيب.

والجاهلية: ما كان قبل الإسلام، هذه الجاهلية إذا أطلقت، وكل ما خالف الكتاب والسنة فإنه يسمى: (جاهلية)، كان قبل الإسلام، أو بعد الإسلام.

(لا يتركونهن): لا يدعونهن، وفيه: علم من أعلام النبوة؛ حيث أخبر ﷺ بأن هذه الخصال لا تزال باقية في هذه الأمة.

(الفخر بالأحساب): وهو أن الرجل يفتخر بآبائه وأجداده، «أنا ابن كذا وكذا، أنا ابن علية القوم»، هذا كله مذموم، ومن شؤون الجاهلية، والله -سبحانه وبحمده- يقول: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، والرسول ﷺ يقول: «وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»(١).

ويقول الشاعر العربي(٢):

لقد رفع الإسلام سلمان فارس ❁ كما وضع الشرك الشقي أبا لهب

فالإسلام رفع سلمان، وهو عبد فارسي، بل قال في حقه الرسول ﷺ: «سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ»(٣)، ففيه فخر وفضل لسلمان، وهذا عم الرسول ﷺ من

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) لم أقف عليه.

(٣) سبق تخريجه.

سادات قريش، ومن أشراف العرب، ومن صميمها، لم ينفعه نسبه، بل قال الله فيه قرآنا منزلا يتلى إلى يوم القيامة: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِى لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾ [المسد: ١-٣].

فلا فخر إلا بالتقوى، فمجرد أنه من أشراف الناس، أو مجرد أنه من الملوك، أو مجرد أنه من أشراف العرب كل هذا لا يجدي ولا يغني فتيلا، ما دام منحرفا عن الصراط المستقيم، وتأمل القرآن العزيز تجده واضحا ومبينا هذا المعنى، وذلك كقوله -تعالى-: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠]، ولم يقل: (إنما العرب إخوة)، وبهذا تعرف أن القومية العربية التي لها شنشنة وطنطنة في الإذاعات والصحف -مع الأسف-، بل وفي الكتابات الرسمية: «الدول العربية، الجامعة العربية»؛ أنها من أمور الجاهلية[(١)].

وقال الرسول ﷺ: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ»[(٢)] ولم يقل: (مثل العرب)، وقال ﷺ: «الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ»[(٣)]، وشبك بين أصابعه، ولم يقل: (العرب للعرب كالبنيان يشد بعضه بعضا)، فالرابطة الإيمانية، والأخوة الإسلامية هي: الجامعة بين الناس، لا فرق بين عربي وعجمي، ولا بين أسود وأبيض، ولا فخر لأحد على أحد إلا بالتقوى.

(١) مراد الشيخ رحمه الله: ذمها إذا أدت إلى عصبية أو كانت بديلا عن الإسلام أو منازعة له؛ فإن معرفة الإنسان من نسبه ما يحفظ أصله ويصل به رحمه ليس بمذموم - الشيخ صالح -.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٦٠١١)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٥٨٦) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٤٨١)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٥٨٥) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

ولكن متى نشأت القومية العربية؟! هذا الذي نسمعه: «العرب... العرب»!، نحن نفتخر بعروبتنا لا بأس، نحن عرب، لكن ليست العروبة كل شيء، بل الإيمان أقوى منها، ورابطة الإسلام أعلى منها، فالعربي إن لم يكن مستقيما ولا على الجادة فهو العدو اللدود، بخلاف ما إذا كان مؤمنا تقيا.

وقد نشأت القومية العربية منذ سبعين عاما تقريبا[١] في حرب الأتراك مع الدول الكبار، وذلك أنهم فكروا بأن يجعلوا عصبية للجنسية تحل محل الوجدان الديني، فبدل أن يقولوا: «الإسلام، المسلمين»، جعلوها قومية عربية من أجل تضييق النطاق على المسلمين، فبدل أن يقال «المسلمون» فيشمل ذلك: العربي، والتركي، والهندي، والجاوي، وغيرهم، أرادوا أن يضيقوا النطاق، فقالوا: «القومية العربية»، واهتمت بهذا جمعية في فرنسا، وجعلت تدعو إلى هذا، فانتشرت وذهبت وطارت في كل مذهب، والشريف حسين سموه ملك العرب -كما هو معروف-، وأعطوه ملك العرب[٢].

وأبو ذر رضي الله عنه قال لرجل: «يا ابن السوداء» - فقط - فغضب الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: «أَعَيَّرْتَهُ بِأُمِّهِ؟ إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ»[٣]؛ أي: فيك خصلة من خصال الجاهلية، حيث قلت له على وجه الذم والعيب له: «يا ابن السوداء».

وفي الحديث: «لَيَدَعَنَّ رِجَالٌ فَخْرَهُمْ بِأَقْوَامٍ - أي: ممن يفتخر بآبائه

---

(١) يلاحظ أن كلام الشيخ رحمه الله كان في آخر القرن الرابع عشر.

(٢) ينظر: نقد القومية العربية للشيخ عبد العزيز ابن باز رحمه الله.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٣٠)، ومسلم في صحيحه (ح: ١٦٦١).

وأجداده -، إِنَّمَا هُمْ فَحْمٌ مِنْ فَحْمِ جَهَنَّمَ، أَوْ لَيَكُونُنَّ أَهْوَنَ عَلَى اللهِ مِنَ الْجِعْلَانِ الَّتِي تَدْفَعُ بِأَنْفِهَا النَّتِنَ»[1].

(والطعن في الأنساب): لا يجوز لك أن تتكلم في أعراض الناس ولا في أنساب الناس، ولا أن تخرج آل فلان من آل فلان.

ومسألة الخضيري والقبيلي وما أشبه ذلك نقول: عند الله كلهم سواء، أما من ناحية الكفاءة في النكاح، فهذا فيه خلاف بين أهل العلم، وأمره يسير، فالحنابلة يرون أنه يصح أن يتزوج الخضيري بالقبيلية، والقبيلي بالخضيرية،

---

(١) أخرجه ابن وهب في جامعه (ح: ٣٠)، وأبو داود في سننه (ح: ٥١١٦) من طريق هشام بن سعد، عن سعيد المقبري، عن أبيه، عن أبي هريرة، به مرفوعا.
وأخرجه أحمد في مسنده (ح: ٨٧٣٦)، والبيهقي في السنن (١٠/ ٣٩٢) من طريق هشام، عن سعيد، عن أبي هريرة، به مرفوعا.
وسعيد يروي عن أبي هريرة، ويروي عن أبيه عن أبي هريرة.
قال ابن منده (التوحيد ص٢٦١): «هذا حديث مشهور متصل صحيح».
وأخرجه أحمد مسنده (ح: ٢٧٣٩) من طريق هشام الدستوائي، عن أيوب، عن عكرمة، عن ابن عباس، به مرفوعا.
إسناده حسن، إلا أن هذين الحديثين فيهما تقييد الوعيد بمن افتخر بآبائه الكفار، أما الوعيد لمن افتخر بآبائه مطلقا فقد رواه البزار (كشف الأستار ٤/ ٢٢٤) من حديث حذيفة، وهو حديث ساقط الإسناد، أشار البزار إلى إعلاله، فيه: الحسن بن الحسين، وهو العرني الكوفي، قال أبو حاتم (الجرح والتعديل ٣/ ٦): «لم يكن بصدوق عندهم».
وقال ابن عدي (الكامل ٣/ ١٨١): «روى أحاديث مناكير، ولا يشبه حديثه حديث الثقات».
وقال ابن حبان (المجروحين ١/ ٢٣٨): «يروي عن جرير بن عبد الحميد والكوفيين المقلوبات».

لكن أولياء المرأة يلحقهم شيء من العار، والقول المعتمد: أنه لا مانع؛ فإن النبي ﷺ زوج فاطمة زيد بن حارثة، وعبد الرحمن بن عوف من بني زهرة من سادات قريش، أخته تزوجها بلال وهو عبد حبشي.

جاء في هذا حديث لكنه ضعيف: «العرب بعضهم أكفاء بعض، والموالي بعضهم أكفاء بعض»[1]، إلا أن هذا الحديث استنكره أبو حاتم، والمسألة في الزواج، هذا الذي فيه خلاف، أما غيره فهم في سائر الأحكام سواء.

(والاستسقاء بالنجوم): الاستسقاء بالنجوم على وجهين:

من زعم أن الذي أوجد المطر هو النجم فهذا لا شك أنه كافر بالربوبية بإجماع الأمة، قال الله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّن نَّزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِن بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣].

---

(١) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى (١٣٧٧٠) -من طريق الحاكم ولم أقف عليه في المستدرك مع عزو جماعة إليه-، وهو من طريق عمران بن أبي الفضل، عن نافع، عن ابن عمر، به مرفوعا.
ورواه -أيضًا- (٧/ ١٣٤) من طريق ابن جريج، عن ابن أبي مليكة، عن ابن عمر، به مروعا.
قال أبو حاتم عن طريق ابن جريج (العلل ٤/ ٤١): «كذب لا أصل له»، وقال -أيضًا- (٤/ ٧٧): «باطل، أنا نهيت ابن أبي شريح أن يحدث به»، وقال عن طريق عمران (٤/ ٨٥): «هذا حديث منكر».
وقال ابن حبان (المجروحين ٢/ ١٢٤): «عمران ممن يروي الموضوعات عن الأثبات على قلة روايته، لا يحل كتابة حديثه إلى على سبيل التعجب».
وقال عبد الحق (الأحكام الوسطى ص١٢٦): «هو حديث منكر موضوع».
وله شاهد من حديث معاذ عند البزار (كشف الأستار ١٤٢٤) ولا يصح؛ للانقطاع بين خالد بن معدان وبين معاذ؛ ولأن في إسناده من لا يعرف.

أما إذا قال: الذي أوجد المطر هو الله، ولكنه أجرى العادة بإرسال الأمطار عند طلوع هذا النجم، أو عند هبوطه، أو عند فصل الربيع فهذا بعض العلماء يجيزه ما دام يعتقد أن موجد المطر هو الله، لكن قطع كثير منهم بالتحريم؛ لأنه جعله بمنزلة التعلق بوجود هذا المطر، وإن اعتقد أن الموجد هو الله، لكن هذا لا ينبغي حسما لمواد الشرك وذرائعه.

(والنياحة على الميت): هي -أيضًا- من أمور الجاهلية، فالميت إذا مات جعلت المرأة تندب وتقول: «واموتاه، واظهراه، وانقطاع ظهراه، واعضداه»، وما أشبه ذلك؛ يعني: أنه ظهرها وعضدها.

أو أن تحلق شعرها، أو ترفع صوتها عند المصيبة، كل هذه من أمور الجاهلية التي لا تجوز، وإنما إذا أصيب الإنسان بمصيبة فليقل: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، فالله هو المقدر لهذه الأشياء، ولا يجوز الاعتراض على الله، أو الصراخ عند المصيبة؛ لأنه يدل على الجزع وعدم الرضا.

ومن النياحة الممنوعة ما يفعله بعضهم -لاسيما في الحجاز - وذلك أنهم يقيمون مآتم في اليوم الذي مات فيه الميت، وبعده ثلاثة أيام، يقيمون حفلات أكل وذبائح، ثم -أيضًا- بعد مضي أسبوع من وفاته يقيمون حفلا، ثم بعد مضي أربعين يوما يقيمون حفلا، ثم بعد سنة من وفاته يقيمون حفلا وذبائح، كل هذا من الأمور الباطلة التي لا أصل لها في الشرع، بل بعضهم يذكرها في وصيته، فإني قد اطلعت على وصية الشريف غالب فذكر فيها أوقافه الكثيرة، ثم قال: «ويعمل اجتماع على رأس كل سنة من وفاتي!».

(النائحة إذا لم تتب): أما إذا تابت فالله يقبل توبة التائب، وجاء في الحديث: «إِنَّ اللهَ يَقْبَلُ تَوْبَةَ الْعَبْدِ مَا لَمْ يُغَرْغِرْ»(١)، فالتوبة تجب ما قبلها، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ تُوبُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا﴾ [التحريم: ٨]، لكن التوبة ليست من طرف اللسان، يقول: «أنا تائب»، لا، لابد من الندم على ما فعل مما يتنافى مع الشريعة من المعصية وغيرها، لابد أن يندم ويأسف على فعله، ويعزم عزما جازما على ألا يعود إليه وذلك بالإقلاع عن هذا الذنب، ومفارقته والابتعاد عنه.

(النائحة إذا لم تتب تقام وعليها يوم القيامة سربال) أي: ثياب وقمص، (من قطران)، هو: الزفت الذي تشتعل فيه النار بسرعة، يكون لاصقا بجسمها، فيكون أبلغ في الألم وأشد حرارة.

(ودرع من جرب): هذا جزاؤها إذا ماتت على تلك الحالة ولم تتب، مما

(١) أخرجه ابن الجعد في مسنده (ح: ٣٤٠٤)، وأحمد في مسنده (ح: ٦١٦٠)، وعبد بن حميد في مسنده (ح: ٨٤٧)، والترمذي في جامعه (ح: ٣٥٣٧)، وابن ماجه في سننه (ح: ٤٢٥٣)، وابن حبان في صحيحه (ح: ٦٢٨)، والطبراني في المعجم الكبير (ح: ١٤١٠٧)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٢٨٦) (ح: ٧٦٥٩)، والبيهقي في الشعب (ح: ٦٦٦١) من حديث عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان، عن أبيه، عن مكحول، عن جبير بن نفير، عن ابن عمر، به مرفوعا.
وفيه ضعف، عبد الرحمن قال فيه الإمام أحمد: «أحاديثه مناكير»، وقال -أيضًا-: «لم يكن بالقوي في الحديث». ينظر: الجرح والتعديل (٥/ ٢١٩)، الضعفاء للعقيلي (٢/ ٣٢٦).
كذلك ضعفه ابن معين -في رواية-، والنسائي. ينظر: الميزان (٢/ ٥٥١).
وله شاهد عند البزار (كشف الأستار ٤/ ٧٩) من مسند أبي هريرة، وإسناده مظلم. ينظر: علل الدارقطني (١٣/ ١٥٠)، الرد على ابن القطان (ص٥٨)، إلا أن العلماء مجمعون على معنى الحديث. ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم (٢/ ٤٥).

يدل على تحريم النياحة، وتعداد فضائل الميت، وضرب الخد والصدر، وشق الجيب، وحلق الشعر، وما أشبه ذلك مما كانت تفعله الجاهلية.

أما ما هو موجود الآن وهو أن بعض الناس يأمرون أهل الميت بعمل ولائم فهذا من البدع، بل السنة أن غير أهل الميت هم من يصنع طعاما ويبعثه لأهل الميت؛ ففي قصة جعفر: «اصْنَعُوا لِآلِ جَعْفَرٍ طَعَامًا؛ فَقَدْ أَتَاهُمْ مَا يَشْغَلُهُمْ»[(١)].

ولهما عن زيد بن خالد رضي الله عنه قال: صلى لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصبح بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل، فلما انصرف أقبل على الناس فقال: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟».

قالا: الله ورسوله أعلم.

«قَالَ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»[(٢)].

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (ح: ٦٦٦٥)، والحميدي في مسنده (ح: ٥٤٧)، وإسحاق بن راهويه في مسنده (ح: ٢١٤٤)، والإمام أحمد في مسنده (ح: ١٧٥١)، وأبو داود في سننه (ح: ٣١٣٢)، والترمذي في جامعه (ح: ٩٩٨)، وابن ماجه في سننه (ح: ١٦١٠)، والبزار في مسنده (ح: ٢٢٤٥)، والدارقطني في سننه (ح: ١٨٥٠)، والطبراني في الكبير (ح: ١٤٧٢)، والحاكم في مستدركه (١/ ٥٢٧)، والبيهقي في السنن (٤/ ١٠٠) من طريق جعفر بن خالد المخزومي، عن أبيه، عن عبد الله بن جعفر، به مرفوعا.
وإسناده حسن، وله شاهد ضعيف عند عبد الرزاق (ح: ٦٦٦٦) من مسند أسماء بنت عميس زوجة جعفر رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٨٤٦)، ومسلم في صحيحه (ح: ٧١).

(ولهما)؛ أي: للبخاري ومسلم.

(صلى لنا)؛ أي: صلى بنا، اللام تأتي بمعنى الباء في اللغة العربية، وإلا فالصلاة لا تكون إلا لله.

(بالحديبية على إثر سماء كانت من الليل)؛ يعني: على إثر مطر كان من الليل.

(وأما من قال: مطرنا بنوء كذا وكذا): بنوء الزهرة - مثلا- أو بنوء سعد السعود.

وفي هذا الحديث فوائد:

أولا: فيه طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم، يطرح الإنسان مسألة وإن كان يعرف الجواب ليختبر ما عند أصحابه، «ماذا تقول في هذه المسألة الفقهية، أو المسألة النحوية، أو المسألة العقدية في الأسماء والصفات؟»، فهل يجوز للإنسان أن يسأل وعنده علم عما سأل؟ ألم يكن الأجدر أن يفيد غيره بما عنده دون أن يسأل؟!

نقول: لا مانع من ذلك، يجوز له أن يسأل وعنده علم عما سأل، بدليل هذا الحديث، والبخاري ترجم في «صحيحه» على هذا المعنى فقال: «باب طرح الإمام المسألة على أصحابه ليختبر ما عندهم»[1]، وساق في الترجمة حديث ابن عمر في أن الرسول ﷺ سألهم عن الشجرة التي مثل المسلم فقال ابن عمر: «وقع في نفسي أنها النخلة، ووقع الناس في شجر البوادي»، فهذا يدل على أن الإنسان

---

(١) بوبه البخاري في صحيحه (١/ ٢٢).

وإن كان عنده علم عن المسألة التي يسأل عنها، لا باس أن يسأل إخوانه؛ ليختبر ما عندهم ولينبههم إليها وإلى أمثالها، كما فعل الرسول ﷺ في هذا الحديث.

ثانيا: فيه إخراج السؤال بصيغة الاستفهام: أتدرون ماذا قال ربكم؟.

ثالثا: فيه الأدب لمن سئل عما لا يعلم بألا يتكلف الجواب، إن كان عنده علم فليجب، وإن لم يكن عنده علم فلا يتكلف، وليكل العلم إلى عالمه، وليقل: «الله أعلم»، وفي حياة الرسول ﷺ يقال: «الله ورسوله أعلم»، أما بعد وفاته فيقال: «الله أعلم»؛ لأن الرسول ﷺ توفي.

ثم لو أردت أن تجيب عما سئلت عنه فلا بأس أن تجيب وإن لم يكن عندك علم إلا أنك تجيب بصيغة: (لعل)؛ فتقول: «لعله يجوز»، كما تقدم في حديث ابن عباس حينما قال النبي ﷺ: «يَدْخُلُ الْجَنَّةَ مِنْ أُمَّتِي سَبْعُونَ أَلْفًا بِغَيْرِ حِسَابٍ..»[1]، فخاض الناس في أولئك، فقال بعضهم: «لعلهم الذين ولدوا في الإسلام، وقال بعضهم: لعلهم الذين صحبوا رسول الله، وقال بعضهم: لعلهم الذين لم يشركوا بالله شيئا»، فجعلوا يتباحثون في أعمال هؤلاء السبعين ألفا بصيغة: (لعل)، لا بصيغة الجزم، هذا إذا لم يكن عند الإنسان علم.

رابعا: فيه دليل على أن الإمام إذا سلم من صلاته يستقبل المأمومين، وذلك بعدما يسلم ويستغفر ثلاثا، ويقول: «اللهم أنت السلام، ومنك السلام، تباركت يا ذا الجلال والإكرام»، يقول هذا وهو مستقبل القبلة، ثم ينصرف إلى جهة المأمومين، كما فعل النبي ﷺ.

---

(١) سبق تخريجه.

(فأما من قال: «مطرنا بفضل الله ورحمته» فذلك مؤمن بي كافر بالكوكب): فالذي أضاف النعم إلى الله معترفا بأن الله هو الذي أوجدها، وهو الذي تفضل بها هو المؤمن؛ لأن هذا من باب الشكر لله.

والشكر تعريفه: صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه لما خلق لأجله[1].

والشكر له ثلاثة أركان:

الركن الأول: الاعتراف بالنعم الظاهرة باللسان.

الركن الثاني: الاعتراف بها باطنا، في قرارة القلب: أن هذه النعم من الله.

الركن الثالث: صرفها في مرضاة مسديها ومُوليها، هذه هي أركان الشكر.

فالذي يقول: «مطرنا بفضل الله ورحمته»، تحدث بلسانه، فإذا اعتقد قلبه ذلك، ثم صرف تلك النعم في مرضاة الله فقد أدى ما عليه من الشكر.

(ومن قال: مطرنا بنوء كذا وكذا، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب): لا يجوز لك أن تضيف النعم إلى غير الله بل النعم كلها لله، فمن زعم أن الكوكب هو الذي أنزل المطر، فهذا لا شك أنه كافر بالربوبية باتفاق المسلمين.

أما الاعتقاد أن الله هو الذي أنزل المطر وأوجده، ولكن جعل الكوكب سببا، فهذا يجيزه بعضهم ويكرهه آخرون، والصواب: التحريم؛ لأنه من وسائل الشرك، وأما إضافة الأمطار إلى الأوقات فهذا أجازه الشافعي، كما تقول: «المطر الوسمي» يعني: الذي يكون في الوسم، فتضيفه من باب الظرفية فهذا الشافعية يجيزونه[2].

---

(١) ينظر: لوامع الأنوار البهية (١/ ٣٧).

(٢) ينظر: تحفة المحتاج (٣/ ٨٢).

(فذلك كافر بي): الكفر كفران: كفر أكبر مخرج من الملة، وكفر لا يخرج من الملة، والكفر شعب، ويقابله الإيمان وهو شعب -أيضًا-، فأعلاها: شهادة (لا إله إلا الله)، وأدناها: إماطة الأذى عن الطريق.

ولهما من حديث ابن عباس بمعناه وفيه: قال بعضهم: «لقد صدق نوء كذا وكذا»، فأنزل الله هذه الآيات: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ﴾ إلى قوله: ﴿وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾ [الواقعة: ٧٥- ٨٢][(١)].

(ولهما من حديث ابن عباس): هذا سبق قلم من المصنف رحمه الله؛ فإن البخاري لم يخرج هذا الحديث، وإنما انفرد به مسلم.

(قال بعضهم: لقد صدق نوء كذا وكذا)، فأنزل الله هذه الآية: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِمَوَٰقِعِ ٱلنُّجُومِ ﴿٧٥﴾ وَإِنَّهُۥ لَقَسَمٞ لَّوۡ تَعۡلَمُونَ عَظِيمٌ ﴿٧٦﴾ إِنَّهُۥ لَقُرۡءَانٞ كَرِيمٞ ﴿٧٧﴾ فِي كِتَٰبٖ مَّكۡنُونٖ ﴿٧٨﴾ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلۡمُطَهَّرُونَ ﴿٧٩﴾ تَنزِيلٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ أَفَبِهَٰذَا ٱلۡحَدِيثِ أَنتُم مُّدۡهِنُونَ ﴿٨١﴾ وَتَجۡعَلُونَ رِزۡقَكُمۡ أَنَّكُمۡ تُكَذِّبُونَ﴾[الواقعة: ٧٥- ٨٢].

وذلك أنهم أضافوا النعم إلى غير الله، فأنكر الله عليهم؛ لأن الله هو الموجد للنعم، ذلك بأن النوء لا قدرة له ولا سبب له في إيجاد مطر أو منعه، بل الأمور كلها بيد الله.

أما معنى قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ﴾ اللام هنا ليست للنفي إنما للإثبات، فهي صلة، وهي تثبت القسم، والمعنى: أن الله أقسم بمواقع النجوم وهي

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٧٣).

طلوعها، وهي آية من آيات الله، حيث يطلع هذا النجم من جهة ويغيب رقيبه من جهة أخرى، فإذا طلع من جهة المشرق غاب رقيبه من جهة المغرب، والعكس بالعكس، وهي آية من آيات الله كما في قوله تعالىٰ: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ -أي: سريعا- ﴿وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ وَٱلنُّجُومَ مُسَخَّرَٰتٍۭ بِأَمْرِهِۦٓ ۗ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ۗ﴾ [الأعراف: ٥٤]، فالرب هو الذي أوجد النجوم، وجعلها آية ودلالة على كمال قدرته، وعلى وحدانيته وربوبيته كغيرها من سائر المخلوقات.

والله له القدرة الكاملة، وهو يقسم بما شاء من خلقه، أما أنت فلا، فلا يجوز لك أن تقسم بأي مخلوق، إنما تقسم بالله، أما الرب فلا حجر عليه: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرْوًا﴾ [الذاريات: ١]، ﴿وَٱلْمُرْسَلَٰتِ عُرْفًا﴾ [المرسلات: ١]، ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١]، ﴿وَٱلضُّحَىٰ﴾ [الضحى: ١]، ﴿وَٱلتِّينِ﴾ [التين: ١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١]، ﴿وَٱلْفَجْرِ﴾ [الفجر: ١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلْبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، فالله يقسم بما شاء من خلقه.

لكن قد تسأل وتقول: ما وجه العلاقة بين النجوم وبين القرآن؟ فالله أقسم -جل وعلا- بمواقع النجوم على أنه قرآن كريم، هل هناك علاقة بين المقسم به والمقسم عليه أم لا؟

نقول: نعم، هناك علاقة قوية بين النجوم وبين القرآن، فالنجوم خلقها الله وجعلها دلالة وهداية للمسافرين في البر والبحر يعرفون بها جهة سيرهم وقصدهم، والقرآن جعله الله هداية للقلوب من الجهل والغي، فهذه هداية

حسية وهي النجوم، والقرآن هدايته معنوية باطنية، فالله جعله هداية للقلوب، فهو يخرج من الجهل والغي إلى نور العلم وإلى الرشد؛ كما في قوله تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَـٰمِ﴾ [المائدة: ١٦]؛ أي: طرق السلام.

والنجوم جعلها الله رجوما للشياطين، والقرآن جعله الله رجوما للكفرة والحائرين الجهلة، فالله -سبحانه وبحمده- يقول: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥]، فلا يأتي صاحب باطل بباطل إلا وفي القرآن ما يبطل حجته ويبين فسادها، فالرسل جعل الله لهم أعداء ولكن القرآن يؤيد الرسل: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِىٍّ عَدُوًّا شَيَـٰطِينَ ٱلْإِنسِ وَٱلْجِنِّ يُوحِى بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ زُخْرُفَ ٱلْقَوْلِ غُرُورًا ۚ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ ۖ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ ﴿١١٢﴾ وَلِتَصْغَىٰٓ إِلَيْهِ أَفْـِٔدَةُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ وَلِيَرْضَوْهُ وَلِيَقْتَرِفُوا۟ مَا هُم مُّقْتَرِفُونَ ﴿١١٣﴾ أَفَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْتَغِى حَكَمًا وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ إِلَيْكُمُ ٱلْكِتَـٰبَ مُفَصَّلًا ۚ﴾ [الأنعام: ١١٢- ١١٤].

فلاحظ أن هؤلاء هم شياطين الإنس والجن أعداء الأنبياء، والله أنزل القرآن رجما لهم وردا لشبههم.

كذلك النجوم جعلها الله زينة للسماء، والقرآن زينة للقلوب وبهاء.

وفصحاء العرب الذين يقولون: إنه سحر وكهانة، هم في قرارة أنفسهم بما أعطوا من الفصاحة والبلاغة يعرفون أنه ليس بسحر، ولا كهانة، ولا شعر، وأنهم

لا يستطيعون أن يأتوا ولا بآية من مثله: ﴿قُل لَّئِنِ ٱجْتَمَعَتِ ٱلْإِنسُ وَٱلْجِنُّ عَلَىٰٓ أَن يَأْتُوا۟ بِمِثْلِ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِۦ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨]، بل تحداهم الله -سبحانه- بقوله: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٣] فما استطاعوا أن يأتوا ولا بآية[(١)].

وفي قصة مسيلمة حين زعم أنه أنزل عليه قرآن لما علم أن الرسول ﷺ أنزلت عليه سورة: ﴿وَٱلْعَصْرِ﴾ قال: أنا أنزل علي مثلها، فقرأ من خزعبلاته، ثم قال: كيف ترى يا عمرو -يعني: عمرو بن العاص-؟

قال: «والله إنك تعلم أني أعلم أنك تكذب»[(٢)].

فالقرآن هداية القلوب، ولهذا تجد من قرأ القرآن يؤثر ذلك في سلوكه، ويؤثر في أخلاقه في الغالب، ويؤثر في اتجاهه إلى الله واستقامته، وفرق بينه وبين من لا يقرأ القرآن، وجاء في الحديث: «مَثَلُ الْمُؤْمِنِ الَّذِي يَقْرَأُ الْقُرْآنَ مَثَلُ الْأُتْرُجَّةِ، طَعْمُهَا طَيِّبٌ وَرِيحُهَا طَيِّبٌ»[(٣)]، ولهذا حث السلف على أن نعلم أطفالنا القرآن ليعتادوا الخير وينشأوا نشأة طيبة؛ لأنه يؤثر في سلوكهم ويؤثر في أخلاقهم.

والقرآن منذ أنزل إلى يومنا هذا على كثرة خصومه وكثرة أعدائه وكثرة المناوئين له لم يستطيعوا أن يغيروا منه ولا حرفا واحدا، مع شدة عداوتهم

---

(١) جاء التحدي بأن يأتوا بسورة فعجزوا عن أن يأتوا بآية واحدة.

(٢) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٨/ ٤٧٩).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٥٠٢٠)، ومسلم في صحيحه (ح: ٧٩٧) من حديث أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

وخصومتهم للقرآن، بخلاف الكتب الأخرى، فلو جئنا بهذا الكتاب الذي نقرأه[1] وجئنا بنسخة خطية أو نسختين، رأينا بينها اختلافا، هذا يزيد وهذا ينقص، وهذا يغير وهذا يبدل، أما القرآن لو وجد فيه غلط أو شيء فلابد أن يهيئ الله من يبين ذلك ويحفظ القرآن، ولا يمكن أن يروج الخطأ: ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴾ [الحجر: ٩].

﴿إِنَّهُۥ لَقُرْءَانٌ كَرِيمٌ ﴾؛ يعني: بالغ النهاية في الحسن والكمال؛ فإن الله سبحانه وتعالى سمى نفسه كريما، وعرشه -أيضًا- سماه كريما، وكذلك النبات إذا زان وازدهر قال: ﴿مِن كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴾ [لقمان: ١٠].

﴿ فِي كِتَٰبٍ مَّكْنُونٍ ﴾: اختلف الناس فيه، فقيل: هو اللوح المحفوظ، وقيل: هو القرآن حينما كان في أيدي الملائكة؛ لقوله: ﴿فِي صُحُفٍ مُّكَرَّمَةٍ ﴿١٣﴾ مَّرْفُوعَةٍ مُّطَهَّرَةٍ ﴿١٤﴾ بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ﴿١٥﴾ كِرَامٍ بَرَرَةٍ﴾ [عبس: ١٣- ١٦].

﴿ لَّا يَمَسُّهُۥٓ إِلَّا ٱلْمُطَهَّرُونَ ﴾: قيل: هم الملائكة؛ لأن القرآن يمسه المسلم وغير المسلم[2].

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾: فيه دليل على أن القرآن منزل غير مخلوق، وأن الله تكلم به حقيقة، وأن القرآن الموجود في مصاحفنا والمتلو بألسنتنا والمحفوظ في صدورنا هو كلام الله، حروفه ومعانيه، لليس كلام الله الحروف دون المعاني، ولا المعاني دون الحروف.

---

(١) أي: كتاب التوحيد.

(٢) المراد: وقوع اللمس لا الجواز.

ولو قلت: ما الدليل على أن هذا الذي طرق أذني هو كلام الله؟

قلنا لك: الدليل: قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، ﴿وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ٧٥]؛ دل على أن المسموع بآذاننا هو كلام الله.

ثم لو انتقلت إلى سؤال آخر فقلت: ما الدليل على أن هذا المتلو هو كلام الله؟

قلنا: الدليل: قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَتْلُونَ كِتَٰبَ ٱللَّهِ﴾ [فاطر: ٢٩]، فسمى المتلو (كتاب الله).

فإن قلت: ما الدليل على أن المحفوظ في صدورنا هو كلام الله؟

قلنا: الدليل قوله تعالى: ﴿بَلْ هُوَ﴾؛ أي: القرآن ﴿ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ فِى صُدُورِ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]..

دل هذا على أن الذي في الصدر والمتلو باللسان والمسموع بالأذن هو كلام الله، وهذا مذهب السلف، وعقيدة أهل السنة والجماعة.

﴿تَنزِيلٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ۝٨٠ أَفَبِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ أَنتُم مُّدْهِنُونَ﴾: يعني: تخادعون وتظهرون خلاف ما تبطنون، مثل قوله: ﴿وَدُّوا۟ لَوْ تُدْهِنُ فَيُدْهِنُونَ﴾ [القلم: ٩].

﴿وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ﴾؛ أي: شكركم وحظكم ونصيبكم من هذا القرآن أنكم تكذبون به؛ بأن تقولوا: هو كهانة، أو سحر، أو شعر.

وقيل: تجعلون حظكم وشكركم ونصيبكم مما أنزل من الأمطار ألا تضيفوها لله، وهذا هو ظاهر كلام المصنف في تصديره الآية في أول هذا الباب، لكن الآية تعم هذا وهذا، فكل من أضاف نعمة إلى غير الله يكون مكذبا بها؛ لأنه أضافها إلى غير المنعم المتفضل.

(٣٠) باب قول الله تعالى:

﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ﴾ [البقرة: ١٦٥]

وقوله: ﴿ قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾ الآية [التوبة: ٢٤].

عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من ولده ووالده والناس أجمعين» أخرجاه[١].

ولهما عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاث من كن فيه وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما وجد بهن حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار»[٢].

وفي رواية: «لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى...» إلى آخره[٣].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئا» رواه ابن جرير[٤].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ١٥)، ومسلم في صحيحه (ح: ٤٤).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ١٦)، ومسلم في صحيحه (ح: ٤٣).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٦٠٤١).
(٤) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص١٢٠)، وأبو نعيم في الحلية (١/ ٣١٢).

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] قال: «المودة»[١].



(١) أخرجه ابن جرير (٣/ ٢٧)، وابن أبي حاتم (ح: ١٤٩٢)، والحاكم (٢/ ٢٩٩).

شرح: باب قول الله تعالى:

﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ﴾ [البقرة: ١٦٥]

أراد المصنف بذكر هذه الترجمة عقب التراجم التي قبلها أن يبين أن من يتعلق بالتطير ومن يتعلق بالنجوم ومن يتعلق بالسحر والكهانة ومن يتعلق بغير الله فقد أخطأ وليس محبا لله، فمثلا من يقول: «مطرنا بنوء كذا وكذا» هل هذا محب لله؟! أضاف النعم إلى غير الله، وهذا ينافي المحبة.

وقوله: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ الآية [التوبة: ٢٤].

عن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ وَلَدِهِ وَوَالِدِهِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» أخرجاه(١).

ولهما عنه قال: قال رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا، وَأَنْ يُحِبَّ الْمَرْءَ لَا يُحِبُّهُ إِلَّا لِلهِ، وَأَنْ يَكْرَهَ أَنْ يَعُودَ فِي الْكُفْرِ كَمَا يَكْرَهُ أَنْ يُقْذَفَ فِي النَّارِ»(٢).

وفي رواية: «لَا يَجِدُ أَحَدٌ حَلَاوَةَ الْإِيمَانِ حَتَّى...» إلى آخره(٣).

(أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما): الرسول صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أنكر على الخطيب الذي قال: «من يطع الله ورسوله فقد رشد، ومن يعصهما فقد غوى»،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ١٥)، ومسلم في صحيحه (ح: ٤٤).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ١٦)، ومسلم في صحيحه (ح: ٤٣).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٦٠٤١).

وقال: «بِئْسَ الْخَطِيبُ أَنْتَ، قُلْ: وَمَنْ يَعْصِ اللهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ غَوَى»[(١)]، فلا يجمع بين لفظ الجلالة واسم الرسول ﷺ في ضمير واحد، وفي هذا الحديث: (أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما)، ولم يقل: (أحب إليه مما سوى الله ورسوله)، بل جاء بضمير التثنية نظير ما قاله الخطيب، فما الجواب؟

قيل: أنه في هذا الحديث جمع بين محبة الله ومحبة رسوله؛ فصارت كالشيء الواحد، إذ إن الرسول ﷺ لا يحب إلا ما أحبه الله، والله لا يحب إلا ما أحبه الرسول ﷺ، فصارت محبة الله ومحبة رسوله ﷺ كالشيء الواحد، فجاء الحديث بذكر ضمير التثنية، هذا الذي استحسنه الشارح، وقال: «فيه بلاغة»[(٢)].

ولكن المعروف والذي عليه كثير من أهل العلم أن قول الخطيب: «ومن يعص الله ورسوله» هو كلام عن غيره، فالخطيب ناقل، والرسول ﷺ يتكلم عن نفسه، ويجوز للرسول ﷺ ما لا يجوز لغيره.

وقيل: هذا من باب التأدب، ويدل هذا على الجواز، وذاك على الكراهة، وقيل غير هذا[(٣)].

(وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله): هذا فرع عن الأول؛ أي: ما دام أنك تحب الله ورسوله ﷺ فأنت تحب من أحبه الله ورسوله ﷺ، فهذا المرء أحببته لله، لم تحبه لنفع دنيوي، ولا لشيء من المعروف، ولا لطبع، ولا لقرابة، بل لما

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٨٧٠) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) ينظر: تيسير العزيز الحميد (٢/ ٩٥٩).

(٣) ينظر: فتح الباري (١/ ٦١).

اتصف به من الخير، ولقيامه بأوامر الله، وابتعاده عن نواهيه، فكما أنك أحببت الله أحببت من يحبه الله لاتصافه بالخير، فتحب من يحب محبوبك.

ومحبتك له تجد بها حلاوة الإيمان في قلبك؛ لأن الرابطة بينك وبينه هي المحبة لله، لم تشبها شائبة دنيوية، أو قرابة أو غير ذلك، بل لما اتصف به من الخير، فلو تركت ما هو عليه من الخير لأبغضته.

(وأن يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار): فكما أن الإنسان يكره أن يقذف في النار ولا يريدها، فكذلك يكره أن يعود إلى الكفر، ومثله شعب الكفر والمعاصي في حق من تاب، فالكافر إذا أسلم وعرف الإسلام وذاق حلاوة الإيمان ارتاح قلبه، واطمأن ضميره، فإلقاؤه في النار أهون وأيسر عليه من عودته إلى دينه الأول الباطل؛ لأن بشاشة الإيمان خالطت قلبه.

وأخذ من هذا بعض العلماء: أن من ولد في الإسلام أفضل ممن أسلم بعد كفره؛ لأنه قال: (يكره أن يعود في الكفر بعد إذ أنقذه الله منه)، وهذا ليس فيه دلالة -في الحقيقة- على ذلك، فبعض الناس إذا أسلم يكون خيرا من كثير ممن ولد في الإسلام؛ لما امتلأ به قلبه من الإيمان، كما أن العاصي قد يعصي ربه، ويرتكب الذنب، ثم يتوب ويكون بعد توبته أفضل وأحسن منه قبل المعصية؛ لأن المعصية كسرت قلبه، وأورثته ذلا وخضوعا لله، فكانت حالته بعد المعصية أفضل منه قبل المعصية، لما أدت تلك المعصية من الانكسار، والذل، والخضوع، والانطراح بين يدي الله، واعترافه بجريمته، وكذلك الكافر إذا أسلم وذاق حلاوة الإيمان تكون حالته أحسن منه قبل أن يسلم كما كان عليه

المهاجرون والأنصار، فهم كفار قبل إسلامهم، وبعد الإسلام تغيرت حالهم، وصاروا يصبرون على القتل في سبيل نصرة دينهم.

فمن يحب أن يلقى في النار؟! كل يكره ذلك كراهية شديدة، بل يبذل الغالي والنفيس في سبيل إنقاذه من النار، ومع هذا فإلقاؤه في النار خير من عودته للكفر.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال: «من أحب في الله، وأبغض في الله، ووالى في الله، وعادى في الله، فإنما تنال ولاية الله بذلك، ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصومه حتى يكون كذلك، وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا، وذلك لا يجدي على أهله شيئا» رواه ابن جرير[1].

وقال ابن عباس في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ ٱلْأَسْبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦] قال: «المودة»[2].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ص١٢٠)، وابن أبي شيبة (ح: ٣٥٩١٥)، واللالكائي (٥/ ١٠٠٦) من حديث ليث -وهو ابن أبي سليم-، عن مجاهد، عن ابن عباس، به موقوفا.
وليث من مشاهير الضعفاء، وقد اضطرب فيه؛ فرواه الطبراني (ح: ١٣٥٣٧) من طريق سفيان، عن ليث، عن مجاهد، عن ابن عمر موقوفا عليه.
ورواه أبو نعيم في الحلية (١/ ٣١٢) من طريق ليث، عن مجاهد، عن ابن عمر مرفوعا.
ولا يصح، ولم أقف عليه عند ابن جرير في (التفسير)، ولعل المصنف تبع في عزوه لابن جرير ابن رجب في (جامع العلوم والحكم ص١٢٥)، وأظنه سقط من النسخة المطبوعة من تفسير ابن جرير؛ لأن الشيخ سليمان (التيسير ٢/ ٩٦١) أثبت أن ابن جرير رواه تاما، فالله أعلم.

(٢) أخرجه ابن جرير (٣/ ٢٧)، وابن أبي حاتم (ح: ١٤٩٢)، والحاكم (٢/ ٢٩٩) من طريق قيس بن سعد، عن عطاء، عن ابن عباس، وإسناده جيد.

الحب في الله، والبغض في الله، والموالاة في الله، والمعاداة في الله، بها يجد العبد طعم الإيمان؛ أي: حلاوته، ومخالطة بشاشة الإيمان لقلبه.

(الحب في الله): تقدم بيانه، وهو أنك تحب المرء لأجل الله، لا لغرض من الأغراض الدنيوية، ولا سبب من أسبابها كقرابة، بل تحب الشخص لما اتصف به من الخير، ولما هو عليه من الاستقامة، هذا هو الحب في الله.

وعليك موالاة هذا الذي تحبه في الله، لا يكفي أنك تحب بقلبك فقط، وتخبره بذلك، بل لابد من موالاته؛ لأن الموالاة هي من لازم المحبة، والموالاة في الله: هي إكرامه ومناصرته إذا احتاج إليك، ومساعدته وإعانته على شؤونه؛ لأنك أحببته في الله.

(البغض في الله): تبغض هذا الشخص لا لأمر دنيوي، بل لانحرافه وتركه أوامر الله، لأجل هذا الغرض أبغضته، لكن من لازم بغضك له معاداته على قدر جرائمه، والمعاداة: عدم المناصرة، وإظهار البغض له؛ كما في ملة إبراهيم عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةُ وَٱلْبَغْضَآءُ أَبَدًا حَتَّىٰ تُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥٓ﴾ [الممتحنة: ٤]، وليس المراد أنك تبغضه بقلبك ثم تحترمه، وتكرمه، وتقدمه في صدر المجلس، وتزوره! لا، بهذا أصبحت لا تبغضه في الله، بل من لازم بغضك في الله: أن تظهر آثار ذلك بمعاداته، وتشعره بأنك تبغضه وتعاديه، وتبتعد عنه، ولا تناصره، بل تخذله لما هو عليه من الشر والانحراف.

فالموالاة في الله هي من لازم المحبة في الله، والمعاداة فيه من لوازم ونتائج البغض، ولهذا جاء في الحديث: «مَنْ تَشَبَّهَ بِقَوْمٍ فَهُوَ مِنْهُمْ»[1]، يقول ابن تيمية:

---

(١) سبق تخريجه.

«أقل ما يفيده هذا الحديث: التحريم، وإلا فظاهره الكفر»[1]؛ لأن التشبه في الظاهر بهؤلاء الكفرة مؤذن بالتشبه بالباطن.

فمن أمثلته على ما قرره ابن تيمية: لو تعلمت اللغة الإنجليزية وأجدتها لابد أن قلبك يميل إليهم، فعندما ترى الإنجليزي؛ تحب أن تكلمه، وتحب أن توادعه؛ لأنك تفهم لغته، وهو يفهم لغتك، فجمعت بينكما اللغة، فقد تشبهت بهم ظاهرا، وهو مؤذن بالتشبه بهم باطنا، ومن المعلوم أن الإنسان يميل بقلبه إلى من شاركه في أمر من الأمور، كلغة ولباس ونحوه.

ومن أمثلته: لو كنت في بلاد نائية -مثلا-، وعليك ملابسك العربية التي تستعملها أنت الآن، والمجتمع كله يلبس ملابس إفرنجية، ثم وقع بصرك على شخص ملابسه من جنس ملابسك فإن قلبك سيميل إليه، وتتجه نحوه، فهو شابهك في الملابس، فصار عندك شيء من الشوق بأن تجتمع به، وتتعرف عليه سواء، كان مسلما أو كافرا، بجامع أن الذي جمع بينك وبينه هذه الملابس، أو هذا المركب، أو ما أشبه ذلك، هذا معنى حديث: «من تشبه بقوم فهو منهم»، فأنت حينئذ لم تكن محبا في الله، بل أحببت من يبغضه الله!، ومن هو على كفر أو على كثير من المعاصي؛ بجامع ميولك إليه مشابهته لك في الملابس أو غيرها، هذا معنى ما قاله ابن تيمية.

(ولن يجد عبد طعم الإيمان ولو كثرت صلاته وصيامه حتى يكون كذلك): لن يجد حلاوة الإيمان ولو كثرت صلاته وصومه حتى يحب في الله

(١) ينظر: الاقتضاء (١/ ٤٦- ٩٣).

ويبغض في الله، ويوالي في الله ويعادي في الله، فمجرد كثرة الصلاة وكثرة الصوم والزهد في الدنيا لا يؤثر إذا كان الإنسان لا يفرق بين أعداء الله وأولياء الله، كلهم عنده سواء، فإذا قابل الكافر رحب به، وأكرمه كما يصنع مع أولياء الله ولا فرق!، هذا صلاته وصومه لن يجد بهما طعم الإيمان وهو على ذلك.

وقد قال ابن عقيل الحنبلي يقول: «إذا أردت أن تعرف الإسلام من أبناء الزمان فلا تنظر إلى ازدحامهم عند أبواب الجوامع، ولا ضجيجهم بقول (لبيك لبيك)، ولكن انظر إليهم عند مواطأة أعداء الشريعة»[١].

هذا معنى قول ابن عباس: (ولن يجد عبد طعم الإيمان وإن كثرت صلاته وصيامه حتى يكون كذلك)، إذا كان هذا قول ابن عباس المتوفى سنة ثمان وستين في القرن الأول، فما ظنك بالقرن الرابع عشر والخامس عشر؟! الذي بعد فيه الناس عن عهد النبوة، فكيف نقارن قول ابن عباس في زمانه بزماننا هذا؟!

والله يقول: ﴿لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ﴾ [المجادلة: ٢٢]، هذا معنى البغض في الله، ولو كان أباك أو أخاك أو أقرب قريب منك وهو منحرف على غير هدى، لابد أن تبغضه لأجل الله، وإن كان من طبع الولد أن يحب أباه، ومن طبع الأب أن يحب ابنه، هذا شيء فطر الله الناس عليه، لكن لابد من بغضه ومعاداته، ما دام منحرفا عن الصراط، معاديا لله، أو أهمل شيئا من الواجبات، وارتكب شيئا من المحرمات نبغضه على قدر ذلك، ونحبه على قدر ما كان عليه من الخير.

---

(١) ينظر: الآداب الشرعية (١/ ٣٠٩).

(وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا وذلك لا يجدي على أهله شيئا): لأنها تنقطع، فعامة مؤاخاة الناس، ومحبة بعضهم لبعض، ونصر بعضهم لبعض هو لأجل الدنيا، فإذا حصل لك من زيد نفع دنيوي - ولو كان من أجرم المجرمين! - ناصرته، وأحببته لأجل المنفعة التي وصلت إليك من قبله.

(قال ابن عباس: في قوله تعالى: ﴿وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]؛ قال: المودة): التي كان يصل بعضهم بعضا بها في الدنيا، خانتهم أحوج ما كانوا إليها في الآخرة، كما في قوله تعالى: ﴿إِذۡ تَبَرَّأَ ٱلَّذِينَ ٱتُّبِعُواْ مِنَ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُواْ وَرَأَوُاْ ٱلۡعَذَابَ وَتَقَطَّعَتۡ بِهِمُ ٱلۡأَسۡبَابُ﴾ [البقرة: ١٦٦]، وكقوله تعالى: ﴿ٱلۡأَخِلَّآءُ يَوۡمَئِذِۭ بَعۡضُهُمۡ لِبَعۡضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧]، فما يبقى للإنسان إلا ما قصد به وجه الله والدار الآخرة، هذا الذي يبقى، فإذا عمله لأجل وجه فلان؛ فهذا يخونك أحوج ما تكون إليه، بل تعاديه ويعاديك يوم القيامة، وكل منكم يتبرأ من الآخر؛ لأن المحبة لم تبن على أسس من التقوى.



(٣١) باب قول الله تعالى:

﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الآية [التوبة: ١٨].

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الآية [العنكبوت: ١٠].

وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعا: «إن من ضعف اليقين: أن ترضى الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره»(١).

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من التمس رضى الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضى الناس بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس» رواه ابن حبان في صحيحه(٢).



(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (٥/ ١٠٦)، والبيهقي في الشعب (ح: ٢٠٣).
(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (ح: ٢٤١٤)، وابن حبان في صحيحه (ح: ٢٧٦).

شرح: باب قول الله تعالى:

﴿ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾ [آل عمران: ١٧٥]

أعقب المصنف رَحِمَهُ ٱللَّهُ الباب السابق وهو في المحبة بباب الخوف؛ وذلك أنك إذا وفقت لمحبة الله التي من لازمها ونتائجها امتثال ما أمر الله به والانتهاء عما نهى الله عنه، فينبغي أن لا تثق بما أنت عليه، بل كن دائما خائفا وعلى وجل، فما تدري ما عاقبة أمرك؟! ولا تدري ما ينصب الشيطان لك من العداوة والشباك؛ يريد أن يخرج من قلبك تلك المحبة التي هي: امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه، وأن يجعلك من حزبه وأوليائه، هذا وجه ذكر هذه الترجمة بعد الترجمة التي سبقتها.

والخوف أقسام:

الأول: خوف السر، وهذا عبادة، فصرف هذا النوع لغير الله شرك أكبر، ينافي التوحيد بالكلية، ومعنى (خوف السر): هو أن تخاف من هذا الميت أو هذا الصالح أو هذا النبي أو هذا الملك أو هذه الشجرة أن توقع بك ضررا، أو تفعل بك مكروها أو بأولادك، هذا هو خوف السر، وهو لا يكون إلا لله، وقد مدح الله الملائكة المقربين بخفهم منه، كما في قوله تعالى: ﴿ يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ [النحل: ٥٠]، وقال: ﴿وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴾ [البقرة: ٤٠]، والرهبة هنا هي: الخوف، وكذلك قوله في مدح المؤمنين: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ﴾ [المؤمنون: ٥٧]؛ أي: خائفون وجلون ذليلون لله -سبحانه-، بخلاف ما عليه عباد القبور الذين افتتنت قلوبهم بالتعلق بها؛ فإنك لو طلبت أن يحلف

بالله لحلف الأيمان العديدة، ولو قلت له: «احلف بابن العباس»، أو «احلف بالدسوقي»، أو «احلف بأحمد البدوي» توقف[1]، ولو كان في ذلك قطع رقبته، معظما لهذا الميت المدفون تعظيما أعظم من تعظيم الله، هذا خوف السر، وهذا هو الشرك الأكبر المنافي للتوحيد بالكلية، فأي شرك أكبر من هذا؟!

النوع الثاني: الخوف من إنكار المنكر، تخشى ممن له سلطة أن يوقع بك شيئا، أو يقطع عنك شيئا، وهذا معنى قوله: ﴿إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ﴾ [آل عمران: ١٧٥]؛ أي: يخوفكم بأوليائه، وهو أنه يعظمهم في صدوركم، فتقول مثلا: «لو أمرت ونهيت، أخشى من هذا الظالم»، هيبة له، وتعظيما وإجلالا - وإن كنت تبغض هذا المنكر-، وهذا شأن الشيطان يعظم أولياءه في قلبك؛ حتى لا تأمر بمعروف ولا تنكر منكرا.

وكما قال الشافعي لتلميذه يونس بن عبد الأعلى الصدفي: «يا يونس لو أردت أن ترضي الناس كلهم ما وجدت إلى ذلك من سبيل؛ فإن رضى الناس غاية لا تدرك»[2]؛ ولكن عليك بإرضاء واحد يرضى عنك الناس كلهم.

فترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر خوفا من أولياء الشيطان لا ينبغي، بل على الإنسان أن يأمر وينهى ويبين الحق مهما كانت الحالة، والله إذا علم منه صلاح النية فإنه يؤيده ويناصره، كما وقع لسلفنا الصالح أشياء كثيرة من هذا أمام

---

(١) أي: توقف إذا كان كاذبا في حلفه لتعظيمه المحلوف به؛ فيجله عن أن يحلف به كاذبا، لا أنه توقف لأنه يرى أنه لا يجوز الحلف إلا بالله.

(٢) ينظر: آداب الشافعي ومناقبه لابن أبي حاتم (ص: ٢٧٨)، مناقب الشافعي للبيهقي (٢/ ١٧٣)، شعب الإيمان (٩/ ٢٠١).

السلاطين، وكل هذا محافظة على الدين، وأبلغ ما سمعنا في هذا المقام ما وقع للإمام أحمد مع المأمون، حين ابتلى الناس بالقول بخلق القرآن؛ فإنه قد دعا الناس إلى القول بخلق القرآن، وقتل من قتل من العلماء، وسجن من سجن من العلماء، ووافقه من وافقه من العلماء؛ خوفا من شره لما رأوا القتل في إخوانهم[(١)].

والإمام أحمد لم يوافق مع أنه أوذي بالضرب والحبس، بل صبر على ذلك كله، وقال: «إن القرآن منزل غير مخلوق»، فبقي على هذا في السجن سنتين وأربعة أشهر، يضرب كل جمعة، ويأتي الخلق الكثير لأجل أن يكتبوا ما يقوله، لعله أن يقول: «إن القرآن مخلوق»، ولكنه أبى وصبر على الضرب، وصبر على السجن، وصبر على المحن، وصبر على البلاء، كل ذلك في سبيل نصرة عقيدة أهل السنة، خشية أن يطبق الناس على القول بخلق القرآن، لم يعظم في قلبه حزب الشيطان وأولياؤه من القائلين بهذا القول.

﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾: تقديم المعمول على عامله يفيد الحصر، فدل على أن الإيمان ينتفي بانتفاء الخوف من الله، ولاشك أن من وقع في قلبه الخوف من الله وتعظيم الله؛ فإن الله يؤيده وينصره، وعد الله ولن يخلف الله وعده: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾ [الحج: ٤٠]، ولم يقل: (إن الله لغفور رحيم)؛ لأن المقام مقام نصر، والنصر يناسبه القوة.

فالإمام أحمد رَحِمَهُ اللَّهُ لما حصل عليه ما حصل وجاؤوا به للضرب، قال: «لما ألقوني على الأرض وجاء الجلادون جاء لص همس في أذني -ما زلت أدعو

---

(١) ينظر: البداية والنهاية (١٤/ ٣٩٣).

له-؛ ثبتني وقواني على نفسي قائلا: يا أحمد اتق الله، اصبر، فهم يريدونك على الباطل، اصبر فإنك على الحق، فلقد سرقت وضربوني يريدونني أن أقر فلم أقر لهم وأنا على باطل، فكيف تقر لهم وأنت على الحق»(١).

عليك أن تأمر وتنهى وتبين، رضي من رضي وسخط من سخط، إنما على الإنسان أن يبين، وعليه الإخلاص وتقوى الله، وأن يكون قصده ونيته لله؛ فإن الله يكفيه، ولا يضره أي شيء أبدا.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾ الآية [التوبة: ١٨].

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ جاءت عقب الآية التي قبلها: ﴿مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا۟ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ شَٰهِدِينَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِم بِٱلْكُفْرِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ وَفِى ٱلنَّارِ هُمْ خَٰلِدُونَ﴾ [الآية: ١٧]؛ أي: ليسوا أهلا لعمارة المساجد بالطاعة؛ بل هم كفار؛ لأنهم لم يخشوا الله، بل أشركوا مع الله غيره، وإنما أولياء الله الحقيقيون من ذكروا في هذه الآية: ﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ﴾ وعمارة المساجد ليست بالطين والإسمنت، بل عمارة المساجد الحقيقة هي: بالصلوات فيها، وتلاوة القرآن، وطاعة الله -سبحانه-؛ لأنها بيوت الله: ﴿فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾ لِيَجْزِيَهُمُ ٱللَّهُ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟ وَيَزِيدَهُم مِّن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [النور: ٣٦- ٣٨]، هؤلاء هم

---

(١) ينظر: مناقب الإمام أحمد لابن الجوزي (ص٤٢٢) بنحو القصة المذكورة.

عمار المساجد الحقيقيون، وهم الذين جاء ذكرهم في الحديث: «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَعْتَادُ الْمَسْجِدَ-؛ أي: يتردد إليه في اليوم والليلة خمس مرات لأداء ما فرض عليه وليتقرب إلى الله بطاعته في هذا المسجد- فَاشْهَدُوا لَهُ بِالْإِيمَانِ»(١)، جعل مجرد تردده ومجيئه إلى المسجد مبيحا للشهادة له بالإيمان، وإن كانت سرائر الخلق إلى الله، فالله هو المطلع على سرائر العباد، لكن لنا الظاهر.

﴿إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ﴾: هو ما بعد الموت، من سؤال الملكين في القبر، والصراط، والميزان، والبعث، والنشور، والجنة والنار، هذا هو اليوم الآخر.

﴿وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: تأمل القرآن وانظر؛ فإن الغالب أنه كلما ذكرت الصلاة ذكرت بلفظ الإقامة، ولم يقل: (وصلى)؛ لئلا يدخل من صلى الصلاة ولم يقمها في هذا، فالله توعد من لم يقمها -وإن صلى-، قال تعالى: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْمُصَلِّينَ﴾ [الماعون: ٤]؛ لأنهم يصلون ولكنهم لا يقيمونها، ففرق بين من أقام الصلاة وبين من صلى دون إقامة لها(٢).

فليس المراد أنه صلى، بل صلى بإقامة، فأدى الصلاة بشروطها، وأركانها، وواجباتها، وسننها، في أوقاتها، بخشوع وخضوع، على النحو الذي أداها رسول الله ﷺ.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) لاحظ دقة الشيخ حيث إنه ذكر أن أكثر ما يأتي في القرآن بذكر الإقامة؛ لأنه ورد مجردا عن ذكر الإقامة على جهة المدح، مثل قوله سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ﴾ [العلق: ٩- ١٠]، وقوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّىٰ ۝١٤ وَذَكَرَ ٱسْمَ رَبِّهِۦ فَصَلَّىٰ﴾ [الأعلى: ١٤- ١٥]- الشيخ صالح-.

﴿وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ﴾: الزكاة قرينة الصلاة في القرآن، والله ذكر الزكاة في القرآن في نحو اثنين وثمانين موضعا؛ مما يدل على عظمها، والزكاة معلوم أنها حق في أموال الأغنياء لطائفة مخصوصة، وهم الفقراء ونحوهم من الأصناف الثمانية الذين جاء ذكرهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ الآية [التوبة: ٦٠]، وهي تنمي المال، وتزكيه وتطهره، وتقيه الآفات.

﴿وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا ٱللَّهَ﴾: بعدما ذكر صفات عمار المساجد، وهم المؤمنون بالله واليوم الآخر، المقيمون للصلاة، المؤدون للزكاة، ذكر الذين لا يخشون إلا الله، لم يخافوا من غير الله، ولم يقع في قلوبهم أجل ولا أعظم من خالقهم وباريهم، يأتمرون بأوامره، ينتهون عن نواهيه.

﴿فَعَسَىٰٓ أُو۟لَٰٓئِكَ أَن يَكُونُوا۟ مِنَ ٱلْمُهْتَدِينَ﴾ قال ابن عباس: «كل ما في القرآن من قوله: (عسى) فهو واجب»[(١)]؛ أي: أنه سيكون من المهتدين.

وقوله: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ فَإِذَآ أُوذِىَ فِى ٱللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ ٱلنَّاسِ كَعَذَابِ ٱللَّهِ﴾ الآية [العنكبوت: ١٠].

الناس فريقان: مؤمن وكافر، لا ثالث لهما، الكافر يرتكب السيئات، ويعمل الكفر، فلا حيلة فيه إلا بالتوبة والرجوع إلى الإسلام، والآية لا تتناول هذا النوع.

أما المنتسب للإيمان فهو الذي تتناوله الآية، فالذين يقولون: (آمنا بالله) هم على حالتين:

---

(١) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (٦/ ١٧٦٦).

الأولى: مؤمنون بالله بألسنتهم وأعمالهم وأفعالهم، وهذا الإيمان الحقيقي.

الحالة الثانية: مؤمنون بالله بألسنتهم ولكن تخلف العمل، لم يخالط الإيمان بشاشة قلوبهم، فهم مؤمنون بطرف ألسنتهم، ومن كان هذا حاله: إذا أوذي في الله وحل به شيء من المصائب ذهب ذلك الإيمان، بل جعل هذا من عذاب الله، وانحرف عن الإيمان؛ لأن الإيمان لم يصادف قلبه، والله يمتحنهم ويختبرهم هل هم مؤمنون حقا؟ كما في أول سورة العنكبوت: ﴿ الٓمٓ ﴿١﴾ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ﴿٢﴾ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ﴾ [العنكبوت: ١-٣].

فأصحاب رسول الله ﷺ لما أسلموا امتحنهم الله، بل سيدهم محمد ﷺ امتحنه الله مع أنه رسول الله، وإمام المرسلين، وخاتم النبيين، مع هذا امتحن، وأوذي لكنه صبر ﷺ، ومعلوم ما جرى له في بدء دعوته حين أخذ عقبة بن أبي معيط رأسه وبصق -قبحه الله- في وجه الرسول ﷺ ومع هذا صبر ﷺ ولم يصده ذلك عن الإيمان، بل ثبت[1].

ولما قام لصلاته جاءت قريش وألقت عليه سلا جزور، كان ذلك ابتلاء وامتحانا ولم يصده ذلك عن دينه، ثم ذهبوا إلى أبي طالب وقالوا له: «خذ لنا من ابن أخيك»، إلى أن قالوا: إن كان يريد مال جمعنا له من أموالنا مالا، وإن كان يريد السؤدد سودناه علينا حتى لا نقطع أمرا دونه، فقال لهم ﷺ: «والله لو وضعتم القمر في يميني والشمس في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته

---

(١) سبق تخريجه.

حتى يظهره الله أو أهلك دونه»[1]، هذا هو الإيمان الحقيقي.

وأبو بكر رضي الله عنه صدق بالرسول ﷺ وآمن به، وأوذي في الله بسبب إيمانه بالله وتصديقه بالرسول ﷺ ومتابعته له، جاءه من الأذى والامتحان ما تعجز أن تحمله الجبال، فقد ضرب ضربا مبرحا في وجهه حتى أغمي عليه، فحملته بنو تيم في ثوب لا يشكون في موته، فلما أفاق لم يسأل عن شيء إلا عن النبي ﷺ[2]، وما صده ذلك عن دينه.

وهكذا بقية من آمن بالله حقا، فهم لا يزعزعهم عن إيمانهم أي أذى، ولا يزعزعهم عن إيمانهم أي بلاء.

وكما في قوله تعالى: ﴿وَلَئِن جَآءَ نَصۡرٞ مِّن رَّبِّكَ لَيَقُولُنَّ إِنَّا كُنَّا مَعَكُمۡۚ﴾ [العنكبوت: ١٠]؛ أي: إن أصابتكم حسنة قالوا: نحن معكم، وإن أصابتكم سيئة فرحوا بها، وقالوا: لم نكن معكم.

وقد دلت الآية على أن الإيمان قول وعمل واعتقاد، ففيه الرد على المرجئة القائلين: إن الإيمان هو مجرد التصديق بالقلب - وإن لم يعمل-؛ وأن إيمان العبد كإيمان جبريل، فالأعمال ليست من الإيمان -عندهم-، والآية ترد عليهم، والقرآن كله يرد عليهم، بل الإيمان لابد أن يكون بالقول والعمل والاعتقاد، فالاعتقاد وتصديق القلب لا يكفي مهما كان.

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

وكان المعروف عن الحنفية أنهم على مذهب المرجئة في الإيمان، فيقولون: إن الإيمان هو مجرد التصديق، هذا المعروف في كتب الحنفية، والمنسوب إلى مذهب الإمام أبي حنيفة، وهذا القول مخالف للقرآن، ومخالف للسنة، وشارح الطحاوية يعرف أن الإيمان قول وعمل واعتقاد، وهذا هو رأيه، فهو على مذهب أهل السنة، لكن لأنه حنفي حاول بكل ما يمكن أن يوفق بين مذهب أهل السنة وبين القائلين بأن الإيمان هو: التصديق، وقال: «إن الخلاف بينهم صوري؛ فإن من لازم التصديق أن يعمل بالجوارح، وأن يقول باللسان»، أخذ في هذا وأطال[1]، ولكنه لم يصنع شيئا، مع حرصه على أن يجعل الخلاف بين الحنفية وبين أهل السنة صوريا.

والحنفية ذهبوا في الإيمان مذهب المرجئة – أي: أن التصديق كاف-، وأهل السنة يقولون: ليس بكاف، بل لابد من القول ولابد من العمل؛ لأن الله يقول: ﴿ إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُواْ بِهَا خَرُّواْ سُجَّدًا وَسَبَّحُواْ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴾ [السجدة: ١٥]، فلم يثبت الله لهم الإيمان إلا بالفعل، الذي هو -في الآية-: السجود، وبالقول، الذي هو – في الآية-: التسبيح، وبعدم الاستكبار، وهو: عقيدة القلب، فعقيدة القلب وحدها لا تكفي.

فنجد كثيرا من كفار قريش مصدقين بالنبي ﷺ في قلوبهم لكن تخلفت أعمالهم، فلم ينفعهم التصديق بقلوبهم؛ كما في تصديق أبي جهل في قوله تعالى: ﴿ قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُۥ لَيَحْزُنُكَ ٱلَّذِى يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ ﴾ [الأنعام: ٣٣] لاحظ قوله:

---

(١) ينظر: شرح الطحاوية (٢/ ٤٦٢) وما بعدها.

﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ﴾ أخبر الله بأنهم مصدقون لما جاء به الرسول ﷺ، ومصدقون بأن محمدا هو رسول الله حقا، وقال تعالى: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ [النمل: ١٤]؛ فدل على أن مجرد استيقان القلب لا يكفي؛ متى تأخر العمل أو القول.

وكذلك قول موسى مخاطبا فرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء: ١٠٢]، عرف موسى أن فرعون علم أن موسى رسول الله، وعلم أن هذه الآيات –التسع– التي جاء بها موسى هي من عند الله، ولكنه جحد ولم يقبل، فعلى رأي المرجئة: فرعون مؤمن!؛ لأنه علم واعتقد ذلك، وإنما تأخر العمل، هذا على رأيهم، فبهذا تعرف أن الإيمان هو: قول باللسان، واعتقاد بالجنان، وعمل بالجوارح والأركان.

ويدل على ذلك –أيضًا– قصة أبي طالب عم النبي ﷺ فإنه مصدق بالرسول ﷺ بقلبه ولسانه – كما في قصائده المشهورة–، لكن تخلف العمل.

وعن أبي سعيد رضي الله عنه مرفوعا: «إن من ضعف اليقين: أن ترضى الناس بسخط الله، وأن تحمدهم على رزق الله، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله، إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره»[1].

(إن من ضعف اليقين): بضم الضاد، وذلك كالقراءة في قوله تعالى في سورة الروم: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضُعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضُعْفٍ قُوَّةً﴾ [الروم: ٥٤]،

---

(١) أخرجه أبو نعيم في الحلية (١٠٦/٥)، والبيهقي في الشعب (ح: ٢٠٣) من طريق محمد بن مروان، عن عمرو بن قيس، عن عطية، عن أبي سعيد، به مرفوعا.
وإسناده واه، محمد هو السدي الصغير، متروك متهم، وعطية هو العوفي، مشهور الضعف.



هذه قراءة، والقراءة الأخرى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنۢ بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً﴾ وهما قراءتان مشهورتان[1]، الفتح: لغة بني تميم، والضم: لغة الحجازيين، التي هي لغة الرسول ﷺ.

و(ضعف اليقين) هو: من ضعف الإيمان، ففيه أن الإيمان يضعف، بمعنى: ينقص، والإيمان -أيضًا- يزيد، خلافا للأشاعرة القائلين: إما أن يثبت إيمانه، أو ينخلع نهائيا، وشبهوه بالثوب: إما أن تلبسه كله، أو تخلعه كله، فالإيمان لا يزيد ولا ينقص عندهم، وقالوا في قوله ﷺ: «لَا يَزْنِي الزَّانِي حِينَ يَزْنِي وَهُوَ مُؤْمِنٌ»[2]، قالوا: عندما يرتكب الزنا يذهب عنه الإيمان.

أما أهل السنة والجماعة فيقولون: لا، بل الإيمان يزيد وينقص، وقد دل على ذلك القرآن في آيات كثيرة، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٧٣]، هذا يدل على أن الإيمان يزيد، وكذلك قوله: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾ [الأنفال: ٢]، وقوله: ﴿فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾ [التوبة: ١٢٤]، وقوله: ﴿وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩]، وقوله: ﴿وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى﴾ [الكهف: ١٣]، وقوله: ﴿وَيَزِيدُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ هُدًى﴾ [مريم: ٧٦]، وقوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَٰنًا مَّعَ إِيمَٰنِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]، إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة، كلها تدل

---

(١) ينظر: شرح الطيبة (ص٢٤٤).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٤٧٥)، ومسلم في صحيحه (ح: ٥٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

على أن الإيمان يزيد بالطاعة، وينقص بالمعصية، فإذا عملت طاعة لله زاد إيمانك، وإذا ارتكبت معصية نقص إيمانك بقدر ما ارتكبت، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة، خلافا للأشاعرة ومن شاكلهم، ممن زعم أن الإيمان لا يزيد ولا ينقص.

والناس يختلفون في إيمانهم، فإيمانك ليس كإيمان أبي بكر رضي الله عنه، وليس كإيمان جبريل عليه السلام.

وهم يقولون: بل الإيمان واحد، ليس هناك فرق، إيمانك هو كإيمان أبي بكر؛ لأن الإيمان شيء واحد، إما أن تكون مؤمنا، أو تنخلع من الإيمان، لا زيادة ولا نقص، وهذا قول معلوم الفساد.

(أن ترضي الناس بسخط الله): هذا من ضعف الإيمان، تتزلف للناس بما يسخط الله، تخطب ودهم، وتسكت عنهم، وتداهنهم، وترضيهم، وإن أدى ذلك إلى سخط الله!، هذا من ضعف الإيمان، الله أمرك أن تأمر بالمعروف، وتنهى عن المنكر؛ قال الله تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ﴾ [التوبة: ٧١]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «الدِّينُ النَّصِيحَةُ»[(١)]، فمتى جاملتهم، وسكت عن منكراتهم مستجلبا ودهم، مكتسبا رضاهم فلا شك أن إيمانك ضعيف، لو كان إيمانك قويا لاعتمدت على الله، وتوكلت عليه، وأرضيت الله إن سخط زيد وعمرو.

(وأن تحمدهم على رزق الله): هذا -أيضًا- من ضعف الإيمان الله عز وجل

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٥٥) من حديث تميم الداري رضي الله عنه.

يعطيك ويدر عليك النعم ويسوقها على يد هذا الشخص -مثلا- ثم تثني على هذا الشخص وتمدحه وتنسى المنعم المتفضل!، هذا من ضعف الإيمان.

من الذي عطف قلب هذا حتى أوصل إليك الرزق؟! لم نسيت الله وجعلت تثني على هذا الشخص؟! هذا كله من ضعف الإيمان، بل لاحظ أن الرب هو الذي ساق لك هذه النعمة وهذا الرزق بواسطة هذا الشخص، ولا نقول: أنكر الجميل، فمن لا يشكر الناس لا يشكر الله.

(وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله): الله إذا منعك شيئا جعلت تذم هذا الشخص بأنه بخيل، وأنه كذا...، وهذا لا ينبغي، الأمور بيد الله، سل الله من فضله دون أن تطلق لسانك في زيد وعمرو، فهذا من ضعف الإيمان؛ تسب الرجل وتذكر مثالبه لأنه لم يقض حاجتك!

(إن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره): بل ما قدر الله لابد أنه واقع، مع أنك مأمور بتعاطي الأسباب، إن حصل لك بعد فعل الأسباب فاحمد الله، وإن لم يحصل شيء فاحمد الله؛ فهو أعلم بمصالح خلقه.

وعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ قال: (مَنِ الْتَمَسَ رِضَا اللهِ بِسَخَطِ النَّاسِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَأَرْضَى عَنْهُ النَّاسَ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللهِ سَخِطَ اللهُ عَلَيْهِ وَأَسْخَطَ عَلَيْهِ النَّاسَ) رواه ابن حبان في «صحيحه»[1].

---

(١) أخرجه ابن المبارك في الزهد (١٩٩) - ومن طريقه إسحاق بن راهويه (ح: ١١٧٥)، والترمذي في جامعه (ح: ٢٤١٤)، واللالكائي في شرح أصول الاعتقاد (٨/ ١٥٣٣)- من حديث عبد الوهاب بن الورد، عن رجل من أهل المدينة قال: «كتب معاوية إلى عائشة أن اكتبي إلي كتابا توصيني فيه ولا تكثري، فكتبت إليه...» الحديث مرفوعا.

وهذا إسناد ضعيف للإبهام الذي وقع فيه. =

= وأخرجه ابن حبان في صحيحه (ح: ٢٧٦)، والشهاب القضاعي في مسنده (٤٩٩- ٥٠٠) من حديث عثمان بن واقد، عن أبيه، عن محمد بن المنكدر، عن عروة، عن عائشة، به مرفوعا.

وخالف شعبة عثمان فرواه عن واقد بن محمد، عن ابن أبي مليكة، عن القاسم، عن عائشة موقوفا كما عند الإمام أحمد في (الزهد ٩١٠) من طريق الطيالسي، عن شعبة، وأبي داود في (الزهد ٣١٥) -أيضًا- من طريق غندر، عن شعبة، والبيهقي في (الأسماء والصفات ١٠٥٩) من طريق عثمان بن عمر، عن شعبة.

صوب أبو حاتم (العلل ٥/ ٥٩) رواية شعبة، والحمل في رواية الرفع على عثمان؛ فإن فيه ضعفا. ينظر: الميزان (٣/ ٥٩).

وقد اضطرب عثمان بن عمر بن فارس في روايته عن شعبة؛ فرواه موقوفا كما عند البيهقي في (الأسماء والصفات) -وقد تقدم-، ورواه عن شعبة مرفوعا كما عند عبد بن حميد (١٥٢٢)، والبيهقي في الزهد الكبير (٨٩٠)، والحمل في هذا الاضطراب عليه؛ لما تقدم من رواية الطيالسي وغندر، ولقول البيهقي بعد إخراجه: «ربما رفعه عثمان، وربما لم يرفعه».

وأخرجه البزار (ح: ٣٥٦٨)، والشهاب القضاعي في مسنده (ح: ٤٩٨)، والبيهقي في الزهد الكبير (ح: ٨٨٧) من طريق قطبة بن العلاء، عن أبيه، عن هشام بن عروة، عن أبيه، عن عائشة، به مرفوعا.

وهو خبر منكر، قطبة وأبوه ضعيفان. ينظر: الميزان (٣/ ٢٦١- ٣٩٠)، وهذه الرواية أنكرها البخاري (التاريخ الكبير ٧/ ١٩١)، وكذلك أعلها البزار بعد إخراجها، وأبو حاتم (العلل ٥/ ٩٠)، والعقيلي (الضعفاء ٣/ ٣٤٢).

وبهذا يعلم أن الخبر لا يصح مرفوعا، وأن الصواب فيه الوقف، قال العقيلي (٣/ ٣٤٣): «ولا يصح في الباب مسندا، وهو موقوف من قول عائشة»، وكذلك ضعف المرفوع وحسن الموقوف ابن مفلح (الآداب الشرعية ١/ ١٩٧). ينظر: العلل الكبير (ص٣٣٢)، الكامل (٣/ ٣٤٢).

بقي التعريج على شاهد تمسك به بعضهم، وهو من مسند ابن عباس رضي الله عنهما، أخرجه الطبراني (ح: ١١٦٩٦) عن شيخه جبرون بن عيسى، عن يحيى بن سليمان، عن الفضيل بن عياض، عن حصين، عن عكرمة، عن ابن عباس، به مرفوعا.

وإسناده ضعيف جدا، جبرون تالف، وشيخه يحيى بن سليمان الحفري ضعيف. ينظر: الإصابة (٧/ ١٠٢)، اللسان (٨/ ٤٥٠).

كتب معاوية إلى عائشة يطلب منها النصيحة، وأن توجز ولا تكثر عليه، بعدما كبر وطعن في السن، فكتبت له بمعنى هذا الحديث، وهو حديث جليل القدر، وقاعدة كلية من قواعد الإسلام.

(من التمس رضا الله)؛ أي تقرب إلى الله بما يرضيه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والصدع بالحق - وإن أدى ذلك إلى سخط الناس-؛ فإن الله يرضى عنه، ويرضى عنه الناس بعد ما كانوا يذمونه، لابد وأن يثنوا عليه ما دام أن قصده وجه الله، ولم يقم إلا لله، غير مبال برئيس أو كبير؛ لأن قلوب بني آدم بين أصبعين من أصابع الرحمن، فهم وإن سخطوا عليه لا بد أن يرضوا، ويروى عن وهب بن منبه أن الله أوحى إلى داود عليه السلام: «يا داود لو أن عبدا من عبادي اعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيده السماوات ومن فيهن والأرضون ومن فيهن إلا جعلت له من بينهن فرجا ومخرجا، يا داود لو أن عبدا من عبادي اعتصم بي دون خلقي أعرف ذلك من نيته فتكيده السماوات ومن فيهن والأرضون ومن فيهن إلا جعلت له من بينهن فرجا ومخرجا»[1].

ثم إن الناس الذين تطلب مرضاتهم أي شيء عندهم؟! هم فقراء ليس بأيديهم شيء، الأمر بيد الله، ولكن للأسف ربما يرقع المرء دنيا غيره من ملوك وسلاطين -لا دنياه هو- بتمزيق دينه، كما قيل[2]:

نرقع دنيانا بتمزيق ديننا ❁ فلا ديننا يبقى ولا ما نرقع

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ينظر: حلية الأولياء لأبي نعيم (٨/ ١٠).

لم يبق الدين، ولا ما يرقع من الدنيا – لأنها زائلة–.

ثم إذا طلبت رضاهم فسيسخطون عليك ولابد، أما إذا تبعت رضا الله –وإن أدى إلى سخطهم– فلابد أن يرضوا عنك، ولا يمكن أن ترضي الناس كلهم، هذا مستحيل، وغاية لا يمكن الوصول إليها.

ووجه مطابقة الحديث للترجمة: أن خوفهم لا يمنعك من الصدع بالحق.

وقد ذكر بعض العلماء قصة جرت في أيام المعتضد العباسي، وهي: أن رجلا كان يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، غير مبال بأحد، فخرج يوما من بغداد إلى نهر دجلة، فأبصر سفينة قد أقبلت فوقف ينظر حتى وصلت، فسأل الملاح: ما هذا الذي معك؟

قال: اذهب لشأنك.

قال: بل أخبرني.

قال: هذا خمر لأمير المؤمنين.

فصعد السفينة، فكسرها كلها، والملاح يستغيث، فما بقي إلا زجاجة واحدة تركها.

فأخبر أمير المؤمنين فبعث إليه الشرطة فجيء به وقد انتفخت أوداج أمير المؤمنين، وبيده قضيب حديد، فقال له: ما الذي حملك على هذا؟!

قال: الأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر.

قال المعتضد هل أنت محتسب؟!

قال: نعم.

قال: من الذي ولاك؟!

قال: الذي ولاك الخلافة.

فقال: لم كسرتها كلها وتركت واحدة؟!

قال: كسرتها لله، فلما بقيت هذه الواحدة أحسست أن نيتي ضعفت، وقلت: إن الناس سيقولون: «أراق خمر أمير المؤمنين، فيه جرأة»، فلما شعرت بهذا تركتها.

فقال له: اذهب، فقد أطلقت يدك، مر بالمعروف، وانه عن المنكر، والله لا نمنعك.

قال الرجل: والله لا آمر، ولا أنهى.

قال: ولم؟!

قال: إذا أمرت بأمرك صرت شرطيا لك.

قال: وماذا تريد؟!

قال: أريد أن تأذن لي أن أذهب إلى البصرة.

قال: ولم؟

قال: خشية أن يقول الناس في بغداد إذا رأوني: «هذا الذي كسر قوارير خمر أمير المؤمنين».

فلما خرج وشكره قال لبعض من عنده: «اذهبوا واتبعوه وانظروا ماذا يقول الناس»، فرأوه لما خرج جعل يلتقط نوى التمر من الشوارع، فكلمه

بعضهم فلم يرد عليهم، ولم يقل: «أنا كسرت وفعلت..»، ولم يقل: «قال لي أمير المؤمنين: ...، وقلت لأمير المؤمنين: ...»[1].

فانظر إلى هذا الرجل لما كان قصده وجه الله ولم يخالط نيته أي شيء انطبق عليه هذا الحديث: «من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله عنه وأرضى عنه الناس»، فالله رضي عنه، وأرضى عنه هذا الأمير، ولم يتعرض له بشيء، بل أمره أن يأمر وينهى.

بخلاف من غرته نفسه؛ فالتمس رضا الناس – وإن أدى إلى سخط الله–، أو خالط قلبه شيء من الكبر والعظمة؛ فإن الله يبتليه في الدنيا قبل الآخرة.



(١) ينظر: تاريخ دمشق (٧١/ ٢١١)، تاريخ الإسلام (٦/ ٨٩١).

(٣٢) باب قول الله تعالى:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ﴾ الآية [الأنفال: ٢].

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسۡبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓ﴾ [الطلاق: ٣].

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ قالها إبراهيم ﷺ حين ألقي في النار، وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]. رواه البخاري والنسائي[١].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٤٥٦٣)، والنسائي في السنن الكبرى (ح: ١٠٣٦٤).

شرح: باب قول الله تعالى:

﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]

هذا الباب عقده المصنف في التوكل بعد ذكر الخوف والمحبة، فالعبد لا ينبغي له أن يغلب جانب الخوف، بل عليه أن يخاف الله -سبحانه-، ويعمل بما يرضي الله ويقربه إليه، مع اعتماده على الله وتوكله عليه.

والتوكل هو: تفويض الأمور إلى الله عز وجل والاعتماد عليه.

تقول: «وكلت أمري إلى الله»؛ أي: فوضت أمري إليه، واعتمدت عليه لا على غيره.

والتوكل ثلاثة أنواع:

النوع الأول: جائز؛ وهو ما يذكره الفقهاء والمحدثون في مؤلفاتهم بقولهم: (باب الوكالة)، وهي: استنابة جائز التصرف مثله فيما تدخله النيابة، والناس محتاجون إلى هذا، ولا مانع منه باتفاق المسلمين.

ومعنى: (استنابة جائز التصرف مثله): هو أن العاقل الرشيد ينيب عاقلا رشيدا، فلا يصح توكيل صبي أو مجنون أو سفيه.

وقولهم: (فيما تدخله النيابة): يخرج الذي لا تدخله النيابة كاليمين، فلو وكلت شخصا ليحلف عنك عند القاضي فلا يصح، أو وكلت إنسانا يظاهر من امرأتك لا يصح، أو وكلت إنسانا ينذر عنك لا يصح، أو وكلت إنسانا يصلي عنك لا يصح؛ لأن هذه الأشياء لا تدخلها النيابة، هذا معنى قول العلماء في تعريف الوكالة.

وهذا النوع ليس هو القصد من غرضنا، ولا يتضمنه هذا الباب.

النوع الثاني: هو الذي عقد المصنف لأجله هذا الباب، وهو التوكل على الله، بمعنى: أن تفوض أمرك إلى الله وتعتمد عليه، وصرف التوكل لغير الله شرك أكبر، ينافي التوحيد؛ فإن التوكل على الله من أعلى مقامات التوحيد وأجلها، ألا ترى أن الله يقول: ﴿وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]، فهذا الشرط دل على أن الإيمان ينتفي بانتفاء التوكل، فإذا لم تتوكل على الله انتفى عنك الإيمان؛ بدليل هذه الآية، فإن تقديم المعمول على عامله يفيد الحصر، وقد قرن الرب التوكل عليه بالعبادة فقال: ﴿فَٱعۡبُدۡهُ وَتَوَكَّلۡ عَلَيۡهِۚ﴾ [هود: ١٢٣]، فدل على أن التوكل من أعلى مقامات التوحيد، ﴿إِنِّي تَوَكَّلۡتُ عَلَى ٱللَّهِ رَبِّي وَرَبِّكُمۚ مَّا مِن دَآبَّةٍ إِلَّا هُوَ ءَاخِذُۢ بِنَاصِيَتِهَآۚ إِنَّ رَبِّي عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ﴾ [هود: ٥٦]، كل هذا يدل على أنه متى توكلت على مخلوق فإنك صرفت حق الله لغير الله، ووقعت في الشرك الأكبر المنافي للتوحيد، فيجب عليك ألا تتوكل إلا على الله، وهذا لا ينافي تعاطي الأسباب، بل فعل الأسباب التي تجلب لك النفع وتدفع عنك الضرر متعين، مع التوكل على الله، ولا تقل: «أنا متوكل على الله» تترك الأسباب! فهذا في الحقيقة قدح في الشريعة، ورداءة في العقل، فالله ربط الأسباب بمسبباتها ورتب عليها آثارها، فهل من المعقول أو من المنطق أن تقول: «يا رب ارزقني ذرية صالحة» ولم تعمل الأسباب ولم تتزوج؟! وتقول: «أنا متوكل على الله، لا أريد الزوجة بل أريد ذرية صالحة، وأسأل الله أن يعطيني ذرية صالحة!»، هذا ضرب من الجنون والهوس والخبل؛ فإن الله ربط الأسباب بمسبباتها،

وأمرك أن تتوكل عليه مع تعاطي الأسباب، لابد أن تتزوج، ثم بعد ذلك سل الله إيجاد ما تطلبه من صلاح الذرية – مثلا-.

أو مثلا تقول: «أنا لا آكل، أنا لا أشرب، بل أتوكل على الله، وأعتمد عليه، ولا أريد طعاما ولا شرابًا!»، فالله – سبحانه- خلقك لحما ودما، وأمرك بالتوكل عليه في جميع أمورك، والتوكل على غير الله فيما لا يقدر عليه إلا الله شرك أكبر، لكن عدم تعاطي الأسباب خلل في العقل، وضرب من الجنون؛ ألا ترى أن الله مع أمره بالتوكل أمر بتعاطي الأسباب فقال: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ ٱلْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾ [الأنفال: ٦٠]؟!

وهذا يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ الذي قال فيه النبي ﷺ: «الكَرِيمُ، ابْنُ الكَرِيمِ، ابْنِ الكَرِيمِ، ابْنِ الكَرِيمِ..»(١)، لما كان في السجن توكل على خالقه ومع هذا فعل السبب في إخراجه من السجن: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾ [يوسف: ٤٢]، هذا من تعاطي الأسباب، مع أنه متوكل على الله ومعتمد عليه، وهو نبي الله.

فوض أمرك إلى الله واعتمد عليه إن كنت مؤمنا، فالإيمان ينتفي بانتفاء التوكل، فكلما قوي توكل العبد قوي إيمانه، وكلما ضعف توكل العبد ضعف إيمانه، فإيمانه على قدر توكله، كما تقدم من أن التوكل هو من أعلى مقامات

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٣٣٩٠) من حديث ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

التوحيد، وأنه لا ينافي تعاطي الأسباب، بل قال المحققون: إن الاعتماد على الأسباب شرك، وترك تعاطي الأسباب قدح في الشريعة.

فلابد من تعاطي الأسباب، فالله يقول لمريم: ﴿وَهُزِّيٓ إِلَيۡكِ بِجِذۡعِ ٱلنَّخۡلَةِ تُسَٰقِطۡ عَلَيۡكِ رُطَبٗا جَنِيّٗا﴾ [مريم: ٢٥]، إذ الله قادر على أن يسقط لها الرطب دون هز جذع النخلة، لكن لابد من تعاطي الأسباب، فبهذا تعرف أن الله خلق هذا العالم ورتب الأسباب والمسببات، ورتب الآثار على ذلك، ثم الرب -سبحانه- يقدر ما يشار وما تقتضيه حكمته وإرادته.

وفي الحديث: «لَوْ أَنَّكُمْ تَوَكَّلُونَ عَلَى اللهِ حَقَّ تَوَكُّلِهِ لَرَزَقَكُمْ كَمَا يَرْزُقُ الطَّيْرَ تَغْدُو خِمَاصًا -؛ أي: جياعا-، وَتَرُوحُ بِطَانًا -؛ أي: ترجع شباعا-»(١).

فالطير لابد أن يعمل سببا في تحصيل رزقه، لا تبقى في وكرها، بل تذهب

(١) أخرجه ابن المبارك في (الزهد ٥٥٩) - ومن طريقه الطيالسي (ح: ٥١)، والترمذي في جامعه (٢٣٤٤) -وأحمد في مسنده (ح: ٢٠٥)، وعبد بن حميد في مسنده (ح: ١٠)، والنسائي في الكبرى (ح: ١١٨٠٥)، وابن حبان في صحيحه (ح: ٧٣٠)، والحاكم في المستدرك (٤/ ٣٥٤)، والبيهقي في الشعب (ح: ١١٣٩) من حديث بكر بن عمرو، عن عبد الله بن هبيرة، عن أبي تميم الجيشاني عبد الله بن مالك، عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب، به مرفوعا.

إسناده جيد، وهو عند ابن ماجه في سننه (ح: ٤١٦٤) من طريق ابن لهيعة، عن ابن هبيرة به.

تنبيه: روى الحديث البزار في مسنده (ح: ٣٤٠) من طريق ابن هبيرة، عن بكر بن عمرو، عن أبي تميم، عن عمر به مرفوعا.

ثم قال: «أحسب أن بكر بن عمرو لم يسمع من أبي تميم»، وهذا الإسناد غلط كما ترى؛ فابن هبيرة هو شيخ بكر كما في رواية الحفاظ لا بالعكس، والله أعلم.

من وكرها جياعا تتطلب الرزق، وتعمل السبب، وترجع بطانا، فكذلك أنت لابد أن تغدو وتروح في طلب الرزق مع التوكل على الله، كما دل عليه هذا الحديث، فالطير لابد أن يعمل سببا في تحصيل رزقه وما يملأ به بطنه.

النوع الثالث من أنواع التوكل: أن تعتمد على السلطان وهو قادر -جعل الله بيده سببا يضرك أو ينفعك-، فاعتمادك عليه لهذا السبب من الشرك الخفي، بل اعتقد أنه سبب فقط، والله هو المسبب، فهو الذي عطف قلبه عليك، وهو الذي ساقه إليك، وقال بعض العلماء: هذا مكروه، وقيل: بل هو من الشرك الخفي.

وقوله: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ الآية [الأنفال: ٢].

﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾ [الأنفال: ٢-٤]: هذا وصف أهل الإيمان الحقيقي؛ فإن الله -سبحانه- وصفهم بخمس صفات، وقد علمت ما دل عليه القرآن من أن المؤمنين لهم الغلبة والعز والسعادة في الدنيا والآخرة إذا اتصفوا بهذه الصفات.

وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤].

في هذه الآية مسألتان:

المسألة الأولى: التنويه بفضل النبي ﷺ وعظيم شرفه؛ فإنك إذا تأملت القرآن وجدت أن الله يخاطب الأنبياء بأسمائهم: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: ٤٦]، ﴿وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱئْتِ ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الشعراء: ١٠]

إلى غير ذلك من الآيات، أما الرسول ﷺ فيخاطبه ربه بوصف الرسالة أو النبوة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ لَا يَحْزُنكَ﴾ [المائدة: ٤١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكَ﴾ [التحريم: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ﴾ [الطلاق: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ ٱتَّقِ ٱللَّهَ﴾ [الأحزاب: ١]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ﴾ [التوبة: ٧٣] إلى غير ذلك، فهذا يدل على التنويه بشرف الرسول ﷺ، فليس في القرآن ولا في موضع واحد: «يا محمد».

وقد جاء ذكره باسمه (محمد) مقرونًا بالرسالة في مقام الإخبار عنه، لا في مقام مخاطبته: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]، ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِ ۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ [الفتح: ٢٩]، ومقرونا بذكر إنزال القرآن عليه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُوا۟ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾ [محمد: ٢]، وفي مقام الإخبار عنه مقرونًا بما يدل على التنويه بفضله وعلو منزلته وشرفه: ﴿مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وهذا يدل على فضل الرسول ﷺ.

المسألة الثانية: التفسير الصحيح لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٤]؛ أي: الله كافيك وكافي أتباعك من المؤمنين، فهو الذي يكفيك بألا يجعل لعدوك فيك طمعا، كما لا يجعل لأعداء المؤمنين طمعا فيهم؛ لأن من كفاه الله ووقاه لا يضره شيء.

وقيل: إن المعنى: يا أيها النبي حسبك الله وحسبك أتباعك من المؤمنين، فكما أن الله كافيك وواقيك، فأتباعك من المؤمنين -أيضًا- كافوك وواقون

لك، وهذا غلط، وقد رده ابن القيم في أول «زاد المعاد»[1] وغيره، وقال: «الكفاية والوقاية التي هي تفسير للحسب لا تكون إلا من الله».

ومما يدل على المعنى الصحيح قوله: ﴿وَإِن يُرِيدُوٓاْ أَن يَخۡدَعُوكَ فَإِنَّ حَسۡبَكَ ٱللَّهُۚ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَيَّدَكَ بِنَصۡرِهِۦ وَبِٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾ [الأنفال: ٦٢]، فجعل التأييد حاصلا من المؤمنين أيضًا، بخلاف الحسب فقد انفرد به الله وحده.

ويدل عليه -أيضًا- قوله تعالى في سورة براءة: ﴿وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ سَيُؤۡتِينَا ٱللَّهُ مِن فَضۡلِهِۦ وَرَسُولُهُۥٓ إِنَّآ إِلَى ٱللَّهِ رَٰغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]، فأضاف الحسب إليه وحده والإيتاء إليه وإلى رسوله ﷺ، والرغبة إليه وحده، هذا هو مقام التوحيد.

وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٣].

المعنى: من يفوض أمره إلى الله ويعتمد عليه فالله كافيه وواقيه وحافظه من أن يصل إليه كيد عدو، أو سوء من أي شخص.

ثم تأمل مسألة أخرى في هذا المقام وهي: أن الله رتب الجزاء في هذه الآية على التوكل فقال: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسۡبُهُۥٓۚ﴾ [الطلاق: ٣]؛ يعني: توكلت عليه، فالله كافيك، بخلاف غير التوكل من الأعمال: (من عمل كذا فله أجر كذا)، كقوله: ﴿مَنۡ عَمِلَ صَٰلِحٗا مِّن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَلَنُحۡيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةٗ طَيِّبَةٗۖ وَلَنَجۡزِيَنَّهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [النحل: ٩٧]، جعل جزاءه أن يحييه حياة طيبة يكتسب بها عملا صالحا.

---

(١) (١/ ٣٧).

وقالها محمد ﷺ حين قالوا له: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدۡ جَمَعُواْ لَكُمۡ فَٱخۡشَوۡهُمۡ فَزَادَهُمۡ إِيمَٰنٗا وَقَالُواْ حَسۡبُنَا ٱللَّهُ وَنِعۡمَ ٱلۡوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣]، وذلك بعد انتهاء غزوة أحد، فقد حصل على المسلمين ما حل لحكمة بالغة: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾ [آل عمران: ١٦٥]؛ أي: بسبب عملكم، وهو أنهم خالفا النبي ﷺ حين أمرهم أن يلزموا جهة الرماة فلما رأوا المشركين انهزموا ذهبوا للغنيمة وتركوا الثغر الذي أمرهم الرسول ﷺ بالمحافظة عليه، فجاءهم المشركون من هذه الجهة وحصل ما حصل، فقتل من قتل مع النبي ﷺ وجرح من جرح، فعاد المشركون إلى مكة، ثم رأوا أن يعودوا إلى المسلمين، فالرسول ﷺ أظهر القوة، وخرج ومعه نحو سبعين راكبا من أصحابه، يريد أن يلحق أبا سفيان، ولما وصل إلى حمراء الأسد، وهي تبعد عن المدينة بنحو ثلاث أميال، جاء وفد من قيس قابلوا أبا سفيان – وكان الله قد ألقى الرعب في قلب أبي سفيان وعاد إلى مكة بعد عزمه على العودة إلى المدينة لاستئصال بقية المسلمين– فقال للوفد: «هل أنتم مبلغو محمد رسالة وإذا رجعتم إلينا نهدي إليكم زبيبا؟».

قالوا: «نعم».

قال: قولوا له: «إنا أجمعنا له كرة لنستأصل بقيتهم» فبلغوا الرسالة للرسول ﷺ، فقال: (حسبنا الله ونعم الوكيل)(١)، فهذه الكلمة هي قول الخليلين: إبراهيم ومحمد عليهما السلام.

---

(١) **ينظر**: جامع البيان لابن جرير الطبري (٦/ ٢٤٦)، تفسير القرآن لابن المنذر (٢/ ٥٠٠).

(٣٣) باب قول الله تعالى:

﴿أَفَأَمِنُواْ مَكْرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]

وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِۦٓ إِلَّا ٱلضَّآلُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سئل عن الكبائر، فقال: «الشرك بالله، واليأس من روح الله، والأمن من مكر الله»(١).

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أكبر الكبائر: الإشراك بالله، والأمن من مكر الله، والقنوط من رحمة الله، واليأس من روح الله» رواه عبد الرزاق(٢).



(١) أخرجه البزار في مسنده (ح: ١٠٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (ح: ٥٢٠١).
(٢) أخرجه معمر في جامعه (ح: ١٩٧٠١)، وعبد الرزاق في تفسيره (ح: ٥٥٦).

شرح: باب قول الله تعالى:

﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]

الأمن من مكر الله هو ضد الخوف، ولا يجوز الأمن من مكر الله، وهو: أن تستبعد أن الله يعذبك، وتستبعد أن الله يسلب نعمه عنك، هذا من الخطأ، فالإنسان ينبغي أن يكون دائما على خوف ووجل، فقد مدح الله الخائفين، قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ هُم مِّنْ خَشْيَةِ رَبِّهِم مُّشْفِقُونَ ۝٥٧ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِ رَبِّهِمْ يُؤْمِنُونَ ۝٥٨ وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ ۝٥٩ وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوا وَّقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَىٰ رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ ۝٦٠ أُولَٰئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ﴾[المؤمنون: ٥٧- ٦١]، فلا ينبغي أن يستبعد الإنسان غضب الله عليه، مع تماديه بالمعصية وعدم صرف هذه النعم في مرضاة الله.

ترى الرجل مقيما على المعاصي وعلى ما يسخط الله، والله ينعم عليه بالصحة وسعة الرزق، هذا هو المكر، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]: الله ينعم عليهم وهم على طغيانهم ومعاصيهم، وعدم التفاتهم إلى الله، هذا هو الأمن من مكر الله، فالإنسان دائر بين الأمرين، إما أن يكون مستقيما مؤتمرا بأمر الله، منتهيا عن نواهيه، مؤديا ما أوجب الله عليه، مبتعدا عن كل ما يسخط الله، أو أن يكون مائلا منحرفا عن الصراط المستقيم، وهو في كلتا الحالتين لابد أن يكون خائفا.

إن كان مائلا عن الحق وفاعلا لشيء من النواهي، أو متساهلا بعدم القيام بما أوجب الله عليه فيجب أن يخاف من أجل انحرافه وميله عن الصراط المستقيم.

وإن كان مستقيما ومعتدلا في أموره، ومؤديا لما أوجب الله عليه فينبغي أن يخاف -أيضًا-؛ لأنه لا يدري بماذا يختم له؟! ولا يعلم هل يبقى على استقامته أو ينحرف؟! فأوجب ذلك له الخوف؛ فالرسول ﷺ كان يقول: «لَا وَمُقَلِّبِ الْقُلُوبِ»(١).

قال قتادة في تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَابَ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّىٰ إِذَا فَرِحُوا بِمَا أُوتُوا أَخَذْنَاهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ﴾ [الأنعام: ٤٤]، قال: «بغت القوم أمر الله، والله ما أخذ الله قوما قط إلا عند أمنهم وسلوتهم»(٢).

ثم هنا أمر آخر وهو: أنه لا ينبغي أن يؤدي الخوف إلى القنوط، فإن أدى إلى القنوط هلك العبد، وإن أمن هلك.

وقوله: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦].

إبراهيم عليه السلام بعدما طعن في السن وكبر جاءته الملائكة وبشرته بأن الله سيرزقه غلاما، فقال: ﴿قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَىٰ أَن مَّسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ ۝٥٤ قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ﴾، الذي لا شك فيه ولا مراء، ﴿فَلَا تَكُن مِّنَ الْقَانِطِينَ﴾ [الحجر: ٥٤- ٥٥]؛ أي: لا تكن من الآيسين، فقال إبراهيم: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]: المخطئون طريق الحق.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٦٦١٧)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

(٢) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (ح: ٧٢٩٤).

وهذا مثل قول زوجه: ﴿قَالَتْ يَٰوَيْلَتَىٰٓ ءَأَلِدُ وَأَنَا۠ عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِى شَيْخًا ۖ إِنَّ هَٰذَا لَشَىْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ﴾ [هود: ٧٢- ٧٣]، فالإنسان لا يقنط من رحمة الله، ولا يأمن من مكر الله، بل يكون دائما بين الخوف والرجاء، إن غلب الرجاء وقع في الأمن من مكر الله، وإن غلب الخوف وقع في القنوط من رحمة الله، بل يجب أن يكون الرجاء والخوف في قلبه مثل جناحي الطائر، ألا ترى أن الطائر إذا طار في الجو تكون أجنحته متقابلة ومتوازية، والله ذكر في محكم القرآن هذا، فقال تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِىٓ أَنِّىٓ أَنَا ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِى هُوَ ٱلْعَذَابُ ٱلْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩- ٥٠]، جمع بين الرجاء والخوف، وفي الآية الأخرى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأنعام: ١٦٥].

عن ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رسول الله ﷺ سئل عن الكبائر، فقال: (الشِّرْكُ بِاللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، وَالأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ)(١).

---

(١) أخرجه البزار في مسنده (ح: ١٠٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (ح: ٥٢٠١) من حديث شبيب بن بشر، عن عكرمة، عن ابن عباس، به مرفوعًا.
ولا يصح، قال البخاري كما في (العلل الكبير ص٣٩٢): «شبيب بن بشر منكر الحديث».
وقال أبو حاتم (الجرح والتعديل ٤/ ٣٥٧): «لين الحديث، حديثه حديث الشيوخ».
وقال -أيضًا- (الجرح والتعديل ٦/ ١٠٤): «ومن تثبت عمر -يعني: ابن الوليد- أن عامة حديثه عن عكرمة فقط، ما أقل ما يجوز به إلى ابن عباس، لا شبه شبيب بن بشير الذي جعل عامة حديثه عن عكرمة عن ابن عباس!».
وذكر ابن حبان شبيبا في الثقات (٤/ ٣٥٩)، ثم قال: «يخطئ كثيرا»، وانفرد ابن معين بتوثيق شبيب. ينظر: تاريخ ابن معين برواية الدوري (٤/ ٨٥).
قال ابن كثير (٢/ ٢٧٩): «في إسناده نظر، والأشبه أن يكون موقوفا». =

قال الله -تعالى-: ﴿إِن تَجْتَنِبُوا۟ كَبَآئِرَ مَا تُنْهَوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَنُدْخِلْكُم مُّدْخَلًا كَرِيمًا﴾ [النساء: ٣١]، وقال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا۟ هُمْ يَغْفِرُونَ﴾ [الشورى: ٣٧]، الكبائر: جمع كبيرة، وهي: كل ذنب ختم بغضب، أو لعنة، أو نار، أو سخط، أو نفي إيمان، كما جاء في الحديث: «لَعَنَ اللهُ السَّارِقَ، يَسْرِقُ الْبَيْضَةَ فَتُقْطَعُ يَدُهُ»[١].

وفي هذا الحديث: أن أكبر الكبائر الإشراك بالله، ويدل على ذلك حديث أبي هريرة في الصحيحين وهو أن رسول الله ﷺ قال: «اجْتَنِبُوا السَّبْعَ الْمُوبِقَاتِ».

قالوا: وما هن يا رسول الله؟

قال: «الشِّرْكُ بِاللهِ...»[٢]، الشرك تنقص لجانب الربوبية، فالله هو خالق هذا العالم، أوجده وتكفل بأرزاق الخلق، المدبر لكل شيء، المستحق وحده للعبادة، والشرك لا يغفره الله أبدا إلا بالتوبة منه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِۦ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨]، والله حرم على المشركين الجنة: ﴿مَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ ٱلْجَنَّةَ وَمَأْوَىٰهُ ٱلنَّارُ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]، ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِٱللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَتَخْطَفُهُ ٱلطَّيْرُ أَوْ تَهْوِى بِهِ ٱلرِّيحُ فِى مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ [الحج: ٣١] إلى غير ذلك.

= وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير(ح: ١٣٠٢٣) بسياق طويل موقوفا على ابن عباس، وإسناده ضعيف -أيضًا-.

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٦٧٨٣)، ومسلم في صحيحه (ح: ١٦٨٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

قال ابن القيم رحمه الله في النونية:

والشرك فاحذره فشرك ظاهر ❁ ذا القسم ليس بقابل الغفران
وهو اتخاذ الند للرحمـ ❁ ـن أيا كان من حجر ومن إنسان
يدعوه أو يرجوه ثم يخافه ❁ ويحبه كمحبة الديان[1]

وضابط الشرك الذي لا يغفره الله هو: تسوية غير الله بالله فيما هو من خصائص الله؛ كالذبح والدعاء والاستغاثة وطلب المدد وسؤال تفريج الكربات وإغاثة اللهفات، كل هذا لا يكون إلا لله، فإذا صرفه لغير الله فقد أشرك؛ لأنه ساوى غير الله به فيما هو من خصائص الله.

وضابط الشرك الأصغر: هو ما ورد في النصوص تسميته شركا، ولم يصل إلى حد الشرك الأكبر.

(واليأس من روح الله): استبعاد عفو الله ورحمته وفضله، يقطع بأن الله لا يغفر له لما ارتكبه من جرائم وما فعله من معاصي وخطايا، هذا لا يجوز، وهو من الكبائر، أنسيت أن الله هو الغفور الرحيم؟! فلا يجوز لك أن تغلب جانب الخوف الذي نتيجته اليأس من روح الله، قال الله -تعالى- حكاية عن يعقوب: ﴿إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، فينبغي أن تخاف ذنوبك وترجو عفو ربك، هذا الذي يجب، ما دمت صحيحا قويا فينبغي أن تغلب جانب الخوف، وإذا كنت مريضا ينبغي أن تغلب جانب الرجاء وحسن الظن بالله -تعالى-، وأنك ستلقى ربا كريما يغفر الذنوب ويستر العيوب.

(١) ينظر: الكافية الشافية (ص ٢٢٠).

(والأمن من مكر الله): بتغليب جانب الرجاء، يفعل الذنوب ويرتكب المعاصي ويفعل الجرائم، ويقول: «الله غفور رحيم»، نعم الله غفور رحيم، ولكن الله قال: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿٤٩﴾ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩- ٥٠].

وعن ابن مسعود رضي الله عنه قال: «أكبر الكبائر: الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَالْأَمْنُ مِنْ مَكْرِ اللهِ، وَالْقُنُوطُ مِنْ رَحْمَةِ اللهِ، وَالْيَأْسُ مِنْ رَوْحِ اللهِ» رواه عبد الرزاق(١).

القنوط: بمعنى اليأس، إلا أن اليأس أشد من القنوط، فاليأس كفر، والقنوط ضلال: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، وقال في اليأس: ﴿إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾ [يوسف: ٨٧]، كما أن الأمن خسارة: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩].



---

(١) أخرجه معمر في جامعه (ح: ١٩٧٠١)، وعبد الرزاق في تفسيره (ح: ٥٥٦)، والطبري في تفسيره (٦/ ٦٤٨)، والطبراني في المعجم الكبير (ح: ٨٧٨٤) من حديث وبرة، عن أبي الطفيل، عن ابن مسعود، وإسناده صحيح كما قال ابن كثير (٢/ ٢٧٩).

(٣٤) باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

وقول الله -تعالى-: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

قال علقمة: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم»[(١)].

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اثنتان في الناس هما بهم كفر: الطعن في النسب، والنياحة على الميت»[(٢)].

ولهما عن ابن مسعود مرفوعا: «ليس منا من ضرب الخدود، وشق الجيوب، ودعا بدعوى الجاهلية»[(٣)].

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إذا أراد الله بعبده الخير عجل له العقوبة في الدنيا، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه حتى يوافى به يوم القيامة»[(٤)].

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: «إن عظم الجزاء مع عظم البلاء، وإن الله -تعالى- إذا أحب قوما ابتلاهم، فمن رضي فله الرضى، ومن سخط فله السخط» حسنه الترمذي[(٥)].

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣/ ١٢)، وابن أبي حاتم - كما في تفسير ابن كثير (٧/ ٢٩١)- والبيهقي في السنن (٤/ ١١٠)، وفي الشعب (ح: ٩٥٠٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٦٧).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ١٢٩٧)، ومسلم في صحيحه (ح: ١٠٣).

(٤) أخرجه الترمذي في جامعه (ح: ٢٣٩٦)، والحاكم في المستدرك (ح: ٤/ ٦٥١).

(٥) أخرجه الترمذي في جامعه (ح: ٢٣٩٦)، وابن ماجه في سننه (ح: ٤٠٣١).

شرح: باب من الإيمان بالله الصبر على أقدار الله

الصبر على أقدار الله هو بحبس النفس عن التشكي، وحبس اللسان عن الجزع، وحبس الجوارح عن شق الثوب ولطم الخد، وما أشبه ذلك.

وقد مدح الله -سبحانه- الصابرين في القرآن، بل ذكر الصبر في نحو تسعين موضعا، قال تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ صَبَرُواْ وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ﴾ [النحل: ٤٢]، وقال تعالى: ﴿ وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ فَإِنَّكَ بِأَعۡيُنِنَاۖ ﴾ [الطور: ٤٨]، والآيات في الحث على الصبر والترغيب فيه كثيرة جدا.

والصبر على ثلاثة أقسام:

الأول: الصبر على طاعة الله؛ كالصلاة والصوم والحج، فالصوم شاق، وكذا الصلاة ترددك إلى المسجد في اليوم والليلة خمس مرات هذا من الصبر على طاعة الله، وكذا الإحسان للفقراء؛ فإن النفس تشح بالمال فجاهدها، وهذا من الصبر على طاعة الله، وكذا الحج وما يعتريه من مشقة وكربة ودفع مال، هو من الصبر على طاعة الله؛ لأن النفس من طبعها أن تميل إلى الترف والكسل وطلب الراحة، وطاعة الله جهاد لابد أن تجهد نفسك عليه، قال الله -تعالى-: ﴿ وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ﴾ [العنكبوت: ٦٩].

الثاني: الصبر عن معاصي الله؛ فالنفس تميل إلى أن تفعل المعصية، وتحب أن تتناول ملذاتها وشهواتها، فيجب أن تمنعها عما حرم الله، تميل النفس إلى تعاطي الربا طلبا لكثرة المال، أو الزنا؛ قد يعرف الإنسان امرأة ويتمكن منها، لكن حال بينه وبينها ما قام في قلبه من تعظيم الله، واطلاع الله عليه، فمنع

نفسه من ارتكاب هذه المعصية، وصبرها رجاء الثواب والأجر من الله، ولما يترتب على ذلك من العذاب، هذا من الصبر عن معاصي الله.

الثالث: الصبر على أقدار الله، فإذا قدر الله عليك مصيبة بأن مات والدك أو لدك أو فقدت مالك بأن سرق فاصبر، واحتسب الأجر من الله، وقل: «ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن»، فترضى بما قدر الله، هذا هو الصبر على أقدار الله، كما قال النبي ﷺ: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[1].

وقول الله -تعالى-: ﴿وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١].

إذا حصلت عليك مصيبة فاعلم أنها بقضاء الله وقدره، وإذا علمت أنك عبد مربوب مملوك لله، فقل: «أنا عبد الله، هو الذي أوجدني وقدر علي هذا، فالحمد لله على ما قضى وقدر»، فإذا قلت هذا فالله يهدي قلبك، ويشرح صدرك، ويجعل قلبك مطمئنا ممتلئا إيمانا.

أما إذا أظهرت الجزع والتشكي والسخط على ما قدر الله، فإنك تخسر مصيبتك والأجر والثواب، وترتكب المعصية، هذا معنى قوله تعالى: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ﴾ [التغابن: ١١]، فما قدر الله عليك من تلف مال أو فقدان عضو من أعضائك أو مرض حل بك فهو بإذن الله؛ ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ [آل عمران: ١٤١]، وليظهر صبرك ورضاك على ما قدر عليك.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٦٦٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾؛ لأن القلب هو المركز الأساسي للآدمي، وهو ملك الأعضاء؛ كما قال النبي ﷺ: «أَلَا وَإِنَّ فِي الْجَسَدِ مُضْغَةً إِذَا صَلَحَتْ صَلَحَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، وَإِذَا فَسَدَتْ فَسَدَ الْجَسَدُ كُلُّهُ، أَلَا وَهِيَ الْقَلْبُ»[1]، فالقلب إذا صبر وامتلأ إيمانا ظهرت آثار ذلك على الجوارح واللسان.

والقلب قطعة لحم، والله – سبحانه وبحمده- أودع في القلب المعرفة، وله اتصال بالدماغ، فالله يقول: ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ ﴾ ثم قال: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴾ [الحج: ٤٦]، وما سمي القلب قلبا إلا لتقلبه، فالله -سبحانه وبحمده- خلقه وأوجده، وجعله ملك الأعضاء، وجعله يميز الأشياء، ويعرف الطريق الموصل إلى الله، والطريق المبعد عن الله، ولهذا إذا سلب الإنسان العقل أصبح لا إثم عليه ولا عقاب، وأصبح معذورا في تركه للصلوات والعبادات وارتكابه المحرمات.

ثم تأمل ختم الآية بقوله: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴾ لم يقل: (والله على كل شيء قدير)، ولا: (والله غفور رحيم)؛ لأن المقام مقام علم، فالله يعلم ما في قلبك، هل أنت راض بما حصل لك من المصيبة؟ فيجازيك ويثيبك ويعوضك خيرا مما فاتك، أو أنت جازع وساخط على ما قدر الله؟! فالله عالم بذلك.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٥٢)، ومسلم في صحيحه (ح: ١٥٩٩) من حديث النعمان بن بشير رضي الله عنهما.

قال علقمة: «هو الرجل تصيبه المصيبة فيعلم أنها من عند الله فيرضى ويسلم»[(١)].

قال علقمة هذا القول مبشرا بهذه الآية، آية التغابن: ﴿ مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَمَن يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُۥ ﴾.

وفي «صحيح مسلم» عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اثْنَتَانِ فِي النَّاسِ هُمَا بِهِمْ كُفْرٌ: الطَّعْنُ فِي النَّسَبِ، وَالنِّيَاحَةُ عَلَى الْمَيِّتِ»[(٢)].

أي: خصلتان في الناس هما بهم كفر، والكفر هنا ليس هو الكفر المخرج من الملة، فليس المراد أن من كانت فيه هاتان الصفتان لا نغسله ولا نصلي عليه ولا يدفن مع المسلمين في مقابرهم، لا، بل ندعو له ونصلي عليه؛ وهذه خصلة من خصال الكفر، وهي مذمومة، لكن لا تخرج من الملة، فالكفر شعب كالإيمان، فليس وجود خصلة من خصال الكفر في الإنسان يجعله كافرا، كما أنه ليس وجود خصلة من خصال الإيمان في العبد يجعله مؤمنا.

ومعلوم أن شعب الإيمان كثيرة، وألف فيها العلماء مؤلفات، كالإمام البيهقي[(٣)]، وجاء في حديث أبي هريرة رضي الله عنه: «الْإِيمَانُ بِضْعٌ وَسَبْعُونَ أَوْ بِضْعٌ وَسِتُّونَ شُعْبَةً، فَأَفْضَلُهَا قَوْلُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إِمَاطَةُ الْأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنَ الْإِيمَانِ»[(٤)].

---

(١) أخرجه ابن جرير (٢٣/ ١٢)، وابن أبي حاتم – كما في تفسير ابن كثير (٧/ ٢٩١)– والبيهقي في السنن (٤/ ١١٠)، وفي الشعب (ح: ٩٥٠٣)، وإسناده جيد.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٦٧).

(٣) في كتابه عظيم النفع: (شعب الإيمان).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٩)، ومسلم في صحيحه (ح: ٣٥).

فليس من أزال الأذى عن الطريق مؤمن، بل فيه خصلة من خصال الإيمان، لكن قد يكون مؤمنا وقد يكون كافرا.

وفي الحديث جاء (الكفر) منكرا في سياق الإثبات، وإذا جاء منكرا في سياق الإثبات فهو الذي لا يخرج من الملة؛ كما في قوله ﷺ: «سِبَابُ الْمُسْلِمِ فُسُوقٌ وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»(١)، وكقوله ﷺ: «لَا تَرْجِعُوا بَعْدِي كُفَّارًا، يَضْرِبُ بَعْضُكُمْ رِقَابَ بَعْضٍ»(٢).

والكفر الناقل عن الملة هو الذي يأتي معرفا - غالبا -، مثل قوله ﷺ: «بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ الْكُفْرِ تَرْكُ الصَّلَاةِ»(٣)، فجاء فيه معرفا، فإذا ترك الصلاة صار كافرا حلال الدم والمال.

(الطعن في الأنساب): هو إظهار العيب، كقوله القائل: «هؤلاء ليسوا من بني فلان، آل فلان ليسوا من بني فلان» من باب الغض عليهم، «فلان ليس من بني تميم، هو من شكل آخر»، يلمح بأنه ليس أصيلا، يريد إظهار العيب في نسبه، هذا لا يجوز، مع أن النسب لا يجدي على المرء شيئا، كما قال النبي ﷺ: «وَمَنْ بَطَّأَ بِهِ عَمَلُهُ لَمْ يُسْرِعْ بِهِ نَسَبُهُ»(٤)، لا فخر إلا بالتقوى، فمجرد النسب مع تخلف الإيمان لا ينفع، فأشرف الناس هم قريش، وأشرف قريش: بنو هاشم،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٤٨)، ومسلم في صحيحه (ح: ٦٤) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ١٢١ - ١٧٣٩ - ١٧٤١ - ١٧٤٢)، ومسلم في صحيحه (ح: ٦٥ - ٦٦ - ١٦٧٩) من حديث جرير وابن عمر وأبي بكرة رضي الله عنهم.
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٨٢) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٦٩٩) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

وهذا أبو لهب من سادات العرب، ومن سادات بني هاشم ما نفعه ذلك: ﴿تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١].

فلا فخر لعربي على عجمي ولا لأبيض على أسود إلا بالتقوى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات: ١٣]، ولا يجوز الطعن في أنساب الناس.

(والنياحة على الميت): هي شق الثوب والجيب، والصراخ، ولطم الخد، وإظهار الجزع، كقول الشخص: «واعضداه، واناصراه، واكاسياه»، هذا لا يجوز؛ لأنه ينافي الصبر.

ولهما عن ابن مسعود مرفوعا: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ»(١).

قوله: (ليس منا): طريقة النووي وغيره التأويل في مثل هذا، فيقول: أي: (ليس من هدينا ولا سنتنا)، لكن الذي عليه الإمام أحمد وسفيان الثوري وغيرهما من سلف الأمة إمرار أحاديث الوعيد وعدم التعرض لتأويلها؛ لأن ذلك أبلغ في الزجر، وأنكى في الردع.

(ضرب الخدود): أي: عند المصيبة، يضرب خده أو وجهه أو صدره، وخص الخدود لأن ضربها هو الأغلب، وليس المراد أنه لو ضرب غير الخد فلا بأس، فلو ضرب الصدر أو الفخذ جزعا بما قدر الله فإنه داخل في ذلك، وقد تبرأ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ١٢٩٧)، ومسلم في صحيحه (ح: ١٠٣).

النبي ﷺ من الصالقة والحالقة[1].

و(الصالقة) هي: التي ترفع صوتها عند المصيبة.

و(الحالقة) هي: التي تحلق شعرها عند المصيبة.

(ودعا بدعوى الجاهلية): المراد بدعوى الجاهلية هنا ما يفعله أهل الميت عند وفاته كقولهم: «واناصراه، واجبلاه، واعضداه» وما أشبه ذلك، هذا من دعوى الجاهلية؛ لأن الإسلام يأمر من ابتلي بالمصيبة أن يصبر ويحتسب: ﴿وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ۝١٥٥ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتۡهُم مُّصِيبَةٞ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيۡهِ رَٰجِعُونَ﴾ [البقرة: ١٥٥- ١٥٦]، بهذا تحصل له صلاة الرب عليه وتحصل له الرحمة: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيۡهِمۡ صَلَوَٰتٞ مِّن رَّبِّهِمۡ وَرَحۡمَةٞۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُهۡتَدُونَ﴾ [البقرة: ١٥٧].

ويدخل -أيضًا- في دعوى الجاهلية: التعصب للمذاهب أو لشيخ معين؛ لأن الناس مأمورون باتباع النبي ﷺ، لا بالدعوة إلى مذاهبهم، والانتصار لها، وتضليل من خالفها؛ فإنه جاء في قصة المهاجري والأنصاري حين كسع المهاجري أنصاريا فضربه الأنصاري فجعل الأنصاري يقول: «يا للأنصار»، والمهاجري يقول: «يا للمهاجرين» قال النبي ﷺ: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟»[2]، مع أن كلا منهم دعا أصحابه بأعلى صفة ذكرها الله بقوله: ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلۡأَوَّلُونَ مِنَ ٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ﴾ [التوبة: ١٠٠]، لكن لما كانت دعوى للعصبية قال ﷺ: «مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ؟».

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ١٢٩٦)، ومسلم في صحيحه (ح: ١٠٤) من حديث أبي موسى رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٣٥١٨)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٥٨٤) من حديث جابر رضي الله عنه.

وكذلك من دعا إلى مذهب معين، كما دعا إلى مذهب الإمام مالك، وقال: «لا يجوز التمذهب إلا بمذهب الإمام مالك، ويجب على الأمة جميعهم أن يتمذهبوا بمذهب مالك» هذا -أيضًا- داخل في دعوى الجاهلية، وقد قال هذا القول القاضي عياض، في كتابه: «ترتيب المدارك وتقريب المسالك»[(١)]، وقد أخطأ -رحمة الله عليه-؛ فإنه لا يجب اتباع أي شخص ما عدا رسول الله ﷺ؛ فإن الناس مأمورون باتباعه وبما جاء به، لا باتباع فلان وفلان.

وعن أنس رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الْخَيْرَ عَجَّلَ لَهُ الْعُقُوبَةَ فِي الدُّنْيَا، وَإِذَا أَرَادَ اللهُ بِعَبْدِهِ الشَّرَّ أَمْسَكَ عَنْهُ بِذَنْبِهِ حَتَّى يُوَافِيَ بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ»[(٢)].

فما يصيب العبد في الدنيا من المصائب هي رحمة له، وتخفيف عنه، ومن علامات توفيق الله وإحسانه ورحمته بعبده أن يعجل عقوبته في الدنيا بابتلائه بشيء من المصائب؛ لأن ذلك تخفيف من سيئاته، وتكفير لذنوبه وخطاياه، وجاء في الحديث: «أَشَدُّ بَلَاءً الْأَنْبِيَاءُ، ثُمَّ الْأَمْثَلُ فَالْأَمْثَلُ، يُبْتَلَى الْعَبْدُ عَلَى

---

(١) ينظر: ترتيب المدارك وتقريب المسالك (١/ ٥٩).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (ح: ٢٣٩٦)، والحاكم في المستدرك (ح: ٤/ ٦٥١)(ح: ٨٧٩٩)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ح: ٣١٦) من حديث سعد بن سنان، عن أنس، به مرفوعا. ولا يصح؛ سعد قال فيه الأمام أحمد: «روى خمسة عشر حديثا منكرة كلها، ما أعرف منها واحدا!». ينظر: الضعفاء للعقيلي (٢/ ١١٨).
وقال النسائي في الضعفاء (ص٥٢): «ليس بثقة»، وذكره الدارقطني في (الضعفاء والمتروكين ٢/ ١٥٦)، وقال الجوزجاني: «أحاديثه واهية، لا تشبه أحاديث الناس عن أنس»، وساق ابن عدي هذا الحديث في ترجمته (الكامل ٤/ ٣٩٢)، وللحديث شواهد لا تخلو من ضعف بل ونكارة.

حَسَبِ دِينِهِ، فَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ صُلْبًا اشْتَدَّ بَلَاؤُهُ، وَإِنْ كَانَ فِي دِينِهِ رِقَّةٌ ابْتُلِيَ عَلَى حَسَبِ دِينِهِ، فَمَا يَبْرَحُ الْبَلَاءُ بِالْعَبْدِ حَتَّى يَتْرُكَهُ يَمْشِي عَلَى الْأَرْضِ، وَمَا عَلَيْهِ مِنْ خَطِيئَةٍ»[(1)]، فهذا يدل على أن الصحة المستمرة الدائمة ليست مدحا ولا خير فيها، «وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه»، بأن كان في صحة وعافية ووفور أرزاق وسلامة أولاد وأهل، فإذا جاء يوم القيامة فإذا عنده من السيئات والخطايا والجرائم الشيء الكثير، ومع هذا لم يصب في الدنيا بما يقتضى تكفير هذه الذنوب، فتبقى عليه، ثم توزن الحسنات والسيئات: ﴿فَمَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٢﴾ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ فَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ خَسِرُوٓاْ أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَٰلِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٢- ١٠٣]، ﴿وَنَضَعُ ٱلْمَوَٰزِينَ ٱلْقِسْطَ لِيَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْـًٔا ۖ وَإِن كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا ۗ وَكَفَىٰ بِنَا حَٰسِبِينَ﴾ [الأنبياء: ٤٧].

وقال النبي ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ» حسنه الترمذي[(2)].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (ح: ١٤٨١)، والترمذي في جامعه (ح: ٢٣٩٨)، وابن ماجه في سننه، واللفظ له (ح: ٤٠٢٣) من طرق عن عاصم بن بهدلة، عن مصعب بن سعد بن أبي وقاص، عن أبيه رضي الله عنه، به مرفوعا.

وإسناده حسن لأجل عاصم -وهو الشهير بابن أبي النجود-، حجة في القراءات، صدوق في الحديث. **ينظر**: الجرح التعديل (٦/ ٣٤٠)، ميزان الاعتدال (٢/ ٣٥٧).

(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (ح: ٢٣٩٦)، وابن ماجه في سننه (ح: ٤٠٣١) من حديث سعد بن سنان، عن أنس، به مرفوعا.

وقد أشار الترمذي إلى إعلاله فقال: «هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه». =

أي: كلما عظم البلاء عظم الجزاء وكثر الأجر، وكلما خف البلاء خف الجزاء؛ فالجزاء من جنس العمل، ﴿وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلۡعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦].

والجزاء الذي يجازيك الله به هو في مقابل حسناتك، والله يعطي الخير والثواب الجزيل دون حسنات، بل يزيدك، ألا ترى أن الله يقول: ﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمۡوَٰلَهُمۡ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتۡ سَبۡعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٖ مِّاْئَةُ حَبَّةٖۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦١]، الحسنة بعشر أمثالها بل إلى سبع مئة ضعف إلى أضعاف كثيرة، رحمة منه وفضلا وجودا وإحسانا، وأما الخطايا التي يرتكبها العبد فالله لا يزيدها: ﴿مَن جَآءَ بِٱلۡحَسَنَةِ فَلَهُۥ عَشۡرُ أَمۡثَالِهَاۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجۡزَىٰٓ إِلَّا مِثۡلَهَا﴾ [الأنعام: ١٦٠]، السيئة لا تتضاعف أبدا بخلاف الحسنة، فإنها تتضاعف فضلا من الله وجودا.

(وإن الله إذا أحب قوما ابتلاهم): حتى إذا جاء يوم القيامة ووقفوا بالحساب وإذا البلاء في الدنيا قد محص خطاياهم: ﴿وَلِيُمَحِّصَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَيَمۡحَقَ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤١].

وفي الحديث دليل على إثبات المحبة لله، خلافا للأشاعرة، فهم ينفون عن الله المحبة، ويقولون: هي ميل قلب المحب إلى المحبوب، والله منزه عن هذا.

فنقول: هذه محبة المخلوق للمخلوق، أما محبة الخالق فنثبتها حقيقة كما أثبتها الله لنفسه، ونحن غير مكلفين بأن نجعلها من جنس محبة المخلوقين، بل

= ينظر: تخريج الحديث السابق، وله شاهد من حديث محمود بن لبيد، رواه الإمام أحمد (ح: ٢٣٦٢٣) وإسناده لا بأس به، أفاده الشيخ سليمان (التيسير ٢/ ١٠٣٣).

نثبتها كما جاءت، دون أن نكيف أو نمثل أو نعطل، ألا ترى أن الله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ويقول: ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ۝٣ وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٣-٤]، نفى عن نفسه الأصل ونفى عن نفسه الفرع، فلا اصل له ولا فرع له -سبحانه-؛ أي: لا ولد له ولا والد، ونفى أن يكون له مثيل أو نديد في أسمائه وصفاته، و(المحبة) من الصفات.

(فمن رضي فله الرضا): الرضا درجة أعلى من الصبر، وقد تكلم بعض العارفين عن هذا، كما أشار إليه العلامة ابن القيم[(١)].

والنبي ﷺ لما مات ابنه إبراهيم فاضت عينه وبكى، فقيل له في هذا، فقال: «إِنَّ العَيْنَ تَدْمَعُ، وَالقَلْبَ يَحْزَنُ، وَلاَ نَقُولُ إِلَّا مَا يَرْضَى رَبُّنَا، وَإِنَّا بِفِرَاقِكَ يَا إِبْرَاهِيمُ لَمَحْزُونُونَ»[(٢)]، والبكاء لا ينافي الرضا، وليس هو من باب الجزع في شيء.

لو قلت: الرسول ﷺ بكى، ونقل عن بعض الزهاد العارفين أنه لما أخبر بوفاة ابنه جعل يضحك، ولم يبك! رضا وتسليما لما قدره الله، فما الجواب؟

قيل: إن الرسول ﷺ بكى؛ لأنه قلبه متسع للبكاء والرضا جميعا، وهذا العارف الذي ضحك لم يتسع قلبه لما اتسع له قلب النبي ﷺ، فلم يستطع أن يجمع

---

(١) ينظر: عدة الصابرين (ص١٠١).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ١٣٠٣)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٣١٥) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

بين الأمرين، فلا يكون حينئذ أعلى درجة ممن بكى عند المصيبة كالنبي ﷺ، هذا معنى ما قاله ابن القيم وغيره[1].



(١) ينظر: مدارج السالكين (٢/ ٢٠٢)، والذي يظهر أن في هذا الجمع ما فيه؛ فإن البكاء والرضا لا يتزاحمان في القلب ليعلل بما ذكر، وفي الضحك عند المصيبة مصادمة للفطرة، وقد بكى عند المصيبة ولم يضحك سيد المرسلين ﷺ؛ بكى على ابنه إبراهيم، وعلى سعد بن عبادة فيما أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ١٣٠٤)، ومسلم في صحيحه (ح: ٩٢٤) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما، وبكى ﷺ لما حمل سبطه ونفسه تقعقع، أخرجه البخاري (ح: ١٢٨٤)، ومسلم (ح: ٩٢٣) من حديث أسامة بن زيد رضي الله عنهما، وخير الهدي هدي محمد ﷺ، وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الفتاوى الكبرى (٥/ ٣٦٢): «ويستحب البكاء على الميت رحمة له، وهو أكمل من الفرح؛ لقوله ﷺ: «هذه رحمة جعلها الله في قلوب عباده» متفق عليه».
فائدة: قال الجاحظ (البخلاء ص٢١): «وأنا أزعم أن البكاء صالح للطبائع ومحمود المغبة إذا وافق الموضع، ولم يجاوز المقدار، ولم يعدل عن الجهة، ودليل على الرقة والبعد عن القسوة، وربما عد من الوفاء وشدة الوجد على الأولياء، وهو أعظم ما تقرب به العابدون، واسترحم به الخائفون».

(٣٥) باب ما جاء في الرياء

وقول الله -تعالى-: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ الآية [الكهف: ١١٠].

عن أبي هريرة مرفوعا: «قال الله -تعالى-: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك معي فيه غيري تركته وشركه» رواه مسلم[١].

وعن أبي سعيد مرفوعا: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟».

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: «الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي، فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل»[٢].



(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٩٨٥).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده مختصرا (ح: ١١٢٥٢)، وابن ماجه في سننه بنحوه (ح: ٤٢٠٤).

شرح: باب ما جاء في الرياء

(الرياء): أن يكون ظاهر العمل لله، ولكن وقر في قلب صاحبه إرادة مدح الناس له وثنائهم عليه، من أجل أن يقول الناس: «فلان كثير قراءة القرآن، كثير الدعاء، كثير الابتهال لله -تعالى-، والاطراح بين يديه»، فإذا وقر في قلبه شيء من هذا، فعمله مردود عليه، لا يقبل الله منه شيئا.

وقول الله -تعالى-: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾ [الكهف: ١١٠].

هذه الآية هي آخر آية في سورة الكهف، ووجه المناسبة في هذا -والله أعلم- هو أن سورة الكهف تضمنت شيئا من أخبار المغيبات التي لا يعلمها إلا الله، مثل قصة أصحاب الكهف، الذين أووا إلى كهفهم، وقصة موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الخضر، ثم قصة ذي القرنين، وهي من الأمور المغيبة التي سأل اليهود عنها رسول الله ﷺ فانقطع الوحي عنه، فحزن، ثم أنزل الله عليه خبرهم؛ لأنه ﷺ قال: «سأخبركم غدا» فجاء الغد وبعد غد فلم يوح إليه، فعاتبه الله بقوله: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣- ٢٤]، ثم بعد أن أخبره الله بهذه المغيبات، قال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا۠ بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰٓ إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ﴾: لا علم لي بهذه الأخبار إلا من قبل الله؛ حيث جاءني الوحي بشأنها[1].

---

(١) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٥/ ٢٢٣).

﴿فَمَن كَانَ يَرْجُوا لِقَآءَ رَبِّهِۦ﴾ [الكهف: ١١٠]: يعتقد أن الله سيبعثه ويجازيه، ﴿فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الكهف: ١١٠]، خالصا مما يشوبه ويبطله، ﴿وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾ [الكهف: ١١٠]، (أحدا): نكرة في سياق النهي فتعم.

هذه الآية دلت على أصلين عظيمين هما ركنا العبادة:

الأول: تجريد الإخلاص لله -تعالى-، فلا تريد بعملك إلا وجه الله.

الثاني: متابعة رسول الله ﷺ.

فإن كان عملك خالصا لله لكن لم يكن على سنة رسول الله ﷺ فهو مردود عليك.

عن أبي هريرة مرفوعا: «قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: أَنَا أَغْنَى الشُّرَكَاءِ عَنِ الشِّرْكِ، مَنْ عَمِلَ عَمَلًا أَشْرَكَ فِيهِ مَعِي غَيْرِي، تَرَكْتُهُ وَشِرْكَهُ» رواه مسلم[(١)].

الله غني عنك وعن عملك، فكيف تجعل هذا المخلوق شريكا لله في هذا العمل؟! تقصد ثناءه عليك ومدحه لك؟! تجعله شريكا لمن له الكمال التام والرحمة التامة والغنى التام؟! تصدقت من أجل أن يقول الناس عنك: «فلان فيه خير، يحسن ويحب الإحسان، ويعطف على الفقراء»، أو صليت فجعلت تطيل الركوع أو السجود لأجل نظر شخص إليك!، هذا إما يبطل العمل أو ينافي كماله على الخلاف الذي أشار إليه الشارح[(٢)].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٩٨٥).

(٢) ينظر: تيسير العزيز الحميد (٢/ ١٠٥٤).

وعن أبي سعيد مرفوعا: «ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال؟».

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: «الشرك الخفي، يقوم الرجل فيصلي، فيزين صلاته لما يرى من نظر رجل»[1].

الشرك الخفي: هو الذي خافه الرسول ﷺ على أمته وما ذاك إلا لعظم البلاء به، والرسول ﷺ بينه وفسره بقوله: (يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته): يطيل ركوعها وسجودها وقيامها من أجل نظر رجل إليه، لا لأجل ما وقر في قلبه من الخشوع والخضوع لله، واستحضار عظمة من قام بين يديه، وتهيأ لخدمته.

وإذا كان الرسول ﷺ خافه على أصحابه مع علمهم وجلالتهم وقوة الإيمان في قلوبهم وأخذهم العلم عن الرسول ﷺ فما ظنك بغيرهم؟!

ففتنة المسيح الدجال وإن كانت عظيمة، وقد أمرنا النبي ﷺ أن نستعيذ من فتنته في صلواتنا دائما، ففي «صحيح مسلم»: «إِذَا تَشَهَّدَ أَحَدُكُمْ فَلْيَسْتَعِذْ بِاللهِ

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده مختصرا (ح: ١١٢٥٢)، وابن ماجه في سننه بنحوه (ح: ٤٢٠٤)، والطحاوي في شرح المشكل مختصرا (٥/ ٣٥)، والحاكم في المستدرك مختصرا (٤/ ٣٦٥)، والبيهقي في الشعب مختصرا (ح: ٦٤١٣) من طريق كثير بن زيد، عن ربيح بن عبد الرحمن بن أبي سعيد الخدري، عن أبيه، عن جده، به مرفوعا.

كثير بن زيد فيه لين. ينظر: الميزان (٣/ ٤٠٤)، وربيح قال فيه الإمام أحمد: «ليس بمعروف»، وقال البخاري: «منكر الحديث». ينظر: العلل الكبير (ص٣٣)، الكامل (٤/ ١١٠).

قال الشيخ سليمان (٢/ ١٠٥٧): «في سنده ضعف».

مِنْ أَرْبَعٍ يَقُولُ: اللهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ مِنْ عَذَابِ جَهَنَّمَ، وَمِنْ عَذَابِ الْقَبْرِ، وَمِنْ فِتْنَةِ الْمَحْيَا وَالْمَمَاتِ، وَمِنْ شَرِّ فِتْنَةِ الْمَسِيحِ الدَّجَّالِ»[1].

مع هذا خاف الرسول ﷺ على أمته من الرياء أكثر من خوفه عليهم من فتنة الدجال؛ وذلك لأن فتنة الدجال ظاهرة مكشوفة، ومكتوب بين عينيه (كافر)، أما الرياء فهو عمل خفي، لا يعلم به أحد إلا المرائي نفسه، والرب المطلع على ذلك.

وهكذا في سائر العبادات؛ -فمثلا- الإنسان يتعلم العلم الشرعي الذي هو من أجل الطاعات وأعظم القربات وهو أفضل من نوافل العبادات، وهو ميراث النبي ﷺ، وقد مدح الله العلماء في القرآن، وقرن شهادتهم بشهادته، لكن إذا وقر في قلبه أن يتعلم لأجل ثناء الناس، أو ليقال: «فلان متعلم، فلان عنده معلومات كثيرة...» بطل عمله، فمجرد أن فسدت نيته فسد عمله، وأي خسارة أعظم من هذه الخسارة؟! هلا أخلصت عملك لله؟! فهذا المخلوق لا يدري عنك، ولا يعلم أنك تقصده ويتصور أن عملك لله، ومع هذا صرفته له، وخسرت الأجر العظيم، وهذه العبادة العظيمة ذهبت عليك من غير منفعة ومن غير أجر، وذهب عناؤك وتعبك سدى، لمجرد ما وقر في قلبك من إرادة مدح الناس والثناء عليك، والله -سبحانه- قال آمرا نبيه: ﴿قُلِ ٱللَّهَ أَعۡبُدُ مُخۡلِصٗا لَّهُۥ دِينِي ١٤ فَٱعۡبُدُواْ مَا شِئۡتُم مِّن دُونِهِۦۗ﴾ [الزمر: ١٤- ١٥]، وقال: ﴿وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ﴾ [البينة: ٥]، فلابد من الإخلاص، وإلا فعملك لا يقبله الله، وهو

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٥٨٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وأخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٨٣٢)، ومسلم في صحيحه (ح: ٥٨٩) من حديث عائشة من فعله ﷺ دون أمره.

-سبحانه- غني عن عبادتك وطاعتك، وإنما المصلحة في ذلك لك، ولكنك أفسدت ثوابها لما وقر في قلبك من تلك النية السوداء، من نيل وظيفة أو دنيا أو صرف وجوه الناس إليك.

فعلى الإنسان إذا وقر في نفسه شيء من هذا أن يستحضر دناءة الدنيا وخساستها، ويستحضر هذا العمل العظيم كيف يتلفه وكيف يذهب سهر الليل دون أجر؟!

فمن أراد مدح الناس أو ثناءهم أو رياسة أو غير ذلك، فحكم حكم من باع جوهرة نفيسة ببعرة، وإذا أراد الإنسان بعمله الدنيا فحكمه يأتي في الباب الذي بعد هذا الباب وهو: (باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا).

وفي الحديث: أن الرياء لا يكاد يسلم منه أحد؛ فإن الرسول ﷺ خافه على أفاضل أصحابه، فما ظنك بغيرهم؟!

وفيه: أن فتنة الدجال فتنة عظيمة، وقد تكاثرت النصوص في فتنة الدجال، وأنه يخرج آخر الزمان، ويقتله عيسى ابن مريم، أو يقتله المهدي بمساعدة عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ.

وخروج المهدي في آخر الزمان يذكره سلفنا الصالح في عقائدهم، ولا عبرة بمن أنكر خروج المهدي؛ فإن كثيرا من العصريين أنكروا خروج المهدي، وألف الشوكاني رسالة سماها: «التوضيح في تواتر ما جاء في المنتظر والدجال والمسيح»، وذكر أن الأحاديث بلغت حد التواتر المعنوي، وقال: «إن في المهدي خمسين

حديثا عن النبي ﷺ وثمانية وعشرين أثرا، كلها تدل على خروجه»[1].

وكافة أهل العلم من أتباع الأئمة الأربعة وسلفنا الصالح يقولون بخروج المهدي آخر الزمان، وجاءت فيه أحاديث كثيرة، منها: أحاديث صحيحة، وأحاديث حسنة، وأحاديث ضعيفة، لكن بمجموعها تبلغ حد التواتر المعنوي، وإن كان البخاري ومسلم لم يخرجاها، لكن لا يلزم من عدم تخريج البخاري ومسلم لأحاديث المهدي أنها ليست صحيحة، فكثير من أحاديث الأحكام وأحاديث العقائد لم يخرجها البخاري ولا مسلم، ومع هذا تلقتها الأمة بالقبول؛ لأنه وجد في القرآن ما يؤيدها، أو لكثرة طرقها، فالبخاري قد يكون الحديث عنده صحيحا لكن لا يخرجه في «صحيحه»؛ لأنه ليس على شرطه.

فمن أهم شروط البخاري أن يكون رواة الحديث ثقات لا مغمز فيهم ولا مطعن، وأن يثبت اللقاء بينهم، ولا يكتفي بالمعاصرة، بل لابد من أن يصرح باللقاء، أما مسلم فيكتفي بمجرد المعاصرة، والله أعلم.

---

(١) **ينظر**: الإذاعة لما كان ويكون بين يدي الساعة (ص١٥٠)، وقد قال السفاريني:

وما أتى في النص من أشراط ... فكله حق بلا شطاط

منها الإمام الخاتم الفصيح ... محمد المهدي والمسيح

قال رَحِمَهُ اللَّهُ في شرح البيتين (لوامع الأنوار ٢/ ٨٢): «قد كثرت الأقوال في المهدي حتى قيل: لا مهدي إلا عيسى، والصواب الذي عليه أهل الحق: أن المهدي غير عيسى، وأنه يخرج قبل نزول عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وقد كثرت بخروجه الروايات حتى بلغت حد التواتر المعنوي، وشاع ذلك بين علماء السنة حتى عُد من معتقداتهم».

(٣٦) باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

وقول الله -تعالى-: ﴿ مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُواْ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴾ الآيتين [هود: ١٥- ١٦].

وفي «الصحيح» عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع»[١].



(١) أخرجه البخاري في صحيحه بنحوه (ح: ٢٨٨٦).

شرح: باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله الدنيا

هذه الترجمة ليست تكرارا للباب السابق؛ فإن الباب السابق هو في موضوع الرياء، أن يعمل الإنسان عملا ظاهره لله ويقصد ثناء فلان أو مدحه، وهذا يبطل العمل الذي قارنه، وهذه الترجمة هي أن يعمل عملا لا لله، بل لأجل الدنيا، ليس لأجل مدح المخلوقين وثنائهم، والمكانة في نفوسهم، بل لأجل الدنيا، ففرق بين الترجمتين، وكلا الأمرين محبط للعمل، وصاحبه خاسر؛ لأنه قد تقدم لنا أن العبادة تنبني على أصلين: الإخلاص، والمتابعة.

فمن تعلم العلم لأجل أن يكون مدرسا أو لينال وظيفة أو ليكون قاضيا فالله لا يقبل هذا العمل منه؛ لأنه لم يقصد به وجه الله.

وقول الله -تعالى-: ﴿مَن كَانَ يُرِيدُ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الآيتين [هود: ١٥- ١٦].

من كان يريد بتعلمه العلم الحياة الدنيا من منصب أو جاه أو وظيفة نعطه ما طلب: ﴿نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَٰلَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ﴾: لا ينقصون، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِى ٱلْآخِرَةِ إِلَّا ٱلنَّارُ ۖ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا۟ فِيهَا وَبَٰطِلٌ مَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾؛ لتخلف الإخلاص، وورد في الحديث أن النبي ﷺ قال: «إِنَّ أَوَّلَ النَّاسِ يُقْضَى يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَيْهِ رَجُلٌ اسْتُشْهِدَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: قَاتَلْتُ فِيكَ حَتَّى اسْتُشْهِدْتُ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ قَاتَلْتَ لِأَنْ يُقَالَ: جَرِيءٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ تَعَلَّمَ

الْعِلْمَ، وَعَلَّمَهُ وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: تَعَلَّمْتُ الْعِلْمَ، وَعَلَّمْتُهُ وَقَرَأْتُ فِيكَ الْقُرْآنَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ تَعَلَّمْتَ الْعِلْمَ لِيُقَالَ: عَالِمٌ، وَقَرَأْتَ الْقُرْآنَ لِيُقَالَ: هُوَ قَارِئٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ حَتَّى أُلْقِيَ فِي النَّارِ، وَرَجُلٌ وَسَّعَ اللهُ عَلَيْهِ، وَأَعْطَاهُ مِنْ أَصْنَافِ الْمَالِ كُلِّهِ، فَأُتِيَ بِهِ فَعَرَّفَهُ نِعَمَهُ فَعَرَفَهَا، قَالَ: فَمَا عَمِلْتَ فِيهَا؟ قَالَ: مَا تَرَكْتُ مِنْ سَبِيلٍ تُحِبُّ أَنْ يُنْفَقَ فِيهَا إِلَّا أَنْفَقْتُ فِيهَا لَكَ، قَالَ: كَذَبْتَ، وَلَكِنَّكَ فَعَلْتَ لِيُقَالَ: هُوَ جَوَادٌ، فَقَدْ قِيلَ، ثُمَّ أُمِرَ بِهِ فَسُحِبَ عَلَى وَجْهِهِ، ثُمَّ أُلْقِيَ فِي النَّارِ»[(١)].

فالعمل لغير وجه الله باطل، ولا يثاب صاحبه عليه، فإن كانت أعماله كلها على هذا فهذا خالد مخلد في النار، فإن كانت عنده أعمال أخرى أخلصها لوجه الله فهي منجية له من النار.

وفي «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «تعس عبد الدينار، تعس عبد الدرهم، تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط سخط، تعس وانتكس، وإذا شيك فلا انتقش، طوبى لعبد آخذ بعنان فره في سبيل الله، أشعث رأسه، مغبرة قدماه، إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة، إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع»[(٢)].

(تعس عبد الدينار): هذا دعاء عليه، بأن الله يعكس عليه أموره، ولا ييسر

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ١٩٠٥) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه بنحوه (ح: ٢٨٨٦).

له من أموره شيئًا؛ لأنه لم يكن عبدًا، وإنما كان عبدًا للدينار والدرهم؛ أي: إن جاهد لم يكن جهاده لإعلاء كلمة الله، إنما قصد الدرهم والدينار، فصار حينئذ عبدًا للدينار والدرهم، وإنما عبد الله على الحقيقة هو الذي يسعى في مراضي الله، ويبتعد عما نهى الله عنه، أما عبد الدرهم والدينار فهو الذي يبذل مهجته ويسعى بكل قواه في تحصيل الدرهم والدينار حتى ولو بالأعمال الصالحة التي ظاهرها لله، وهذا وجه مطابقة الحديث للترجمة.

و(الدينار): مثقال من الذهب مضروب، وأول من ضرب الدينار في الإسلام: عبد الملك بن مروان، وكتب على أحد الوجهين: «ضرب في عهد أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان»، وفي الوجه الثاني: سورة الإخلاص[1]، والدينار هو الذي يذكره الفقهاء في كتبهم في الزكاة، وفي الكفارات؛ كقولهم: «ويحرم وطء الحائض فإن فعل فعليه دينار، أو نصفه»، ومقداره بالجنيه المعروف المتعامل به الذي يسمونه: (الجنيه الفرنسي)، أو: (الجنيه السعودي): أربعة أسباع جنيه.

و(الدرهم) هو: نقد من الفضة، مقداره: نصف دينار وخمس؛ أي: سبعة أعشار مثقال.

(تعس عبد الخميصة) هي: كساء من خز معلم.

قال تعالى في شأن المنافقين: ﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّاتَّبَعُوكَ وَلَٰكِن بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ الشُّقَّةُ ۚ وَسَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَوِ اسْتَطَعْنَا لَخَرَجْنَا مَعَكُمْ يُهْلِكُونَ أَنفُسَهُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾ [التوبة: ٤٢]، لو يحصل لهم عرض من

---

(١) ينظر: تاريخ الإسلام (٢/ ٩٧٠).

الدنيا لبادروا وجاهدوا من أجل تحصيله، وفي الآية الأخرى: ﴿ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَـٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَـٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴾ [التوبة: ٥٧- ٥٨]، هذا شأن المنافقين، هم عبيد الدنيا لم يجاهدوا لأجل أن تكون كلمة الله هي العليا ودينه ظاهرا، ولم يعملوا عملا صالحا يقصدون به وجه الله، وإنما قصدهم الدرهم والدينار وعرض الدنيا.

(تعس وانتكس): قلبه الله على وجهه، بل على أم رأسه، يقال: «انتكس الإنسان»: إذا صارت رجلاه أعلى، ورأسه أسفل، كناية عن أن يقلب عليه الله أموره، ويعكسها عليه، وألا يمكن له منها شيئا.

(وإذا شيك فلا انتقش): أي: إذا أصابته شوكة في رجله فلا هيأ الله ولا يسر له من ينقشها من رجله، كناية عن تعسر أموره وعدم تيسرها؛ لأنه يطلب بعمله الدنيا.

(طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه): قيل إن (طوبى) شجرة بالجنة، يسير الراكب في ظلها خمس مئة عام، وقيل هي: الراحة والطمأنينة، مثل قوله تعالى: ﴿ مَنْ عَمِلَ صَـٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً ۖ وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [النحل: ٩٧].

(أشعث رأسه، مغبرة قدماه): ديدنه الجهاد في سبيل الله، يقاتل لأجل أن تكون كلمة الله هي العليا، ودينه هو الظاهر، عملا بقوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَـٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ [الصف: ٤]، لا

يعرف، عبد تقي خفي، بذل مهجته لله وقاتل في سبيل الله، لا يعرفه قائد، ولا يعرفه خليفة، بل أشعث رأسه، مغبرة قدماه من الجهاد.

(إن كان في الحراسة كان في الحراسة، وإن كان في الساقة كان في الساقة)؛ يعني: أن هذا الرجل الذي هذه حالته يكون في الثغور في المقدمة أو المؤخرة.

(إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع)؛ لأنه لا جاه له، هذا عبد الله على الحقيقة، إنما كان يقاتل لأجل الله، وهذا مثل قوله ﷺ: «رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»(١)، إنسان عليه ثوب خلق، ولا يعرف ومع هذا لو أقسم على الله لأجابه.



(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.



(٣٧) باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أربابا من دون الله

وقال ابن عباس: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!»(١).

وقال الإمام أحمد: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلى رأي سفيان، والله -تعالى- يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، أتدري ما الفتنة؟! الفتنة: الشرك؛ لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك»(٢).

عن عدي بن حاتم: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ الآية [التوبة: ٣١]، فقلت له: إنا لسنا نعبدهم.

قال: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟!».

فقلت: بلى.

قال: «فتلك: عبادتهم» رواه أحمد والترمذي وحسنه(٣).

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده بمعناه (ح: ٣١٢١)، والبزار في مسنده (ح: ٥٠٥٢).

(٢) نقله ابن تيمية من مسائل الفضل بن زياد في الصارم المسلول (ص٥٦).

(٣) أخرجه الترمذي في جامعه بنحوه (ح: ٣٠٩٥).

شرح: باب من أطاع العلماء والأمراء في تحريم ما أحل الله أو تحليل ما حرم الله فقد اتخذهم أربابا من دون الله

أراد المصنف رحمه الله بهذه الترجمة التنبيه على الرجوع إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله ﷺ، وألا يقبل قول قائل مهما كانت مكانته ومهما كان علمه إلا إذا وافق الكتاب والسنة، وأقوال العلماء في هذا المعنى كثيرة، بل والآيات القرآنية تدل على هذا، قال تعالى في وجوب الرد إلى الكتاب والسنة وأن من قبل قول أي شخص لم يدل عليه كتاب ولا سنة فإنه متبع لهواه، قال الله -سبحانه-: ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَكَ فَٱعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ ۚ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ ٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ بِغَيْرِ هُدًى مِّنَ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [القصص: ٥٠]، فقسم الأمر في هذه الآية إلى قسمين لا ثالث لهما: إما الاستجابة لرسول الله ﷺ، وإما اتباع الهوى، والاستجابة للرسول ﷺ تتضمن الاستجابة للقرآن؛ لأن الرسول أمر باتباع القرآن، قال الله: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ﴾ [الأعراف: ٣]، وقال: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا﴾ [النساء: ٦٥].

وكان سلفنا الصالح إذا سئلوا جعلوا يتدافعون الفتوى حتى ترجع إلى الأول، كل ذلك توقيا من الفتوى؛ لعظم شأنها؛ خشية أن يزل ويغلط فيكون مخالفا لما دل عليه القرآن والسنة النبوية، فاتباع قول فلان وفلان مع مخالفتهما للقرآن والسنة هو ضلال بعيد، واتباع للهوى، قال تعالى:

﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، فسماه شركا.

وقال ابن عباس: «يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله ﷺ، وتقولون: قال أبو بكر وعمر؟!»(١).

كان ابن عباس يرى أن متعة الحج واجبة، وآخرون يرون أنها غير جائزة، وكان يستدل على هذا الرأي بالأحاديث الثابتة عن النبي ﷺ حين قدم مكة حاجا ومعه أصحابه؛ فإنه أمر كل من لم يسق الهدي أن يتحلل بعمرة، فكأنهم تأخروا، فقال ﷺ: «لَوِ اسْتَقْبَلْتُ مِنْ أَمْرِي مَا اسْتَدْبَرْتُ مَا أَهْدَيْتُ، وَلَوْلَا أَنَّ مَعِي الْهَدْيَ لَأَحْلَلْتُ»(٢)، فحلوا، وقالوا: يا رسول الله، ألعامنا هذا أم للأبد؟

قال: «لَا بَلْ لِأَبَدِ أَبَدٍ»(٣).

وكان أبو بكر وعمر يريان الإفراد؛ لأجل أن ينشئ سفرا للعمرة وسفرا آخر للحج، فلا يجمع بين نسكين في سفر واحد، فقال ابن عباس: (يوشك أن

---

(١) أخرجه بمعناه أحمد في مسنده (ح: ٣١٢١)، والبزار في مسنده (ح: ٥٠٥٢)، وابن حزم في حجة الوداع (ح: ٣٩١)، وابن عبد البر في جامع بيان العلم (٢/ ١٢١٠)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١/ ٣٧٦)، واشتهر باللفظ الذي ذكره المصنف عن شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم -رحمهما الله.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ١٧٨٥- ٧٢٢٩)، ومسلم في صحيحه (ح: ١٢١١- ١٢١٦) من حديث جابر بن عبد الله وعائشة رضي الله عنهما.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ١٢١٨) من حديث جابر رضي الله عنه.

تنزل عليكم حجارة من السماء، أقول: قال رسول الله، وتقولون قال أبو بكر وعمر؟!).

وقد اختلف العلماء في متعة الحج، فالحنابلة يرون أن التمتع هو الأفضل[١]، وابن القيم قرر في (الهدي) أنه لابد أن يتحلل بعمرة، وقال: «أنا إلى قول ابن عباس -وهو الوجوب- أميل مني إلى قول شيخنا -يعني: ابن تيمية-»[٢]؛ لأن ابن تيمية يرى أنه للاستحباب[٣].

فلا قول لأحد مع قول رسول الله ﷺ، وأما هذه الكتب المؤلفة لا نقول لا ينبغي أن تقرأها، لا بأس بقراءتها وحفظها؛ لأنها تدلك على أحكام المسائل الواقعية، وتدلك على استنباط المسائل من الأحاديث، وتدلك على قوة الفهم، بحيث تستطيع استخراج المسائل من الأحاديث، لكن لا يجوز لك أن تجعلها بمنزلة القرآن والسنة، وأن ما قالوه يجب اتباعه، حتى نفس المؤلفين لم يريدوا هذا، وإنما أرادوا تقريب المسائل، أو تقرير قواعد مذهبهم؛ كما وقع لشارح «الإقناع» وصاحب «الروض المربع» الشيخ منصور البهوتي؛ فإنه قدم إلى مكة حاجا وقد فرغ من شرح «الإقناع» و«المنتهى»، فتقدم سائل سأل مفتي المالكية بمكة فكتب له جوابا، ثم عرض سؤاله على مفتي الحنفية فكتب جوابا، ثم عرض سؤاله على مفتي الشافعية فكتب جوابا، ثم عرض سؤاله على الشيخ منصور

---

(١) **ينظر**: الإقناع (١/ ٥٦٠)، وشرح المنتهى (٢/ ٤٤٦).
(٢) **ينظر**: زاد المعاد (٢/ ١٨٠).
(٣) **ينظر**: مجموع الفتاوى (٢٦/ ٣٣- ٤٩).

وكان حاجا فكتب جوابا، ثم عرض ذلك على مفتي الحنابلة بمكة فكتب جوابا، وقال ما معناه: «ما أفتى به الشيخ منصور بن يونس البهوتي خالف فيه ما قرره في «كشاف القناع» و«شرح المتنهى»، وخالف فيه مذهبه»، ثم أعاد السائل ذلك إلى الشيخ منصور، فلما رأى اعتراض شيخ الحنابلة عليه كتب عبارة – في الحقيقة هي لا تليق، لكن هذه عبارته –قال: «بسم الله الرحمن الرحيم، ألا قل لثور المدار: أني إذا صنفت مشيت على قواعد مذهبي، وإذا أفتيت ذكرت الوقوف بين يدي ربي»؛ أي: أن تأليفه ما هو إلا على قواعد المذهب، وأصول المذهب.

وأسباب خلاف العلماء معروفة، والعلماء مختلفون في مسائل كثيرة، بل مسائل الإجماع قليلة جدا، ولكن كلهم مجتهدون، إما مصيبون فلهم أجران، وإما مخطئون فلهم أجر واحد على اجتهادهم.

ومن أسباب الخلاف: أن المخالف لم يبلغه الحديث، أو بلغه لكن يرى أنه غير صحيح، أو يراه صحيحا ولكن يرى أنه منسوخ، أو يرى أن الحديث لا يدل على هذه المسألة- وهذا أكثر أسباب الخلاف وقوعا بين العلماء-، فهؤلاء يستدلون بالحديث بناء على أن فيه دلالة على هذه المسألة، والآخرون يقولون: لا دلالة فيه على هذه المسألة، فكلهم مجتهدون، وقد اختلف في زمن الرسول ﷺ ولم ينكر على أحد منهم؛ فإنه قال بعد الفراغ من غزوة الخندق: «لَا يُصَلِّيَنَّ أَحَدٌ الْعَصْرَ إِلَّا فِي بَنِي قُرَيْظَةَ»[1]، فبعض الصحابة أخذ بظاهر اللفظ، فذهب إلى بني قريظة ولم يصل إلا في آخر الوقت، والآخرون قالوا: لم يرد الرسول ﷺ هذا،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٩٤٦)، ومسلم في صحيحه (ح: ١٧٧٠) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

وإنما أراد الحث على المبادرة إلى الخروج، ولم يرد إيقاع الصلاة في بني قريظة، فصلوا في الطريق، ثم أخبرا النبي ﷺ بذلك فلم يعنف على أحد منهم، فهؤلاء أخذوا بظاهر اللفظ، والآخرون أخذوا بالمعنى والقصد.

وكذلك كما في حديث أبي سعيد رضي الله عنه قال: خرج رجلان في سفر فلم يجدا ماء فتيمما فصليا ثم وجدا الماء فأعاد أحدهما الصلاة والوضوء ولم يعد الآخر، فأتيا رسول الله ﷺ فأخبراه، فقال للذي لم يعد: «أَصَبْتَ السُّنَّةَ»، وقال للذي أعاد: «لَكَ الْأَجْرُ مَرَّتَيْنِ»(١).

فبهذا يتضح أن الاجتهاد في المسائل الفرعية لا حرج فيه، ما دام أن كلا منهم يطلب الحق، وعندما لا يتضح لهم في المسألة دليل لا يقيسون، بل يتوقفون ويقولون: (الله أعلم)، كما وقع للقاسم بن محمد بن أبي بكر – ابن

---

(١) أخرجه الدارمي في سننه (ح: ٧٧١)، وأبو داود في سننه (ح: ٣٣٨)، والنسائي في سننه (ح: ٤٣٣)، والدارقطني سننه (ح: ٧٢٧)، والحاكم في المستدرك (١/ ٣٨٦) (ح: ٦٣٢)– ومن طريقه البيهقي (١/ ٣٥٣)– من حديث عبد الله بن نافع، عن الليث بن سعد، عن بكر بن سوادة، عن عطاء بن يسار، عن أبي سعيد الخدري، به مرفوعا.
اختلف فيه على الليث، فرواه ابن المبارك – كما عند النسائي (ح: ٤٣٤)، والدارقطني (ح: ٧٢٨)–، ويحيى بن بكير– كما عند الحاكم (١/ ٢٨٦)، والبيهقي (١/ ٣٥٣) – عن الليث، عن عميرة بن أبي ناجية، عن بكر بن سوادة، عن عطاء بن يسار، عن النبي ﷺ مرسلا.
وهما أثبت من ابن نافع وأوثق؛ فانكشفت بذلك علتان للخبر: الانقطاع، والإرسال، إلا أن رواية الدارقطني ليس فيها ذكر عميرة، والحديث قد أعله أبو داود بعد إخراجه، فقال: «غير ابن نافع يرويه عن الليث، عن عميرة بن أبي ناجية، عن بكر بن سوادة، عن عطاء بن يسار، عن النبي ﷺ، وذكر أبي سعيد ليس بمحفوظ، وهو مرسل»، وكذلك أعله الدارقطني، والبيهقي.

أخي عائشة-؛ فإنه كان جالسا في منى، يسأله الناس عن مناسك الحج -وهو فقيه الحجاز-، فتقدم إليه رجل فسأله فقال القاسم: «لا أحسن مسألتك!».

قال السائل: أنت القاسم بن محمد بن أبي بكر، فقيه الحجاز، الذي يقول الناس فيه: «لم يبق أحد على وجه الأرض أعلم من القاسم بن محمد»، وتقول: لا أحسن مسألتك؟!

فقال القاسم: «يا ابن أخي، أغرك طول لحيتي؟! أغرك اجتماع الناس حولي؟! والله لا أحسن مسألتك!»(١).

وقال الإمام أحمد: «عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته، يذهبون إلى رأي سفيان، والله -تعالى- يقول: ﴿فَلْيَحْذَرِ ٱلَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِۦٓ أَن تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]، أتدري ما الفتنة؟! الفتنة: الشرك؛ لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك»(٢).

(عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته)؛ أي: لا عذر لهم، بل عرفوا الحديث وصحته ومع هذا يذهبون إلى رأي سفيان بن سعيد الثوري.

(أتدري ما الفتنة؟! الفتنة: الشرك): لأنه إذا أطاع غير الرسول ﷺ في الحلال والحرام دون دليل فقد أشرك، قال الله -تعالى-: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعْبُدُوٓاْ إِلَٰهًا وَٰحِدًا لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [التوبة: ٣١]، فدل على أن

---

(١) أخرجه مسلم نحوه في المقدمة (١/ ١٢).

(٢) نقله ابن تيمية من مسائل الفضل بن زياد في الصارم المسلول (ص٥٦).

طاعتهم في التحليل والتحريم دون دليل شرك، وكذلك جاء مثل قول الإمام أحمد عن الإمام الشافعي حيث قال: «أجمع العلماء على أن من استبانت له سنة رسول الله ﷺ، لم يكن له أن يدعها لقول أحد من الناس كائنا من كان»[(١)].

والإمام مالك رحمه الله يقول: «ما منا إلا راد ومردود عليه إلا صاحب هذا القبر»- يعني رسول الله ﷺ، ويقول: «لن يصلح هذه الأمة إلا بما صلح به أولها»[(٢)]، وهو: الكتاب والسنة.

والإمام أبو حنيفة رحمه الله يقول: «إذا صح الحديث فخذوا به واضربوا بقولي عرض الحائط، وإذا صح عن الصحابة الأثر فخذوا به واضربوا بقولي عرض الحائط، وإذا كان من التابعين فهم رجال ونحن رجال»[(٣)]، هذا قول الأئمة الأربعة، كلهم يأمرون برد أقوالهم وألا يعتمد شيء منها متى ما خالفت القرآن والسنة أو خالفت قول الصحابة رضي الله عنهم؛ لأنهم رضي الله عنهم أعلم الناس بالتنزيل، وأعلم الناس بأحاديث رسول الله ﷺ، ولما ورد في فضلهم وفضل علمهم.

لكن قد تقول: ما معنى قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ [النساء: ٥٩]، إذا كان (أولو الأمر) هم: العلماء والأمراء -على ما رجحه ابن القيم[(٤)]-؟

---

(١) **ينظر**: الأم (١/ ١٧٧).

(٢) **ينظر**: الشفا (ص٥٨٥).

(٣) **ينظر**: المدخل للبيهقي (٤٠).

(٤) **ينظر**: مفتاح دار السعادة (١/ ٣٨٧).

نقول: إذا كان العالم يبين مدلول الكتاب والسنة فتجب طاعته؛ لأن طاعته مبنية على ما دل عليه القرآن والسنة، أما طاعته دون ذلك فلا.

ومعنى قول الإمام أحمد رحمه الله المتقدم: أن من رد قول الله أو قول الرسول ﷺ لقول فلان أو فلان بناء على أن فلانا أعلم منا بالسنة وأعلم منا بكذا وكذا مع وضوح الأدلة، فحري أن الله يزيغ قلبه، فإذا زاغ قلبه إذن لا يعرف معروفا، ولا ينكر منكرا، فأصبح قلبه مثل الكوز المكفي، فإنك لو كفأت الكوز لم يمسك ماء، فكذلك من وقع في قلبه شيء من الزيغ، فحينئذ يتحقق الهلاك.

عن عدي بن حاتم: أنه سمع النبي ﷺ يقرأ هذه الآية: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَـٰنَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ﴾ [التوبة: ٣١]، فقلت له: إنا لسنا نعبدهم.

قال: «أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟!».

فقلت: بلى.

قال: «فتلك: عبادتهم» رواه أحمد والترمذي وحسنه[١].

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه بنحوه (ح: ٣٠٩٥)، والطبري في تفسيره (١١/ ٤١٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٦/ ١٧٨٤)، والطبراني في المعجم الكبير بنحوه (ح: ٢١٨)- ومن طريقه المزي في (تهذيب الكمال ٢٣/ ١١٨) - والبيهقي في السنن الكبرى بنحوه (ح: ٢٠٨٤٧) من طريق عبد السلام بن حرب، عن غطيف بن أعين، عن مصعب بن سعد، عن عدي، به مرفوعا. =

عدي بن حاتم كان نصرانيا ثم أسلم رضي الله عنه، ولما سمع هذه الآية - عن النصارى-: ﴿ ٱتَّخَذُوٓاْ أَحۡبَارَهُمۡ وَرُهۡبَٰنَهُمۡ أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَٱلۡمَسِيحَ ٱبۡنَ مَرۡيَمَ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُوٓاْ إِلَٰهٗا وَٰحِدٗاۖ لَّآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۚ سُبۡحَٰنَهُۥ عَمَّا يُشۡرِكُونَ ﴾ [التوبة: ٣١] فهم أن الأحبار -وهم: العلماء- والرهبان -وهم: العباد- ليسوا محل عبادة، فقال: «يا رسول الله، لسنا نعبدهم»؛ يعني: لسنا نسجد ولا نتقرب إليهم بشيء.

فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «أليسوا يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟!».

قال: بلى.

قال: «فتلك عبادتهم».

ففسر النبي صلى الله عليه وسلم عبادة الأحبار والرهبان بطاعتهم فيما هو مخالف لكتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، فإذا قال قائل: «هذا حلال، وهذا حرام»، دون أن ينبني قوله على دليل فمن اتبعه فقد عبده؛ لأنه أطاعه في ذلك دون دليل، والحلال

= غطيف ضعفه جماعة، وذكره الدارقطني في الضعفاء والمتروكين (ح: ٤٣١)، والترمذي أعل الخبر فقال: «هذا حديث غريب، لا نعرفه إلا من حديث عبد السلام بن حرب، وغطيف بن أعين ليس بمعروف في الحديث».

وروي نحوه موقوفا على حذيفة رواه الإمام حمد - كما في السنة للخلال (ح: ١٣٠٦)-، وسعيد بن منصور (ح: ١٠١٢)، وابن عبد البر في (الجامع ٢/ ٩١٨)، والبيهقي (١٠/ ١٩٨)، ولا يصح؛ فإن روايه عن حذيفة هو: أبو البختري، كثير الإرسال، ولم يسمع من حذيفة. ينظر: جامع التحصيل (ص١٨٣).

وأخرجه ابن أبي شيبة (ح: ٣٦٠٨٤) مقطوعا على أبي البختري.

والحرام لا يعرفان إلا من طريق القرآن والسنة، ليس لأحد أن يحرم شيئا ولا أن يبيح شيئا بغير دليل، والله يقول: ﴿وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ ٱلْكَذِبَ هَٰذَا حَلَٰلٌ وَهَٰذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ﴾ [النحل: ١١٦]، فطاعتهم في التحليل والتحريم عبادة.

فإن قلت: كيف ذلك؟!

نقول: من الذي يحلل ويحرم، أليس الله ورسوله ﷺ ؟

تقول: بلى.

نقول: ألم تكن طاعة الله وطاعة رسوله عبادة؟

تقول: بلى.

نقول: إذن متى أطعت هؤلاء الأحبار في تحليل ما حرم الله؛ فقد جعلتهم بمنزلة من تجب طاعته، وهو الله ورسوله ﷺ.

والقول على الله بلا علم في الحلال والحرام أو في أسماء الله وصفاته أعظم من الشرك؛ كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّىَ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا وَأَن تَقُولُوا۟ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣].

فهذه المحرمات جاءت من باب الترقي، بدأ بالفواحش، وهي أسهل من الشرك – والمحرم ليس سهلا- لكن سهولتها بالنسبة لما بعدها، ﴿وَٱلْإِثْمَ وَٱلْبَغْىَ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ﴾: هذا أعظم وأشد، ﴿وَأَن تُشْرِكُوا۟ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَٰنًا﴾: هذا أعظم،

﴿وَأَن تَقُولُواْ عَلَى ٱللَّهِ﴾: في شرعه ودينه وفي أسمائه وصفاته ﴿مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾: دلالته من القرآن والسنة.

وقال بعض المفسرين في هذه الآية: ﴿ٱتَّخَذُوٓاْ أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَٰنَهُمْ أَرْبَابًا﴾: «استنصحوا الرجال، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم»[1].

أما ما نقرأه في كتب الأحكام فليس المراد منه أن يجب اتباعه، وأن كل ما في «الروض المربع» أو «كشاف القناع» أو «المبسوط» أو «شرح الحطاب» أو «المجموع» يجب اتباعه، لا، إنما هذا من باب التقريب، يبين لك المسألة ويوضحها، ثم يبين استنباطها من القرآن أو السنة، فإن كان لها دليل وليس له معارض فنعم، وإلا فكل يؤخذ من قوله ويرد إلا رسول الله ﷺ.

وأنت إذا اجتهدت وطلبت الدليل وبذلت وسعك واستفرغت كل جهدك فقد أديت الذي عليك، فإن أصبت فلك أجران، وإن أخطأت فلك أجر واحد، فأنت مثاب على اجتهادك، ولكن ليس كل أحد يحق له الاجتهاد، فالعامي ليس أهلا للاجتهاد، وإنما الذي يجتهد هو من كان يعرف الأدلة ومدلولها، وهل لها ناسخ أو مخصص؟ فإن كان يستطيع على ذلك فنعم، أما غيره فلا ينبغي له الاجتهاد، بل عليه أن يسأل من يعتقد أنه أعلم وأوثق، هذا الواجب على العامي، فالله يقول: ﴿فَسْـَٔلُوٓاْ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٧]. فإذا جاء شخص لم يتعلم وقال: «أنا لا أقبل قول فلان في هذه المسألة، بل أستنبطها من القرآن والسنة!».

(١) قاله السدي رحمه الله. **ينظر**: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ١٣٥).



نقول: لست بعالم، ولم تعرف القرآن ولا السنة، بل ولا تعرف لغة العرب، ولا تدري هل مسألتك تلك تندرج تحت ذلك الحديث أو هذه الآية، وهل لهذا مخصص، وهل هو مبهم وله ما يفسره؟

العامي فرضه التقليد، ولا يجوز له أن يسأل إلا من يعرف ثقته وعلمه وأمانته، ومن لا يستهين بالفتوى، أما طالب العلم الذي يستطيع استخراج الدليل من الكتاب والسنة، فهذا لا يجوز له أن يعتمد على كتاب دون دليل، لا مانع أن يقرأ الكتب وينظر ما قرره أهل العلم، لكنه مع هذا لابد أن يطلب الأدلة من مظانها.



(٣٨) باب قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ [النساء: ٦٠].

وقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ﴾ [البقرة: ١١].

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾ الآية [الأعراف: ٥٦].

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الآية [المائدة: ٥٠].

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به».

قال النووي: «حديث صحيح، رويناه في كتاب «الحجة» بإسناد صحيح»[(١)].

وقال الشعبي: «كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة؛ فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد - لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة-، وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود - لعلمه أنهم يأخذون الرشوة-، فاتفقا أن يأتيا كاهنا في جهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية [النساء: ٦٠]»[(٢)].

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (ح: ١٥)، والبيهقي في المدخل (ح: ٢٠٩)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (ح: ٢٧٩)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢١٢).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٧/ ١٨٩)، وابن المنذر في تفسيره (٢/ ٧٦٩).

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهم: نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلى عمر، فذكر له أحدهما القصة.

فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ: «أكذلك؟!».

قال: نعم.

فضربه بالسيف فقتله[1].



---

(١) أخرجه ابن وهب (ح: ١٦٠)، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير (٢/ ٣٥١).

شرح: باب قول الله تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُواْ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾

عقد المصنف هذه الترجمة بيانا لوجوب التحاكم إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله ﷺ، وهذا هو معنى شهادة: «أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله»، فمتى تحاكم الناس إلى غير كتاب الله وسنة رسوله ﷺ فقد اتخذوا ما تحاكموا إليه إلها، ولهذا قالوا: الطواغيت خمسة -ومنهم-: من حكم بغير ما أنزل الله؛ فإن من حكم بغير ما أنزل الله لاشك أنه طاغوت، وليس المتحاكمون إليه ممن آمن بما أنزل الله على رسوله ﷺ، وإن زعموا ذلك فهذا الزعم ليس بصحيح، قالوا: «آمنا بالله وبما أنزل الله على رسوله» بألسنتهم، وخالفا في أفعالهم حيث تحاكما إلى القوانين الوضعية، وهي ما صنعه الرجال، يأتون بقوانين ويكتبونها ويضعونها مواد ويقولون: «من فعل كذا فعقوبته كذا، ومن فعل كذا فله كذا، المادة الأولى كذا، المادة الثانية كذا»، وهذا القانون لم يتأيد لا بالقرآن ولا بالسنة، بل هو فلسفة آراء الرجال، من زبالة أذهانهم، ونحاتة أفكارهم، وهذا ليس بشيء.

والتحاكم إلى القانون الوضعي هو تحاكم إلى الطواغيت، وهو داخل في الفساد المنهي عنه في قوله سبحانه وبحمده: ﴿وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا﴾؛ لأن إصلاح الأرض بطاعة الله، ومن طاعة الله التحاكم إلى الكتاب وإلى سنة رسوله ﷺ، فمتى عدلوا عن ذلك صاروا مفسدين في الأرض.

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾: ناقضوا هذا الزعم وأبطلوه بأفعالهم حيث تحاكموا إلى الطاغوت، كيف يدعون أنهم آمنوا بما أنزل الله ومع هذا يتحاكمون إلى الطواغيت؟! فالقول باللسان مع مخالفة الفعل ما هو إلا نفاق.

﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ﴾: فهم مأمورون بأن يكفروا بالطواغيت، قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، من آمن بالطاغوت لا يمكن أن يكون مستمسكا بالعروة الوثقى، والواو في قوله: ﴿وَقَدْ أُمِرُوٓا۟﴾ للحال؛ يعني: والحال أنهم مأمورون بالكفر بالطاغوت.

﴿وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا﴾: في الآية أربعة أمور:

أولا: أن التحاكم إلى القوانين الوضعية أمر يريده الشيطان، والشيطان لا يريد لك إلا الشر.

ثانيا: أن هذا التحاكم إلى الطواغيت ضلال.

ثالثا: أكده بالمصدر بقوله: ﴿ضَلَٰلًۢا﴾؛ مما يدل على شدة ذلك الضلال.

رابعا: أكد المصدر وهو الضلال بقوله سبحانه: ﴿بَعِيدًا﴾ بعيدا عن الحق، وبعيدا عن الله، وبعيدا عن طاعة رسول الله ﷺ.

فالآية تدل على أن الناس وإن زعموا أنهم مؤمنون بالقرآن والسنة فإنا نزنهم بأفعالهم، فإذا قالوا: «نحن مؤمنون بالكتاب والسنة»، نقول لهم: «لا بأس، هذا قول طيب ولكن نزنه بالفعل»، هل الفعل مطابق للقول؟!

فلما وزنا أفعالهم بما يقولون وجدناهم كاذبين، إذ لو كانوا صادقين لتحاكموا للكتاب والسنة.

وكذلك قوله جل وعلا: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ [النساء: ٦٥]: نزلت الآية على قول بعض المفسرين في قضية الزبير بن العوام، مع رجل من الأنصار قيل: إنه حاطب بن أبي بلتعة[١]، والقصة هي: أن الزبير اختصم مع حاطب في مجرى السيل، فقال النبي ﷺ: «أَسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ المَاءَ إِلَى جَارِكَ»، فقال له الأنصاري: أن كان ابن عمتك يا رسول الله؟!

فأنزل الله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ الآية [النساء: ٦٥].

وفي هذه القصة: التسلية للقضاة، فعليهم أن يحكموا بما يظهر لهم من الحق، وعليهم أن يطلبوا الحق، وأن يبتعدوا عن الهوى والحكم الناشئ عن جهل، بل يجتهد ويتطلب الحق من مظانه ثم يحكم، فإن أصاب فله أجران، وإن أخطأ مع اجتهاده وتطلبه للحق فله أجر، وخطؤه مغفور له.

فكل ما وقع فيه الخلاف بين الناس وصارت فيه خصومة وتنازع عليهم أن يرجعوا إلى تحكيم رسول الله ﷺ في حياته وسنته بعد وفاته، ومتى تحاكموا

---

(١) الحديث أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٣٥٩)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٣٥٧) من حديث عبد الله بن الزبير رضي الله عنهما. **وينظر**: جامع البيان لابن جرير الطبري (٧/ ٢٠١)، تنبيه المعلم لسبط ابن العجمي (ص٤٠٠).

إلى القوانين الوضعية التي وضعوها لأنفسهم فقد نفي القرآن عنهم الإيمان؛ لتحاكمهم إلى غير القرآن والسنة، فيكون القاطع للنزاع هو التحاكم إلى الرسول ﷺ في حياته، وإلى سنته بعد وفاته.

﴿وَيُسَلِّمُواْ تَسۡلِيمٗا﴾؛ أي: يذعنوا إذعانا وينقادوا انقيادا، فلا يكفي مجرد التحاكم، بل هناك أمر آخر: وهو ألا يجد المتحاكم في نفسه حرجا من الذي حكم به الرسول ﷺ، فإذا تحاكموا ووجدوا في أنفسهم حزازة فالإيمان منتف عنهم، بل لابد أن لا يكون في صدر الإنسان أي حزازة وأي حرج من حكم الشرع، عليه أن يذعن وينقاد ويسلم تسليما.

قال تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّا كَتَبۡنَا عَلَيۡهِمۡ أَنِ ٱقۡتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمۡ أَوِ ٱخۡرُجُواْ مِن دِيَٰرِكُم مَّا فَعَلُوهُ إِلَّا قَلِيلٞ مِّنۡهُمۡۖ﴾ [النساء: ٦٦]، المعنى: أن هذه الأمة أمرت بالتحاكم إلى كتاب الله وإلى سنة رسوله ﷺ، وهذا أيسر وأسهل مما أمرت به بنو إسرائيل، فلو أن هذه الأمة أمرت بمثل ما أمرت به بنو إسرائيل لم يمتثل منهم إلا القليل؛ فإن بني إسرائيل لما أمرهم الله بالتوبة لم يقبل منهم إلا أن يقتل بعضهم بعضا، حتى قتل نحو سبعين ألفا هذه توبتهم!، أما نحن فلم يكلفنا الرب بهذا.

ثم قال سبحانه: ﴿وَلَوۡ أَنَّهُمۡ فَعَلُواْ مَا يُوعَظُونَ بِهِۦ﴾ من التحاكم للقرآن والسنة، ﴿لَكَانَ خَيۡرٗا لَّهُمۡ وَأَشَدَّ تَثۡبِيتٗا ٦٦ وَإِذٗا لَّأٓتَيۡنَٰهُم مِّن لَّدُنَّآ أَجۡرًا عَظِيمٗا ٦٧ وَلَهَدَيۡنَٰهُمۡ صِرَٰطٗا مُّسۡتَقِيمٗا﴾ [النساء: ٦٦- ٦٨]، فالتحاكم إلى الكتاب والسنة عند موارد النزاع مع الإذعان والقبول والانقياد وسلامة الصدر وانشراح القلب لحكم الله ورسوله ﷺ يزيدك خيرا إلى خير، ويزيدك تثبيتا؛ لئلا تكون مائلا

فتنحرف يمينا وشمالا، قال تعالى: ﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴿٧٣﴾ وَلَوْلَآ أَن ثَبَّتْنَٰكَ لَقَدْ كِدتَّ تَرْكَنُ إِلَيْهِمْ شَيْـًٔا قَلِيلًا ﴿٧٤﴾ إِذًا لَّأَذَقْنَٰكَ ضِعْفَ ٱلْحَيَوٰةِ وَضِعْفَ ٱلْمَمَاتِ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ عَلَيْنَا نَصِيرًا ﴾ [الإسراء: ٧٣- ٧٥].

وقوله: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓاْ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ١١].

معنى الآية: أن الله -سبحانه- ينهى عباده عن الفساد في الأرض – وإن زعموا أنهم مصلحون-، فالفساد والصلاح لا يرجع إلى رأي فلان أو رأي الرئيس الفلاني، يقول: «أنا أريد الإصلاح»، كم من مريد للإصلاح – على حد زعمه- والواقع أنه يفسد؟!

ولكن الميزان في معرفة الفساد والصلاح هو القرآن والسنة، فما دل على طاعة الله ورسوله ﷺ فهو الصلاح، وما خالفهما فهو الفساد.

فمن الفساد في الأرض: معصية الله؛ فإن معصية الله بارتكاب نواهيه وتترك أوامره فساد كبير.

فمثلا: لو أن شخصا يريد أن يبيح الربا!، وقال: هذا من المصلحة التي تجلب تنمية المال وكثرته حتى أن الناس يترفهون، والله لم يحرم الكسب، بل كل ما من شأنه أن ينمي المال ويقيم المصالح فهو أمر مطلوب شرعا؛ لأنه من المصلحة.

نقول له: بل هذا من الفساد في الأرض، فما دام أن الشريعة نهت عن الربا

- وإن زعمت أنه مصلحة- فهو في الحقيقة مفسدة، والعبرة بالحقائق لا بالأسماء، فما من صلاح في الأرض ولا في السماء إلا وسببه طاعة الله، وما من فساد فيهما إلا وسببه مخالفة أوامر الله وأوامر رسوله ﷺ، فالأرض لا تصلح ولا يستقيم أهلها ولا تنتظم أحوالهم ولا يصلح مجتمعهم إلا بتحكيم القرآن والسنة أمرا ونهيا واعتقادا في المجتمع وفي الأفراد، هذا هو الصلاح الحقيقي، وما عدا ذلك فهو فساد، والفساد يختلف باختلاف الشيء الذي ارتكبه العبد، تارة يكون فسادا كليا وتارة جزئيا.

وقوله: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾ الآية [الأعراف: ٥٦].

﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾، كانت الأرض فاسدة قبل مبعث النبي ﷺ، كما في الحديث: «إِنَّ اللهَ نَظَرَ إِلَى أَهْلِ الْأَرْضِ، فَمَقَتَهُمْ عَرَبَهُمْ وَعَجَمَهُمْ، إِلَّا بَقَايَا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ»[(١)]، ولكن الله أصلحها ببعثة محمد ﷺ، دعا الناس إلى التوحيد، وأمرهم بعبادة الله وحده لا شريك له، وبين لهم الصراط المستقيم، فأصبح الإسلام منتشرا في كل مكان، هذا هو صلاح الأرض: ﴿وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا﴾، ومن إفساد الأرض بعد إصلاحها: التحاكم إلى القوانين.

وقيل: المعنى: لا تفسدوا في الأرض بمعصية الله بعد إصلاحها بطاعة الله.

وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ الآية [المائدة: ٥٠].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٨٦٥) من حديث عياض بن حمار رضي الله عنه.

﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾، إضافة الحكم إلى الجاهلية إضافة عيب وذم؛ كالقوانين الوضعية التي تجمع من آراء الرجال، ونحاتة الأفكار، وزبالة الأذهان، يعارضون بها حكم الله ورسوله ﷺ، ويقولون: هذا أصلح للناس، وهذا أضبط لحقوقهم وأنفع!

نقول: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَۚ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ ٱللَّهِ حُكْمًا﴾؛ أي: لا أحسن حكما من حكم الله، ﴿لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾؛ أي: يؤمنون حقيقة بما جاء به الرسول ﷺ من القرآن والسنة، فحكم الجاهلية هو من الفساد في الأرض، وذلك كما قال ابن كثير[1] في نظام جنكيز خان والي التتار؛ فإنه جمع نظاما من الإسلام وغيره وشيئا من آرائه، فدونه فعلت ذريته يتداولون الحكم به، ويقدمونه على حكم الله ورسوله ﷺ.

ومثله -أيضًا-: ما يسمى بالنظم، العبرة بالحقيقة، لا تظن أن الممنوع هو ما يسمى بـ (القوانين الوضعية) فقط، بل ربما يسمونها (نظاما)؛ كـ (نظام العمل والعمال)، وغيره، فانظر في النظام، إن كان نظاما إداريا فلا حرج ولا مشاحة، ينظم العمل، دواما، ووقتا، ورئيسا ومرؤوسا، وكل إنسان يسند إليه عمل يخصه، هذا لا مانع منه.

أما إن كان قد دخل في أحكام الله وشرعه، فهو ممنوع، وهو حكم الجاهلية، سواء بسواء، والتحاكم إليه من التحاكم إلى الطواغيت الذي تقدم معناه في آية النساء: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ﴾ الآية [النساء: ٦٠].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٣/ ١٣١).

عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ».

قال النووي: «حديث صحيح، رويناه في كتاب «الحجة» بإسناد صحيح»(١).

(لا يؤمن أحدكم): هنا قاعدة ينبغي أن ننتبه لها، وهي: أن كثيرا من الأحاديث تأتي بهذا اللفظ: «لا يؤمن أحدكم...» وما في معناه، فهل هذا نفي للإيمان بالكلية بحيث من انطبق عليه يكون غير مؤمن؟

النووي رحمه الله وأمثاله يقولون: هذا نفي لكمال الإيمان، نفي للقدر المستحب، وإلا فالإيمان الواجب لا يزال معه.

وشيخ الإسلام ابن تيمية قال: «القاعدة: أن الله ورسوله ﷺ لا ينفيان عن المسمى الاسم الشرعي إلا لترك بعض واجباته»(٢)، فيكون هذا ليس نفيا لكمال الإيمان، ولا للإيمان كله، وإنما نفي للقدر الواجب.

---

(١) أخرجه ابن أبي عاصم في السنة (ح: ١٥)، والبيهقي في المدخل (ح: ٢٠٩)، وابن بطة في الإبانة الكبرى (ح: ٢٧٩)، والبغوي في شرح السنة (١/ ٢١٢) من حديث نعيم بن حماد – تفرد به–، عن عبد الوهاب الثقفي، عن هشام بن حسان، عن محمد بن سيرين، عن عقبة بن أوس، عن ابن عمرو، به مرفوعا.
نعيم إمام في السنة منكر الحديث، وفي إسناده اضطراب، وقد أعله البيهقي، وقال الحافظ ابن رجب (جامع العلوم والحكم ٢/ ٣٩٣): «تصحيح هذا الحديث بعيد جدا».
ثم إن عقبة بن أوس قيل أنه لم يسمع من ابن عمرو. ينظر: جامع التحصيل (ص٢٣٩).
قال العلامة سليمان بن عبد الله (التيسير ٢/ ١١٢١): «ومعناه صحيح قطعا وإن لم يصح إسناده، وأصلح في القرآن كثير....».

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (٧/ ١٤– ١٨/ ٢٦٨).

(حتى يكون هواه): (الهوى): هو ما يحبه الإنسان ويميل إليه، حقا كان أو باطلا، فالحديث نفى الإيمان عن الذي يكون هواه يخالف ما جاء به الرسول ﷺ، إذا كان عندك شيء من الميل إلى ما يسخط الله وإن كنت تعتقد تحريمه فقد نقص إيمانك؛ وما نشأت المعاصي والبدع إلى من الهوى[1]، ومن أمثلة ذلك: التلفظ بالنية: «نويت أن أصلي لله!»، يرى من يرى هذا الراي أنه دين، وأنه خير.

قل له: هذه بدعة.

يقول: لا، هذا خير.

فقل له: الرسول ﷺ يقول: «لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعا لما جئت به»، فبالله عليك أعطني ما جاء عن الرسول ﷺ في هذه المسألة حتى أتبعه، فلا يستطيع أبدا أن يعطيك حرفا يدل على مشروعية ذلك عن الرسول ﷺ، ولا عن أصحابه -رضوان الله عليهم-، ولا عن أحد من التابعين رحمهم الله، إنما يعطيك أقيسة وتعليلات، لا أقل ولا أكثر، فمن ثم صار متبعا لهواه في هذه المسألة؛ حيث لم يستند في ذلك على نص من كتاب الله، ولا سنة رسول الله ﷺ.

وقال الشعبي: «كان بين رجل من المنافقين ورجل من اليهود خصومة؛ فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد- لأنه عرف أنه لا يأخذ الرشوة-، وقال المنافق: نتحاكم إلى اليهود- لعلمه أنهم يأخذون الرشوة-، فاتفقا أن يأتيا كاهنا في جهينة فيتحاكما إليه، فنزلت: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ﴾ الآية [النساء: ٦٠]»[2].

---

(١) **ينظر**: جامع العلوم والحكم (ص٧٢٧).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٧/ ١٨٩)، وابن المنذر في تفسيره (٢/ ٧٦٩)، ورجاله ثقات إلى أنه مرسل.

وقيل: نزلت في رجلين اختصما، فقال أحدهما: نترافع إلى النبي ﷺ، وقال الآخر: إلى كعب بن الأشرف، ثم ترافعا إلى عمر، فذكر له أحدهما القصة.

فقال للذي لم يرض برسول الله ﷺ: «أكذلك؟!».

قال: نعم.

فضربه بالسيف فقتله[1].

الشعبي: هو عامر بن شراحيل الهمداني، من حفاظ هذه الأمة وفضلائها، وكان يقول: «ما كتبت سوداء في بيضاء»[2]، من شدة حفظه لا يحتاج إلى كتابة.

ومن كلماته المأثورة عنه قوله: «يعود العلم جهلا، والجهل علما»، نقله عنه العلامة ابن القيم[3]، والواقع يشهد لهذا.

«يعود العلم جهلا»: العلم الحقيقي الذي يروث الخشية من الله يعود في آخر الزمان جهلا، يجهله الناس ويتضاءل ويذهب.

«ويعود الجهل علما»: الكتابة والقلم والإنشاء يعود هو العلم يتعلمه الناس، شقشقة الكلام، وإطلاق اللسان، وسبك الكلمات إلا أنها جوفاء!، تقرأ صفحات كثيرة لا تخرج منها بفائدة، فهم يتعلمون الإنشاء وسبك الكلام لكن لا

---

(١) أخرجه ابن وهب (ح: ١٦٠)، وابن أبي حاتم كما في (تفسير ابن كثير ٢/ ٣٥١) من حديث ابن لهيعة، عن أبي الأسود، وهو ضعيف مرسل.
وعلقه الثعلبي (٣/ ٣٣٧)، والواحدي (ص١٠٧)، والبغوي (١/ ٤٤٦) عن الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، به، وإسناده ضعيف جدا.

(٢) ينظر: طبقات ابن سعد (٦/ ٢٤٩).

(٣) ينظر: إعلام الموقعين (١/ ١٩٥).

معنى ولا روح فيها، ولا تمت إلى العلم الديني بل ولا إلى العلوم الدنيوية بصلة.

(كان بين رجل من المنافقين روجل من اليهود خصومة، فقال اليهودي: نتحاكم إلى محمد): لأن الرسول ﷺ لا يأخذ الرشوة، وقد استقر في قلوب اليهود أن محمدا نبي، وأنه لا يحكم إلا بالحق، لكنهم جحدوا عنادا وتكبرا، وحسدا وبغيا.

أما المنافق الذي يظهر الحق والإيمان ويبطن الكفر فلم يرض بحكم رسول الله ﷺ.

و(الرشوة): مبلغ يدفعه أحد الخصمين للحاكم ليجور في الحكم لصالحه.

وقد لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي[1]، فمتى دفع أحد الخصمين للقاضي أو لمن بيده حل وعقد شيئا من المال لأجل أن يميل معه، وأن ينصر باطله، فهو ملعون على لسان رسول الله ﷺ، فالمنافق لم يقبل بحكم رسول الله ﷺ؛ لعلمه أنه مبطل ظالم لليهودي، فطلب التحاكم إلى كعب بن الأشرف، وكعب بن الأشرف هذا من علماء اليهود ورؤسائهم، وأصله عربي، ولكن أمه يهودية، وقد تهود واختار الدين اليهودي، وعنده علم من الكتاب، وهو شاعر مجيد، آذى النبي ﷺ في أشعاره، وفضل طريقة قريش على طريقة النبي ﷺ هو وحيي بن أخطب، فهذان العالمان الجاحدان الكاذبان فضلا ما كانت عليه قريش من عبادة الأوثان على ما عليه الرسول ﷺ، واليهودي امتنع من التحاكم إلى كعب وطلب التحاكم

(١) سبق تخريجه.

إلى الرسول ﷺ، فأنزل الله: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى الطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ الشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا﴾ [النساء: ٦٠- ٦١].

نأخذ من هذا: أن الذين يتحاكمون إلى النظم والقوانين كالقانون الفرنسي أو المصري أو اللبناني وما أشبه ذلك بدلا من الكتاب والسنة لاشك أنهم أخبث وأشر ممن سبقهم، يقول: «النظام لا يقضي أنا نرفع الأمر إلى الشرع»، أو: «النظام يقتضي أنك تسلم غرامة»، هل النظام مستمد من الكتاب والسنة؟!

إن كان كذلك فعلى الرأس والعين، أم هو من كناسة الآراء، وزبالة الأذهان، ونحاتة الأفكار؟! فلا خير فيه.

وقد قال ابن القيم في «البدائع»[1]: «حذار حذار من أمرين لهما عواقب سوء:

أحدهما: رد الحق لمخالفته هواك، اقرأ قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْـِٔدَتَهُمْ وَأَبْصَـٰرَهُمْ كَمَا لَمْ يُؤْمِنُوا۟ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الأنعام: ١١٠].

والأمر الثاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقته، وتذكر قوله تعالى: ﴿فَإِن رَّجَعَكَ اللَّهُ إِلَىٰ طَآئِفَةٍ مِّنْهُمْ فَاسْتَـْٔذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُل لَّن تَخْرُجُوا۟ مَعِىَ أَبَدًا وَلَن تُقَـٰتِلُوا۟ مَعِىَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُم بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ فَاقْعُدُوا۟ مَعَ الْخَـٰلِفِينَ﴾ [التوبة: ٨٣]، عاقبهم الله بأن قلب قلوبهم، ولم يقبل أن يقاتلوا مع الرسول ﷺ حينما استأذنوا أولا دون عذر».

---

(١) ينظر: البدائع (٣/ ١٨٠).

فأنت إذا رددت الحق ولم تقبل ما جاء به النبي ﷺ فحري ألا يتيسر لك قبول الحق بعد هذا، وأن يقال لك: «لم تقبل الحق أول مرة فاقعد مع القاعدين».

(وقيل: نزلت في رجلين اختصما فقال أحدهما: «نتحاكم إلى رسول الله»، وقال الآخر: «إلى كعب بن الأشرف»، ثم اتفقا أن يتحاكما إلى عمر): لما استثبت عمر عن هذا الذي لا يريد حكم الرسول ﷺ، وأنه يفضل حكم كعب، قال: مكانكما حتى أرجع إليكما، فجاء بالسيف فقتله.

فاستعظم النبي ﷺ ذلك، ولكن الله أنزل عليه: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ﴾ إلى قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّا كَتَبْنَا عَلَيْهِمْ أَنِ ٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ﴾ [النساء: ٦٠- ٦٦] إلى آخر الآية[١].

والرسول ﷺ لو رفع إليه الأمر لم يقتله؛ خشية أن يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه، وبهذا نعرف أن كل من دعا إلى غير الكتاب والسنة، أو رضي بذلك؛ فإنه منافق، وينبغي أن يكون هذا مصيره إن أمكن؛ فإن الله يقول: ﴿وَإِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن يَكُن لَّهُمُ ٱلْحَقُّ يَأْتُوٓا۟ إِلَيْهِ مُذْعِنِينَ ﴿٤٩﴾ أَفِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَمِ ٱرْتَابُوٓا۟ أَمْ يَخَافُونَ أَن يَحِيفَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَرَسُولُهُۥ ۚ بَلْ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٥٠﴾ إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٥١﴾ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ - يعني: في أحكامهما - ﴿وَيَخْشَ ٱللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [النور: ٤٨- ٥٢].

---

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٤/ ١٩٢).



(٣٩) باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات

وقول الله -تعالى-: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ الآية [الرعد: ٣٠].

وفي «صحيح البخاري» قال علي: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!»[١].

وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه، عن ابن عباس: أنه رأى رجلا انتفض لما سمع حديثا عن النبي ﷺ في الصفات، استنكارا لذلك فقال: «ما فرق هؤلاء؟! يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه» انتهى[٢].

ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر: «الرحمن» أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠][٣].



(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باختلاف يسير (ح: ١٢٧).
(٢) أخرجه معمر في جامعه (ح: ٢٠٨٩٥)، وابن أبي عاصم في السنة (ح: ٤٨٥).
(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٣/ ٥٣١).

شرح: باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات

توحيد الأسماء والصفات أمر دل عليه القرآن والسنة النبوية، وأجمع عليه سلف الأمة، وهذا الكتاب اشتمل على أقسام التوحيد الثلاثة، فذكر المصنف فيه: بيان التوحيد وما ينافيه من الشرك الأكبر، وما ينافي كماله من الشرك الأصغر، وبين فيه البدع القادحة في التوحيد، وبين الذرائع إلى الشرك أو المقربة منه، وبين فيه المعاصي المنقصة لثواب التوحيد.

وتوحيد الربوبية أقر به المشركون، ولم ينكره أحد إلا شذاذ من بني آدم، وإلا فالناس كلهم معترفون أن الله هو الذي يخلق ويرزق، ويعز ويذل، ويخفض ويرفع، ويصل ويقطع، ويتصرف في خلقه بما تقتضيه إرادته وحكمته.

وتوحيد العبادة هو الغرض الأساسي الذي لأجله وضع هذا الكتاب؛ فإن توحيد الربوبية وتوحيد الأسماء والصفات وسيلة لتوحيد العبادة.

وقوله: (باب من جحد شيئا من الأسماء والصفات): أي: فهو كافر؛ لأنه استدل بهذه الآية: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠].

والأسماء والصفات الناس فيها طرفان ووسط: طرف أنكروها وجحدوها، وجعلوها كالأسماء المحضة المترادفة، وهم: الجهمية والمعتزلة، فاسم (الرحمن) دل -عندهم- على ما دل عليه (السميع)، و(السميع) دل على ما دل عليه (العليم)، و(العليم) دل على ما دل عليه (الرحيم)، فالرحيم -عندهم- لا يدل على صفة، والعليم كذلك وهكذا بقية الأسماء، ما هي إلا مجرد أسماء لا معنى لها، ولاشك أن هذا ضلال، أيوجد في لغة العرب أو في غير

لغة العرب أن (السميع) بمعنى (العليم)؟! أو أن (العليم) بمعنى (الرحيم)؟!

لا، بل كل اسم يدل على صفة لم يدل عليها الاسم الآخر إلا بطريق الالتزام أو التضمن، هذا هو مذهب أهل السنة والجماعة.

ودلالة الالتزام من أمثلتها: إذا أثبت أن الله -سبحانه- رحيم، فالرحيم دل على ذات الرب دلالة التزام، فهل يمكن أن يوجد رحيم دون ذات؟! لا يمكن، فلا نعرف وجود سمع لا بصر دون ذات، ولا رحمن ورحيم دون ذات، فدلالة الرحمن والرحيم والسميع والبصير على الذات دلالة التزام.

ودلالة التضمن، إذا أثبت أن الله رحيم دل على صفة الرحمة مفردة دلالة تضمن.

الطرف الثاني: أثبتوا الأسماء والصفات لكن جعلوها كصفات المخلوقين، فقالوا: إن الله أثبت أنه سميع وبصير ويتكلم، وأن له يدا، وأنه يرحم، وهذه الصفات لا نعرفها في لغة العرب إلا كصفات المخلوقين؛ لأنه وصف نفسه بأنه رحيم، ووصف بعض خلقه بأنه رحيم: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، ووصف نفسه بأنه سميع بصير: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ۚ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُمْ بِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [النساء: ٥٨]، ووصف عبده بأنه سميع بصير: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [الإنسان: ٢]، فالسمع كالسمع، والبصر كالبصر!

والوسط: بريء من الطرفين، من هؤلاء ومن هؤلاء، بريء من هاتين الفرقتين الضالتين المنحرفتين عن الصراط المستقيم، فنثبت لله ما أثبته لنفسه، وما أثبته له أعلم الخلق به: رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، ونبرأ إلى الله من تشبيهه بخلقه، ونبرأ إلى الله من أن نقول إن أسماءه كالأعلام المحضة المترادفة.

بل نقول: إن الله سميع بصير، عزيز حكيم، قوي رحيم، إلى غير ذلك من الأسماء والصفات، نثبتها دون أن نشبهها بصفاتنا؛ لأن الله يقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، فهذه نفت مشابهته لخلقه، وقال: ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، وإذا شبهته بخلقه جعلت له مثيلا ونظيرا ونديدا.

وكذلك لك -أيضًا- أن تحاج الجهمية والمعتزلة وغيرهم من الذين ينفون عن الله الصفات الثابتة، ويقولون: لو أثبتناها لأدى إلى مشابهته لخلقه تقول لهم: هل تثبتون لله ذاتا؟

يقولون: نعم، نثبت لله ذاتا.

قل لهم: هل هي من جنس ذوات المخلوقين؟

يقولون: لا، بل ذاته مختصة به، ولا تشبه المخلوقين.

قل لهم: كيف لا تقولون في الصفات نظير ما قلتم في الذات؟! أثبتوا لله صفاتا لا تشبه صفات المخلوقين؛ فإن الصفات فرع عن الذات.

فتنقطع حجتهم ولا يستطيعون أن يجيبوا بشيء، والأسماء تدل على الصفات[1].

والجهمية كفرهم خمس مئة عالم من علماء المسلمين؛ لأنهم ينكرون ما أثبت الله لنفسه، وما أثبته له رسوله ﷺ، قال ابن القيم في الكافية الشافية[2] في هذا المعنى:

ولقد تقلد كفرهم خمسون في ۞ عشر من العلماء في البلدان

واللالكائي الإمام حكاه عنهم ۞ بل حكاه قبله الطبراني

إذا ضربت عشرة في خمسين فالناتج: خمس مئة، أي: خمس مئة من علماء الإسلام كفروهم بسبب جحودهم تلك الصفات التي أثبتها الله لنفسه، والذي حكى هذا هو: الطبراني، واللالكائي صاحب «شرح اعتقاد أهل السنة»، وغيرهما.

وما أحسن وما أهدى طريقة السلف: آمنا بالله وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنا برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله.

وكما قال الإمام أحمد: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، لا يتجاوز القرآن والحديث»[3].

وهذا خالد القسري أمير العراق لبني أمية لما أظهر الجعد بن درهم بدعته -وهو شيخ الجهمية وإمامهم-، وزعم أن الله لم يكلم موسى تكليما، وأن الله لم يتخذ إبراهيم خليلا، قام خالد خطيبا يوم عيد الأضحى، وقال في خطبته

---

(١) وفي هذا أنشد العلامة محمد سالم بن عبد الودود:

أسماؤه الحسنى على الصفات ۞ دلت فذلت أوجه النفاة

(٢) ينظر: الكافية الشافية (ص٤٢).

(٣) ينظر: الفتوى الحموية الكبرى (ص٢٦٥).

-وكان الجعد من جملة المصلين-: «يا أيها الناس ضحوا تقبل الله ضحاياكم، فإني مضح بالجعد بن درهم -وهو يسمع-؛ فإنه زعم أن الله لم يكلم موسى تكليما، ولم يتخذ إبراهيم خليلا»، فنزل فذبحه[1].

قال ابن القيم في (النونية)[2]:

شكر الضحية كل صاحب سنة ❁ لله درك مـــن أخـــي قربـــان

والجعد بن درهم أخذ مقالته عن أبان بن سمعان، وأبان بن سمعان أخذها عن طالوت ابن أخت لبيد بن الأعصم، وطالوت أخذها عن خاله لبيد الذي سحر النبي ﷺ[3]، هذا سند مذهب الجهمية!

وقول الله -تعالى-: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ الآية [الرعد: ٣٠].

سبب نزول الآية: أنه لما جاء النبي ﷺ إلى مكة معتمرا ومنعته قريش، ثم وقع الصلح بينه وبينهم في الحديبية على أن يرجع هذا العام ويعتمر في العام المقبل، اتفقوا على هذا، وجاء سهيل ليكتب كتاب الصلح، فقال النبي ﷺ: «اكتب: بسم الله الرحمن الرحيم»، قال سهيل: لا نعرف الرحمن إلا رحمن اليمامة، ولكن اكتب: باسمك اللهم[4].

---

(١) روى القصة البخاري في خلق أفعال العباد (ص٢٩). **ينظر**: تاريخ الإسلام (٣/ ٢١٨)، البداية والنهاية (١٢/ ١٤٨).

(٢) **ينظر**: الكافية الشافية (ص٦٢).

(٣) **ينظر**: الفتوى الحموية الكبرى (ص٢٣٤).

(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٧٣١) من حديث المسور ومروان، ومسلم في صحيحه (ح: ١٣٨٤) من حديث أنس رضي الله عنه.

و(رحمن اليمامة) هو: مسيلة، فأنزل الله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ [الرعد: ٣٠].

وفي «صحيح البخاري» قال علي: «حدثوا الناس بما يعرفون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟!»[(١)].

إذا كنت عند العامة إياك أن تحدثهم بأحاديث لا تبلغها عقولهم، ولا يصلون إليها فتكون عليهم فتنة؛ كأحاديث الصفات إذا كانوا لا يفهمونها، وإلا فالتحديث بأحاديث الصفات لا مانع منه، تقرر مذهب أهل السنة والجماعة، لكن كنك تخوض في مذهب الجهمية وتبينه ولو على سبيل الرد لا ينبغي عند من لا يفهم من العامة ونحوهم، فربما تصوروه ولم يتصوروا الرد عليه، كما جاء عن ابن مسعود: «إنك لست بمحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة»[(٢)].

ومثله شبه اليوم التي يوردها الملحدون من أتباع النصارى وأفراخ الملاحدة للنيل من الإسلام؛ مثل قولهم: «ما أحسن الإسلام، إلا أنه يقول: للرجل الذي تزوج امرأة واتفق هو وهي في المبدأ أن يطلقها دون رضاها! ما دام أن الابتداء لا يكون إلا بالتراضي فلا يجوز الفسخ إلا بالتراضي؛ كعقد الإجارة وعقد البيع والعقود الأخرى»، ربما لو شرحت هذا للعامة فهموا الإشكال ولم يفهموا الجواب والفرق بين هذا وهذا.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باختلاف يسير (ح: ١٢٧).
(٢) أخرجه مسلم في مقدمة الصحيح (١/ ١١).

وروى عبد الرزاق، عن معمر، عن ابن طاووس، عن أبيه، عن ابن عباس: أنه رأى رجلا انتفض -لما سمع حديثا عن النبي ﷺ في الصفات، استنكارا لذلك- فقال: «ما فرق هؤلاء؟! يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه» انتهى[1].

ولما سمعت قريش رسول الله ﷺ يذكر: «الرحمن» أنكروا ذلك، فأنزل الله فيهم: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠][2].

(وروى عبد الرزاق): عبد الرزاق بن همام الصنعاني، شيخ الإمام أحمد ويحيى بن معين، وإمامته وجلالته معروفة، وهو ثقة مأمون، له مصنف طبع.

(عن معمر): معمر بن راشد الأزدي، شيخ عبد الرزاق، وهو بصري ولكنه انتقل إلى اليمن وبقي في صنعاء يحدث الناس، ولمعمر قصة مع أهل صنعاء حينما حل بدارهم ونزل عندهم، ففرحوا به والتف عليه الطلاب وجعلوا يكتبون عنه الحديث، ولما أراد أن يسافر من صنعاء ويرجع إلى بلده أشار أهلها عليه بألا يغادر بلادهم وأن يبقى عندهم فأبى، فحاولوا بكل ممكن فأبى، فاجتمع أعيان أهل صنعاء لينظروا في أمرهم؛ لأنهم لا يسمحون لمثل هذا المحدث العالم الكبير أن ينتقل من بلادهم فجلسوا يتشاورون، فقال أحدهم: «قيدوه!».

قالوا: ويحك كيف نقيده؟! عالم من علماء المسلمين نقيده؟!

---

(١) أخرجه معمر في جامعه (ح: ٢٠٨٩٥)، وابن أبي عاصم في السنة (ح: ٤٨٥) وإسناده قوي.
(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٣/ ٥٣١) من طريق ابن جريج، عن مجاهد، به.

قال: نعم، قيدوه بتزويجه؛ فإنه إذا تزوج وهو غريب لم يرحل.

فقبلوا رأيه، فذهبوا وقالوا: «إنك حللت ببلادنا ولابد أن نزوجك، ثم إذا تزوجت فإن شئت فاجلس، وإن شئت فارحل»، فأبى فحاولوا حتى أجابهم، فتزوج بنتا صالحة، فدخل عليها ورغب فيها فبقي[1].

هذا هو القيد، بقي عندهم، هذا يدلك على أن أهل البلاد فيما سبق كانوا يبذلون كل ما يستطيعون لبقاء من يرشدهم ويعلمهم ويكتبون عنه الحديث.

(عن ابن طاووس، عن أبيه): طاووس بن كيسان اليماني، أحد أصحاب ابن عباس، وهو من الموالي.

وللزهري قصة شهيرة مع عبد الملك بن مروان، ذكرها الحافظ المزي في كتابه: «تهذيب الكمال»[2]، وهي: أن الزهري لما قدم الشام على عبد الملك بن مروان، قال: من أين قدمت يا زهري؟

قال: قدمت من مكة.

قال: ومن خلفت؟

قال: عطاء بن أبي رباح.

قال: أهو من العرب أم من الموالي؟

قال: من الموالي.

---

(١) ذكر العجلي القصة في ثقاته (ص٤٣٥) ونقلها عنه جماعة.
(٢) تهذيب الكمال (٢٠/ ٨١).

قال: ويحك بم ساد أهل مكة وفيهم أشراف قريش؟!

قال: بالدين والعلم والتقى.

فقال: حق في أهل العلم والدين أن يسودوا.

ثم قال: ومن يسود أهل اليمن؟

قال: طاووس بن كيسان.

قال: أهو من العرب أم من الموالي؟

قال: من الموالي.

قال: بم سادهم؟!

قال: بمثل ما ساد به عطاء أهل مكة -يعني: بالدين والعلم والتقى-.

ثم ذكر من يسود مصر والشام والجزيرة وخراسان والبصرة وكلهم من الموالي، حتى وصل إلى الكوفة، فقال: ومن يسود أهل الكوفة؟

قال: إبراهيم النخعي.

قال: أهو من العرب أم من الموالي؟!

قال: من العرب.

قال: فرجت عني يا زهري، ويحك يخطب الموالي فوق المنابر والعرب تحتها؟!

قال الزهري: يا أمير المؤمنين، هذا دين من تمسك به ساد، ومن ضيعه ضاع[1].

هذا هو الحق.

(عن ابن عباس: أنه رأى رجلا انتفض لما سمع حديثا عن النبي ﷺ في الصفات استنكارا لذلك، فقال: ما فرق هؤلاء؟! يجدون رقة عند محكمه، ويهلكون عند متشابهه؟!): هو متشابه بالنسبة إلى هذا الرجل الذي انتفض، وإلا فآيات الصفات لا تلحق بالمتشابه بل هي من المحكم، فقوله جل وعلا: ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤] هذا من المحكم ليس من المتشابه، ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] من المحكم ليس من المتشابه، ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [لقمان: ٢٨] من المحكم، إلى غير ذلك من صفات الذات وصفات الأفعال، كلها من المحكم لا من المتشابه، -وإن كان موفق الدين ابن قدامة جعلها من المتشابه في عقيدته المعروفة بـ (اللمعة)[2]-، لكن لا يسلم له، بل الصواب أن آيات الصفات كلها من المحكم؛ لأن معنى المحكم هو الذي أريدت حقيقته، فنحن نعتقد أن لآيات الصفات حقيقة، وأن الله -تعالى- صفات وصف بها نفسه ووصفه بها رسوله ﷺ، لا نؤول، ولا نقول هذا من المتشابه؛ لأنا إذا قلنا: «هذا من المتشابه» لم نثبت أن الله يتكلم، ولا نقول كما قالت المفوضة:

---

(١) قال الحافظ الذهبي (السير ٥/ ٨٥): «الحكاية منكرة، والوليد بن محمد راويها واه، ولعلها تمت للزهري مع أحد أولاد عبد الملك».

(٢) ينظر: لمعة الاعتقاد (ص٦). وينظر: فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم (١/ ٢٠٢).

«نفوض معناها إلى الله»، نعم نفوض الكيفية، أما حقيقتها فلاشك أنها معلومة؛ لأن الله خاطبنا بلغة العرب التي نفهمها، لكن نفوض الكيفية إلى الله.

قال تعالى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ ﴾؛ أي: شك ومرض ﴿فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴾ [آل عمران: ٧]: اختلف المفسرون: هل يقف القارئ عند ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ ويكون قوله: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ ﴾ مبتدأ؛ أي: أنهم لا يعلمون تأويله، أم يصل فيقرأ: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ ﴾ فيكون المعنى: أن الراسخين يعلمون تأويله؟

ابن عباس قال: «أنا من الراسخين في العلم»[1].

وليس هذا من باب التزكية، وإنما من باب الإخبار بالنعمة التي أنعمها الله عليه.



(١) أخرجه الطبري (٥/ ٢٢٠) من حديث ابن أبي نجيح، عن مجاهد، عن ابن عباس رضي الله عنهما.



(٤٠) باب قول الله تعالى:

﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [النحل: ٨٣].

قال مجاهد ما معناه: هو قول الرجل: «هذا مالي، ورثته عن آبائي»(١).

وقال عون بن عبد الله: يقولون: «لولا فلان لم يكن كذا»(٢).

وقال أبو العباس - بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: إن الله -تعالى- قال: «أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر..» الحديث - وقد تقدم-: «وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره، ويشرك به»(٣).

قال بعض السلف: هو كقولهم: «كانت الريح طيبة، والملاح حاذقا» ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير.



---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ٣٢٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٢٦٢١).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ٣٢٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (ح: ١٢٦٢٢).

(٣) ينظر: مجموع الفتاوى (٨/ ٣٣).

شرح: باب قول الله تعالى:

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [النحل: ٨٣]

قصد المصنف بهذه الترجمة أن الله ينعم على عباده، ثم إن المنعم عليه يضيف النعم إلى غير الله، فيكون قد جحد هذه النعمة وأنكرها حيث لم ينسبها إلى الله، ولم يشكر الله عليها، بل ادعى أنها وصلت إليه من أبيه أو من جده، ورثها عنهم، أو بسبب فلان وفلان، هذا هو الغرض من هذه الترجمة، فكأن المصنف يريد بهذه الترجمة: أن ما تقدم من الأبواب التي بحثت في أسماء الله وصفاته، والتحاكم إلى كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وإثبات أسماء الله وصفاته على الوجه الذي يليق بجلاله، وما سبق ذلك من إخلاص العمل لله، فينبغي الآن أن تشكر هذه النعم وأن تنسبها لله، هو الذي هيأ لك ويسر معرفة ما سبق، وأعطاك الفهم، وأوصلك إلى هذا العلم، فاشكر الله عليه؛ كأن المصنف يريد هذا، وإن كانت الترجمة عامة في النعم الدينية والدنيوية.

﴿يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ﴾ قال بعض المفسرين: هي بعثة النبي ﷺ، يعرفون أن الله أرسل إليهم رسولا يخرجهم به من الظلمات إلى النور، ثم هم مع هذا أنكروا نبوته وجحدوها وهم في باطن الأمر يعرفون أنه رسول الله ﷺ، فإرسال الرسل نعمة من الله، لكن قابلوا هذه النعمة بالجحود والإنكار حيث لم يقبلوا ما جاء به رسولهم.

قال مجاهد ما معناه: هو قول الرجل: «هذا مالي، ورثته عن آبائي»[1].

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ٣٢٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره (١٢٦٢١).

الآية عامة، وفسرها مجاهد صاحب ابن عباس بهذا التفسير؛ يعني: أن الله أنعم عليك بهذا المال وساقه إليك فأنت ورثته من أبيك وجدك، فمن الذي خوله جدك وأباك، ثم من الذي أبقاه في أيديهم حتى وفاتهم، ومن الذي نقله إليك منهم؟ ألم يكن الله؟! فكيف تنسب هذه النعم إلى أبيك وجدك؟! فكان ينبغي أن تقابل هذا بالشكر؛ حيث من عليك وتفضل عليك وعلى آبائك وأجدادك قبلك، فيكون ذلك أحرى للشكر ولصرف هذه النعم في مرضاة الله، بدلا من أن تنسبها إلى أبيك وجدك أو إلى فلان وفلان، هذا هو المعنى، وهو مثل قوله تعالى: ﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً ﴾ [فصلت: ٥٠]: «أنا محقوق به، هذا بعملي، أنا جدير به، هذا بفضل ذكائي ومعرفتي بوجوه المكاسب، وما ينبغي شراؤه وما لا ينبغي»، هذا من كفر النعمة، ثم على سبيل التنزل: لو كان هذا بذكائك، من الذي أعطاك هذا الذكاء؟! ومن الذي عرفك بوجوه المكاسب؟!

فينبغي أن تشكر الله على تلك النعم؛ فإن هذه النعم إما أن تكون أجرا لك، أو وزرا عليك، على حسب ما تصرفها فيه، كما قال تعالى: ﴿ وَبَلَوْنَٰهُم بِٱلْحَسَنَٰتِ وَٱلسَّيِّـَٔاتِ ﴾ [الأعراف: ١٦٨]؛ أي: نختبرهم بما نسدي إليهم من حسنات الدنيا هل يشكرونها؟ وهل يصرفونها في مرضاة الله؟ كما نبلوهم بالمصائب والبلايا هل يصبرون على ما حل بهم؟ فالمؤمن إن أعطي نعمة شكر، وإن أصابته ضراء صبر.

والشكر مبني على ثلاثة أركان:

الأول: التحدث بالنعم ظاهرا.

الثاني: الاعتراف بها باطنا.

الثالث: صرفها في مرضاة مسديها ومُوليها.

وقال عون بن عبد الله: يقولون: «لولا فلان لم يكن كذا»[1].

يقول: «لولا أن فلانا أشركني في هذه المساهمة لما حصل لي مال»، لا مانع أن تشكره، فمن لا يشكر الناس لا يشكر الله، لكن اشكر الله أولا، فالله الذي أمره وهيأه أن يشير عليك، ثم الرب رتب الأسباب ليحصل لك هذا الخير.

وقال ابن قتيبة: «يقولون: (هذا بشفاعة آلهتنا)»[2].

كالمشركين عندما يرتفع عنهم الضرر يقولون: «هذا بسبب أصنامنا»، ولم يعلموا أنهم هم وأصنامهم في جهنم جميعا، ﴿إِنَّكُمْ وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ أَنتُمْ لَهَا وَٰرِدُونَ﴾ [الأنبياء: ٩٨]، العابد والمعبود ما عدا الملائكة والصالحين استثناهم الله -كما هو معلوم- بقوله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ سَبَقَتْ لَهُم مِّنَّا ٱلْحُسْنَىٰٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ عَنْهَا مُبْعَدُونَ﴾ [الأنبياء: ١٠١].

وقال أبو العباس - بعد حديث زيد بن خالد الذي فيه: إن الله -تعالى- قال: «أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ..» الحديث - وقد تقدم-: «وهذا كثير في الكتاب والسنة، يذم- سبحانه- من يضيف إنعامه إلى غيره، ويشرك به»[3].

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٤/ ٣٢٦)، وابن أبي حاتم في تفسيره (ح: ١٢٦٢٢).

(٢) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٤/ ٣٢٦)، شفاء العليل (ص٣٦).

(٣) ينظر: مجوع الفتاوى (٨/ ٣٣).

النبي ﷺ لما فرغ من صلاة الصبح بالحديبية على إثر مطر كان من الليل، قال لأصحابه: «هَلْ تَدْرُونَ مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟».

قالوا: الله ورسوله أعلم.

قال: «قَالَ اللهُ: أَصْبَحَ مِنْ عِبَادِي مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ، فَأَمَّا مَنْ قَالَ: مُطِرْنَا بِفَضْلِ اللهِ وَرَحْمَتِهِ، فَذَلِكَ مُؤْمِنٌ بِي وَكَافِرٌ بِالْكَوْكَبِ، وَأَمَّا مَنْ قَالَ: بِنَوْءِ كَذَا وَكَذَا، فَذَلِكَ كَافِرٌ بِي وَمُؤْمِنٌ بِالْكَوْكَبِ»(1).

فإضافة المطر إلى النجوم من إضافة النعم إلى غير الله، وإن كان الله رتب الأشياء على حسب ما تقتضيه حكمته وإرادته، لكن هي أسباب، تارة لا يأتي شيء وتارة يأتي في غير وقته؛ لأن الأمر بيده سبحانه وهو المتصرف في خلقه، وهو الذي إذا قال للشيء: (كن) يكون، ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

قال بعض السلف: هو كقولهم: «كانت الريح طيبة، والملاح حاذقا»، ونحو ذلك مما هو جار على ألسنة كثير.

لا ينبغي أن ينسب جريان السفينة إلى الملاح أو إلى الريح بل إلى الله، فإذا كنت راكبا سيارة وحصل اصطدام ولكن الله سلم فلا تقل: «سائقنا جيد، هو الذي أنقذنا، وهو الذي فعل كذا»، بل اشكر الله أولا ثم لا مانع أن تقول بعد ذلك: «السائق جيد»، لكن الذي أوجد هذا كله هو الله، فالله هو الذي هيأ لك

(١) سبق تخريجه.

وحفظك ونجاك بما حصل، لا مهارة سائق السيارة، ثم من الذي علمه؟! ومن الذي أدراه بهذا؟! لولا العناية من الله لم يستطع لا هو ولا غيره قيادة السيارة، فلا ينبغي أن تضيف نجاتك وسلامتك إلى السائق، بل أضفها إلى الله.



(٤١) باب قول الله تعالى:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]

قال ابن عباس في الآية: «الأنداد: هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل؛ وهو أن تقول: «والله وحياتك يا فلانة وحياتي»، وتقول: «لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص»، وقول الرجل لصاحبه: «ما شاء الله وشئت»، وقول الرجل: «لولا الله وفلان»، لا تجعل فيها فلانا هذا كله به شرك»(١).

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك» رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم(٢).

وقال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقا»(٣).

وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان» رواه أبو داود بسند صحيح(٤).

وجاء عن إبراهيم النخعي، أنه يكره أن يقول الرجل: «أعوذ بالله وبك»، ويجوز أن يقول: «بالله ثم بك».

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (ح: ٢٢٩).
(٢) أخرجه الترمذي في جامعه (ح: ١٥٣٥).
(٣) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (ح: ١٥٩٢٩).
(٤) أخرجه أبو داود في سننه (ح: ٤٩٨٠).

قال: ويقول: «لولا الله ثم فلان»، ولا تقولوا: «لولا الله وفلان»[(١)].



(١) أخرجه معمر في جامعه (ح: ١٩٨١١ - ١٩٨١٢).

شرح: باب قول الله تعالى:

﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١- ٢٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾: وحدوا ربكم، وأفردوه بالعبادة.

﴿الَّذِي خَلَقَكُمْ﴾: أوجدكم من العدم كما أوجد آباءكم ومن كان قبلكم.

﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾: فالله هو الذي أوجد الأرض وجعلها بهذه السعة، وأرساها بالجبال، وجعل الأنهار سارحة من قطر إلى قطر، وما فيها من أشجار ونباتات وبحار، كلها تدل على كمال قدرته سبحانه.

﴿وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾؛ أي: رفعها وبناها وزينها بما جعل فيها من نجوم وأفلاك.

﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾: أنزل الأمطار فأخرج بها من الثمرات فواكه مختلفة؛ فإن الأرض واحدة، والماء واحد، ومع هذا تجد النبات مختلفا، هذا مر وهذا حلو، وهذا أصفر وهذا أخضر، وهذا مرتفع على ساق وهذا منبسط على الأرض، والمادة واحدة -وهي: الأرض والماء والشمس-، فمن الذي كون هذا ومن الذي أوجده؟! ألم يكن الله؟!

﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾: بعدما ذكر هذه المقدمات أمرك ألا تجعل له شريكا ولا نظيرا، ﴿وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾: أنه الخالق لهذه الأشياء كلها فهو المستحق للعبادة، كما قال تعالى: ﴿أَمۡ خُلِقُواْ مِنۡ غَيۡرِ شَيۡءٍ أَمۡ هُمُ ٱلۡخَٰلِقُونَ﴾ [الطور: ٣٥]، هل خلقنا من غير خالق أم نحن الذين خلقنا أنفسنا؟!

لم يكن شيء من ذلك، إذن يتعين أن للخق خالقا خلقهم وأوجدهم، كما قيل(١):

تأمل سطور الكائنات فإنها ❁ من الملك الأعلى إليك رسائل

ويقول الشاعر(٢):

فواعجبا كيف يعصى الإله؟! ❁ أم كيف يجحده الجاحد؟!

وفي كل شيء له آية ❁ تدل على أنه واحد

الأرض وما فيها من نبات وجبال آيات، والسماء وما فيها من نجوم آيات، بل ابن آدم نفسه آية: ﴿وَفِيٓ أَنفُسِكُمۡۚ أَفَلَا تُبۡصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]، من الذي أوجد هذا الآدمي من العدم وجعل له عقلا ثابتا، وسمعا وبصرا، ولسانا ناطقا؟!

قال ابن عباس في الآية: الأنداد: هو الشرك، أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل؛ وهو أن تقول: «والله وحياتك يا فلانة وحياتي»، وتقول: «لولا كليبة هذا لأتانا اللصوص، ولولا البط في الدار لأتانا اللصوص»،

---

(١) لم أقف على قائله.
(٢) لم أقف على قائله.

وقول الرجل لصاحبه: «ما شاء الله وشئت»، وقول الرجل: «لو لا الله وفلان»، لا تجعل فيها فلانا هذا كله به شرك[1].

الله يحذرنا أن نجعل له ندا، فهذا هو الشرك، والشرك أخفى من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليل، فهل تدرك أثر النمل إذا مشى؟! هل تدرك أثره إذا مشى على صفاة سوداء - وهي الحجارة الملساء-؟! هل تدرك أثره إذا مشى على صفاة سوداء في ظلمة الليل؟!

لا تستطيع أن تميز ذلك، والشرك أخفى من ذلك، فقد يتكلم الإنسان بالكلمة الشركية لا يلقى لها بالا، ولا يدري نتيجتها وماذا توصل إليه من الشرك، ولهذا قيل للنبي ﷺ: يا رسول الله قلت: «إن الشرك أخفى من دبيب النمل»، فكيف نجتنبه؟!

قال: «قُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَعُوذُ بِكَ مِنْ أَنْ نُشْرِكَ بِكَ شَيْئًا نَعْلَمُهُ، وَنَسْتَغْفِرُكَ لِمَا لَا نَعْلَمُ»[2].

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (ح: ٢٢٩)، وإسناده جيد.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ح: ٣٠١٦٣)، وأحمد في مسنده (ح: ١٩٦٠٦)، والطبراني في الأوسط (ح: ٣٤٧٩) من حديث عبد الملك بن أبي سليمان، عن أبي علي -رجل من بني كاهل-، عن أبي موسى، به مرفوعا.

ولا يصح؛ أبو علي لا يعرف.

وأخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧١٦)، وابن السني (ح: ٢٨٦)، وأبو يعلى (١/ ٦٠-٦٢)، وابن بطة (٢/ ٧٢٣) من حديث أبي بكر رضي الله عنه وإسناده ضعيف، تفرد به ليث بن أبي سليم وهو ضعيف، وفي بعض طرقه جهالة واضطراب.

ولطريق ليث متابعة عند أبي نعيم في الحلية (٧/ ١١٢)، وإسناد أبي نعيم ساقط؛ فيه: محمد بن كثير، منكر الحديث. ينظر: المطالب العالية (١٣/ ٤١٨)، ومجمع الزوائد (١٠/ ٢٢٤). =

قد يقول قائل: ابن عباس فسر الآية بالشرك الأصغر، والآية نزلت في الشرك الأكبر؟

نقول: نعم، لهذا نظائر في القرآن؛ والسلف يستدلون على النهي عن الشرك الأصغر بالآيات التي نزلت في الشرك الأكبر بجامع أن الجميع شرك، فالشرك الأكبر ينافي التوحيد بالكلية، والأصغر ينافي كماله الواجب، فجاز تفسير الآية التي نزلت في الشرك الأكبر بما يقع من الإنسان من الشرك الأصغر.

(هو أن تقول: والله وحياتك): هذا لا يجوز؛ فالحلف لا يصلح إلا بالله.

(ولولا كليبة هذا لأتانا اللصوص)؛ أي: أن اللص لما جاء نبحت الكلبة فانتبه صاحب البيت وأخذ سلاحه يحمي مواشيه وبيته، فنسب الفضل إلى الكيبة، لكن من الذي علمها؟!

الله -سبحانه وبحمده-، وهذا يندرج تحت تفسير الآية السابقة في الباب السابق، فالله ينعم على العبد فينسب تلك النعمة إلى غيره.

والكلب فيه مصلحة ومنفعة، وفيه دناءة ومضرة وخسة، والله جعل مثل

= وله شاهد من حديث عائشة أخرجه البزار (كشف الأستار ٣٥٦٦)، والعقيلي (الضعفاء ٣/ ٦٠) من حديث عبد الأعلى بن أعين -تفرد به-، عن يحيى بن أبي كثير، عن عروة، عن عائشة، به مرفوعا.

ولا يصح، عبد الأعلى ضعيف الحديث، وقد أنكره عليه العقيلي.

وقال الدارقطني: «الحديث ليس بثابت». ينظر: العلل المتناهية (٢/ ٣٤٠).

من حمل العلم ولم يعمل به كمثل الكلب: ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ ١٧٥ وَلَوۡ شِئۡنَا لَرَفَعۡنَٰهُ بِهَا وَلَٰكِنَّهُۥٓ أَخۡلَدَ إِلَى ٱلۡأَرۡضِ وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُۚ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ ٱلۡكَلۡبِ إِن تَحۡمِلۡ عَلَيۡهِ يَلۡهَثۡ أَوۡ تَتۡرُكۡهُ يَلۡهَثۚ﴾[الأعراف: ١٧٥- ١٧٦].

فالكلب من أخس الحيوانات وأدناها وأرذلها؛ فلا يوجد في الحيوانات من إذا تقيأ عاد يأكل قيئه إلا الكلب، ولهذا قال النبي ﷺ: «الْعَائِدُ فِي هِبَتِهِ كَالْكَلْبِ، يَقِيءُ ثُمَّ يَعُودُ فِي قَيْئِهِ»[(١)].

والكلب -أيضًا- إذا جلس فانظر إلى رأسه يجعله تحت دبره، وهذا لا يوجد إلا فيه لخسته.

والكلب فيه نهاية الشره؛ فإنك لو ألقيت عليه ولو حجرا ذهب يعضه يظنه شيئا يؤكل، من شدة شرهه.

وهو دائما ينظر إلى الأرض يتطلب شيئا.

إلا أن فيه هذه المصلحة التي ذكرها ابن عباس، وهي: أنه ربما حمى أهله إذا جاء رجل غريب، وربما افترس من أراد أن يأخذ مال أهله من غنم أو نحو ذلك.

(ولولا البط في الدار لأتى اللصوص): هو طائر يجعله الناس في بيوتهم، إذا دخل البيت رجل غريب صوت ينبههم بأنه دخل رجل غريب فينتبهوا هل هو

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٥٨٩)، ومسلم في صحيحه (ح: ١٦٢٢) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

لص أم لا؟ ثم هم يضيفون النعمة إليه وهذا من الشرك الأصغر.

(لا تجعل فيها فلانا، هذا كله به)؛ أي: بالله (شرك)؛ لأن الرب هو المنعم المتفضل، وأنت تنسب النعم إلى غيره!، هو الذي أوجد هذه الأسباب، وهو الذي ربط الأسباب بمسبباتها، فينبغي أن تشكره سبحانه، وألا تشرك معه غيره في نعمه.

وعن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: أن رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قال: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللهِ فَقَدْ كَفَرَ أَوْ أَشْرَكَ» رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم[1].

---

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده (٣/ ٤١٢)(ح: ٢٠٠٨)، ومن طريقه ابن الجعد في مسنده (ح: ٨٩٥)، وأحمد في مسنده (ح: ٤٩٠٤)، وعبد الرزاق في مصنفه (ح: ١٥٩٢٦)، والحاكم في المستدرك (ح: ٧٨١٤) (١/ ١١٧) من طريق منصور بن المعتمر والأعمش، عن سعد بن عبيدة، عن ابن عمر، به مرفوعا.

وأخرجه الإمام أحمد في مسنده (ح: ٦٠٧٢)، وأبو داود في سننه (ح: ٣٢٥١)، والترمذي في جامعه (ح: ١٥٣٥)، وأبو عوانة في مستخرجه (٤/ ٤٤)، وابن حبان في صحيحه (ح: ٤٣٥٨)، والحاكم في المستدرك (ح: ٧٨١٤)، والبيهقي في السنن الكبرى (ح: ١٩٨٢٩) من طريق الحسن بن عبيد الله، عن سعد بن عبيدة، به.

ورواه البزار في مسنده (ح: ٥٣٩٠)، وأبو عوانة (٤/ ٤٤)، والطحاوي في (شرح المشكل ٢/ ٢٩٩) من حديث شعبة، عن منصور بن المعتمر، عن سعد، به.

ورواه الحاكم (١/ ١١٧) من طريق سعيد بن مسروق، عن سعد، به.

ثم اختلف فيه على منصور، فرواه عنه شعبة كما عند الإمام أحمد (ح: ٥٥٩٣)، ومن طريقه البيهقي (١٠/ ٥٢).

وجرير بن عبد الحميد كما في (شرح المشكل ٢/ ٣٠٠).

وشيبان بن عبد الرحمن كما في (الحلية ٩/ ٢٥٣).

الثلاثة عن منصور، عن سعد بن عبيدة، عن رجل من كندة، عن ابن عمر، به مرفوعا. =

هذا مروي عن ابن عمر لا عن عمر رضي الله عنهما[1]، ومعناه يتلخص في مسائل:

المسألة الأولى: حكم الحلف بغير الله، وفيه تفصيل: إن كان الحالف حلف بغير الله مما يجري على لسانه بأن قال: «وحياة فلان»، «وحياة الرسول» وما أشبه ذلك، فهذا كفر أصغر لا يخرج من الملة، إذا كان جرى على لسانه يريد تأكيد المحلوف عليه، وهو ينافي كمال التوحيد.

أما إذا قصد بمحلوفه تعظيما مثل تعظيم الله فهذا من الشرك الأكبر الذي يخرج صاحبه من الملة، فيستتاب فإن تاب وإلا قتل، ذكر هذا التفصيل الإمام النووي وغيره[2].

المسألة الثانية: قد تقول: ما الجواب عما جاء في بعض الأحاديث كقوله ﷺ: «أَفْلَحَ وَأَبِيهِ إِنْ صَدَقَ»[3]؟

نقول: تنوعت أجوبة العلماء عن هذا، فمن قائل: إن هذا لا يراد به القسم؛

= وبهذه الرواية أعل الحديث الطحاوي والبيهقي، ورد ذلك الإعلال ابن الملقن في البدر (٩/ ٤٦٠). وينظر: علل الدارقطني (١٣/ ٢٣٣).

تنبيه: قد تعقب الشراح والمخرجون والمحققون المصنف في قوله: «عن عمر» وقالوا: بل هو عن ابن عمر.

ثم إني -بفضل الله وحده- وقفت على الحديث من مسند عمر بن الخطاب أمير المؤمنين رضي الله عنه، وقد رواه الإمام أحمد في مسنده (ح: ٣٢٩) و(ح: ٣٣٥)، وأصله ما في الصحيحين: «إن الله ينهاكم عن أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت».

(١) ينظر: التنبيه الذي سبق في تخريج الحديث.

(٢) ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم (١١/ ١٠٤).

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ١١) من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله عنه.

وإنما هو جار على اللسان، وكانت العرب تعتاده، فإذا أريد القسم فهذا الذي لا يجوز، لكن هذا جواب ليس بمستقيم.

وقال بعضهم: أراد التأكيد لا القسم.

والقول الصحيح: أن هذا كان يقال قبل وكان جائزا، لكنه نسخ، وجاءت الأحاديث في النهي عن الحلف بغير الله، مهما كانت الحالة، كما في حديث ابن عمر أن النبي ﷺ مر بركب وفيهم عمر وكان يحلف بأبيه جريا على عادتهم، فقال الرسول ﷺ: «أَلَا إِنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَنْهَاكُمْ أَنْ تَحْلِفُوا بِآبَائِكُمْ، فَمَنْ كَانَ حَالِفًا فَلْيَحْلِفْ بِاللهِ أَوْ لِيَصْمُتْ»(١).

المسألة الثالثة: قد تقول: ذكر الحنابلة في كتبهم جواز الحلف بالنبي ﷺ، ويروون في ذلك حديثا عن النبي ﷺ، وهذا القول هو المشهور من مذهب أحمد(٢)، فما الجواب؟!

نقول لك: هذا مروي عن الإمام أحمد، وهو موجود في كتب المتأخرين، لكن الصحيح أنه لا يجوز الحلف إلا بالله، لا بالنبي ﷺ ولا بغيره كما هو قول جمهور العلماء، وكما هي الرواية الثانية عن أحمد، وكما تدل عليه الأحاديث الكثيرة، ولا التفات إلى ما قاله صاحب «كشاف القناع»، أو صاحب «المنتهى»،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٦٧٩)، ومسلم في صحيحه، واللفظ له (ح: ١٦٤٦).

(٢) وهو من مفردات المذهب. ينظر: الفروع (١٠/ ٤٣٧)، الإنصاف (٢٧/ ٤٦٦)، شرح المنتهى (٦/ ٣٧٦)، المنح الشافيات (٢/ ٧٥٨).

أو غيرهما من متأخري الحنابلة المجوزين للحلف بالنبي ﷺ؛ فإن الحق أحق أن يتبع، والدليل هو الواجب اتباعه واعتماده، كيف وفي الحديث: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)، وكما في قول ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقا»[1].

فالحلف لا يكون إلا بالله، والإمام أحمد لم يقل بجواز الحلف بالنبي ﷺ كما قرره ابن تيمية[2]، وغيره من المحققين.

المسألة الرابعة: قد تقول: أقسم الرب بمخلوقاته في القرآن؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلذَّٰرِيَٰتِ ذَرۡوٗا﴾ [الذاريات: ١]، أي: الرياح، ﴿وَٱلۡمُرۡسَلَٰتِ عُرۡفٗا﴾ [المرسلات: ١]، ﴿وَٱلنَّجۡمِ إِذَا هَوَىٰ﴾ [النجم: ١]، ﴿وَٱلنَّٰزِعَٰتِ غَرۡقٗا﴾ [النازعات: ١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلۡبُرُوجِ﴾ [البروج: ١]، ﴿وَٱلضُّحَىٰ ۝١ وَٱلَّيۡلِ إِذَا سَجَىٰ﴾ [الضحى: ١-٢]، ﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا﴾ [الشمس: ١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَٱلطَّارِقِ﴾ [الطارق: ١]، ﴿وَٱلسَّمَآءِ ذَاتِ ٱلرَّجۡعِ﴾ [الطارق: ١١]، وغير ذلك من الآيات، أليس في هذا دليل على جواز الحلف بغير الله؟

نقول لك: لا، ليس فيه دليل على ذلك؛ فإن الله يحلف بما شاء من خلقه؛ ليعرفنا عظيم قدر هذا المحلوف به من الرياح والشمس والليل والنهار، وأنه آية من آيات الله، أما نحن المخلوقين فلا نحلف إلا بخالقنا.

هذا كله مستفاد من حديث: (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك)، ولكن ترى كثيرا من عباد القبور عندما تقول له: «احلف بالله» فإنه يبادر إلى الحلف،

---

(١) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (ح: ١٥٩٢٩) من حديث أبي سلمة.

(٢) ينظر: مجموع الفتاوى (١/ ٢٠٤، ٣٣/ ١٣٦).



ولو أردت أن يحلف لك خمسين يمينا لم يتوقف، ولو قلت له: «احلف بعبد القادر، أو بمشهد أبي حنيفة، أو علي» فإنه لا يمكن أن يحلف أبدا وهو كاذب؛ ظنا منه أن المحلوف به يوقع عليه الشر والبلاء في ماله وبدنه وأهله إذا حلف به كاذبا! يعظم المخلوق أعظم من تعظيمه لله!، قد وقر في قلبه الشرك بالله.

وإذا جرى على لسان الإنسان شيء من هذا من غير قصد، فينبغي أن يجدد توحيده، فقد قال النبي ﷺ: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللَّاتِ وَالعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لاَ إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[(١)]؛ لأن «لا إله إلا الله» تبطل وتنفي الحلف باللات والعزى، فكلمة التوحيد تثبت العظمة والألوهية لله وحده لا شريك له.

وقال ابن مسعود: «لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقا»[(٢)].

الحلف بالله كاذبا هو اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في النار، وهي من الكبائر؛ ولهذا ليس لها كفارة؛ لأن جرم هذه اليمين الكاذبة أعظم وأكبر من أن تكفرها الكفارة، وإنما على الإنسان أن يتوب ويستغفر؛ لأن أمرها عظيم، وقد جاء في حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن رسول الله ﷺ قال: «ثَلَاثَةٌ لَا يَنْظُرُ اللهُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ -وذكر منهم-: وَرَجُلٌ جَعَلَ اللهَ بِضَاعَةً، لَا يَشْتَرِي إِلَّا بِيَمِينِهِ، وَلَا يَبِيعُ إِلَّا بِيَمِينِهِ»[(٣)]، دائما يحلف ويعلم أنه كاذب، إذا كان هذا حال من حلف بالله كاذبا فإن

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٤٨٦٠)، ومسلم في صحيحه (ح: ١٦٤٧) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (ح: ٦١١١).

ابن مسعود يقول: «لأن أحلف بالله كاذبا - على ما في ذلك من الجرم العظيم- أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقا» لماذا؟!

لأجل أن اليمين بالله تعظيم له فهو توحيد -وإن شانه الكذب-، والحلف بغيره صادقا شرك- وإن كانت فيه حسنة الصدق-، لكن حسنة الصدق مغمورة في سيئة الشرك، وسيئة الكذب مغمورة في حسنة التوحيد، هذا معنى قول ابن مسعود رضي الله عنه، فليس في قلبه أعظم ولا أجل من الله.

وعن حذيفة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان» رواه أبو داود بسند صحيح(١).

«لا تقولوا: ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»: لك مشيئة، لا نسلبك المشيئة خلافا للجهمية المجبرة الذين يرون أن ليس للعبد تصرف وليس له مشيئة، وإنما أفعاله مجبور عليها من الله، من جنس الشجرة التي تقلبها الرياح، هذا قول الجهمية الجبرية، وهذا كما هو معروف من أبطل الباطل، كما يأتي بيانه في آخر الكتاب -إن شاء الله-.

فالحديث يدل على أن لك مشيئة، وأنك تفعل الشيء بإرادتك، وتترك الشيء بإرادتك، غير أن مشيئتك تابعة لمشيئة الله، قال الله: ﴿لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [التكوير: ٢٨- ٢٩]، فإذا فعلت جرما فأنت مؤاخذ به؛ لأنك فعلته باختيارك ومشيئتك، هذا مذهب أهل

---

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده (١/ ٣٤٤)- ومن طريقه أبو داود في سننه (ح: ٤٩٨٠)-، وأحمد في مسنده (ح: ٢٣٢٦٥)، وابن أبي شيبة في مصنفه (ح: ٢٧٢٢٦).

السنة والجماعة كما يأتي بيانه في موضعه - إن شاء الله-.

لكن الغرض من هذا هو قول: «ما شاء الله وشاء فلان»، فإن الرسول ﷺ نهى عنه، وإن كان لفلان مشيئة -كما قلنا- لكن النهي هو لأجل الواو؛ لأن الواو في لغة العرب تقتضي مطلق الجمع والاشتراك، فكأن مشيئة فلان من جنس مشيئة الله -سبحانه-، فلما كانت الواو تفيد ذلك المعنى نهى عنه الرسول ﷺ، كل ذلك من أجل حماية التوحيد.

«ولكن قولوا: ما شاء الله ثم شاء فلان»؛ لأن (ثم) لا تقتضي الجمع والاشتراك، بل تقتضي الترتيب والتأخير، فمشيئة فلان متأخرة عن مشيئة الله.

وبهذا نعرف أن الألفاظ التي تؤدي إلى نقص التوحيد ينبغي التحرز منها.

وجاء عن إبراهيم النخعي، أنه يكره أن يقول الرجل: «أعوذ بالله وبك»، ويجوز أن يقول: «بالله ثم بك».

قال: ويقول: «لولا الله ثم فلان»، ولا تقولوا: «لولا الله وفلان»[1].

الواو تقتضي مساواة الثاني بالأول، بخلاف (ثم) فهي تقتضي أن الثاني غير مساو للأول بل متأخر عنه.

---

(١) أخرجه معمر في جامعه (ح: ١٩٨١١ - ١٩٨١٢)، وابن أبي الدنيا في الصمت (ح: ٣٤٤).

(٤٢) باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله» رواه ابن ماجه بسند حسن[١].



(١) أخرجه ابن ماجه في سننه (ح: ٢١٠١).

شرح: باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بالله

أي: ما يترتب على ذلك من الوعيد، فمن حلف له بالله فعليه أن يرضى وينقاد ويسلم؛ لأن من حلف له بالله ولم يرض دل فعله على نقص الإيمان في قلبه.

عن ابن عمر رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: «لا تحلفوا بآبائكم، من حلف بالله فليصدق، ومن حلف له بالله فليرض، ومن لم يرض فليس من الله». رواه ابن ماجه بسند حسن[1].

النبي ﷺ مر بركب يحلفون بآبائهم، فقال: (لا تحلفوا بآبائكم)؛ أي: ولا بغير آبائكم من سائر المخلوقين.

(من حلف بالله فليصدق): هذا يدل على وجوب الصدق فيما يقوله المسلم دائما، فالله حث على الصدق، ورغب فيه، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [التوبة: ١١٩]، وفي الحديث: «إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يَكُونَ صِدِّيقًا، وَإِنَّ الْكَذِبَ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ»[2]،

---

(١) أخرجه ابن ماجه في سننه، باختلاف يسير (ح: ٢١٠١)، والبيهقي في سننه، باختلاف يسير (١٠/ ٣٠٥) من حديث محمد بن عجلان، عن نافع، عن ابن عمر، به.
وظاهر إسناده الحسن، وابن عجلان صدوق؛ وقد رواه الليث بن سعد ومالك بن أنس عن نافع، عن ابن عمر كما عند الشيخين بلفظ: «إن الله ينهاكم عن أن تحلفوا بآبائكم، فمن كان حالفا فليحلف بالله أو ليصمت»، ولفظ ابن عجلان تتداعى الهمم على نقله، فالله أعلم.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٦٠٩٤)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٦٠٧) من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه.

فيحرم على الإنسان أن يكذب مطلقا، سواء حلف أو لم يحلف، فإن اقترن كذبه باليمين فهو أشد وأعظم، وهذه هي اليمين الغموس التي تغمس صاحبها في النار، كما أنه يجب عليه أن يصدق في جميع أموره وإن لم يحلف، فإن حلف كان أوجب، فلا يجوز لأحد أن يحلف بالله وهو كاذب، ولكن مهما أمكن أن تدفع عن نفسك اليمين ولو كنت صادقا فهو المتعين؛ لقوله تعالى: ﴿وَٱحۡفَظُوٓاْ أَيۡمَٰنَكُمۡۚ﴾ [المائدة: ٨٩]، وقد فسرت الآية على وجهين:

الوجه الأول: أي: لا تبذلوا اليمين في كل شيء، وقِّر الله، وليكن الله أجل في قلبك وأعظم من أن تحلف به عند عدم الحاجة.

الوجه الثاني: احفظوا أيمانكم إذا صدرت منكم بالتكفير، ولا تتركها بلا تكفير، بل إذا حلفت وحنثت فعليك أن تكفر، هذا هو حفظ اليمين، وقد قال النبي ﷺ: «مَنِ اقْتَطَعَ حَقَّ امْرِئٍ مُسْلِمٍ بِيَمِينِهِ، فَقَدْ أَوْجَبَ اللهُ لَهُ النَّارَ، وَحَرَّمَ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ».

قالوا: يا رسول الله، وإن كان شيئا يسيرا؟

قال: «وَإِنْ قَضِيبًا مِنْ أَرَاكٍ»[1]، فاليمين مهما كانت الحالة لا ينبغي للإنسان أن يبذلها دائما في أقواله ومعاملاته، وإذا اضطر إليها عند القاضي والمحاكمات فعليه أن يتقي الله ولا يحلف إلا وهو صادق، فمتى حلف وهو كذاب فحري أن يلقى الله وهو عليه غضبان[2]؛ لأنه بيمينه الفاجرة الكاذبة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ١٣٧) من حديث أبي أمامة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ١٣٨) من حديث ابن مسعود رضي الله عنه.

يقتطع مال امرئ مسلم، وهذا هو الظلم بعينه؛ كما في الحديث: «مَنِ اقْتَطَعَ شِبْرًا مِنَ الْأَرْضِ ظُلْمًا، طَوَّقَهُ اللهُ إِيَّاهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ سَبْعِ أَرَضِينَ»[(١)]، سواء اقتطعه بيمينه الظالمة، أو ببينته الفاجرة؛ بخلاف ما إذا اقترنت أقواله بالصدق وتعظيم الله فإنها تمنعه من أن يحلف بالله وهو كاذب؛ لعلمه أن الله مطلع عليه، سامع لما يقول، عالم بما يفعل، فيكون خائفا من عقوبة الله أن يغمسه الله في النار أو أن يعجل له العقوبة في الدنيا.

(ومن حلف له بالله فليرض): يعني: ينقاد ولا يكون في قلبه شيء، ولاسيما في الخصومات إذا لم يكن عند المدعي بينة فليس له سوى اليمين على المدعى عليه؛ لقضاء النبي ﷺ باليمين على المدعى عليه[(٢)].

و(البينة): اسم لما بين الحق ووضحه، سواء كان بشاهدين، أو شاهد ويمين، أو شاهد وامرأتين، أو غير ذلك، فالبينة أعم مما اصطلح عليه الفقهاء[(٣)].

جاء في «الصحيح» عن عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ أنه رأى رجلا يسرق فحلف السارق

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٤٥٢)، ومسلم في صحيحه، واللفظ له (ح: ١٦١٠) من حديث سعيد بن زيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٥١٤)، ومسلم في صحيحه (ح: ١٧١١) من حديث ابن عباس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تيمية، والعلامة ابن القيم، وشيخ المالكية القاضي ابن فرحون، والحافظ ابن حجر -رحمهم الله-. ينظر: مجموع الفتاوى (٣٥/ ٣٩٤)، والطرق الحكمية (١/ ٦٤- ٦٥)، إعلام الموقعين (١/ ٧١)، وتبصرة الحكام (١/ ٢٤٠)، والفتح (١٣/ ١٦٠).



بالله أنه ما سرق، فقال عيسى: «آمَنْتُ بِاللهِ، وَكَذَّبْتُ عَيْنِي»(١)؛ وذلك لأن عيسى لا يتصور أن أحدا يحلف بالله كاذبا لعظمة الله في قلبه، مع أنه رآه بعينه، لكن اتهم عينه، فقال: «آمَنْتُ بِاللهِ، وَكَذَّبْتُ عَيْنِي».



(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٣٤٤٤)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٣٦٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٤٣) باب قول: (ما شاء الله وشئت)

عن قتيلة، أن يهوديا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون: «ما شاء الله وشئت»، وتقولون: «والكعبة!»، فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: «ورب الكعبة»، وأن يقولوا: «ما شاء الله ثم شئت»، رواه النسائي وصححه[(١)].

وله -أيضًا- عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلا قال للنبي ﷺ: «ما شاء الله وشئت»، فقال: «أجعلتني لله ندا؟! ما شاء الله وحده»[(٢)].

ولابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها قال: رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود، فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله.

قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد.

ثم مررت بنفر من النصارى فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله.

قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد.

فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته. قال: «هل أخبرت بها أحدا؟».

قلت: نعم.

---

(١) أخرجه النسائي في سننه الكبرى (ح: ٤٦٩٦).

(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (ح: ١٣٠٠٥)، من حديث عبدالله بن عباس رضي الله عنهما.

قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد؛ فإن طفيلا رأى رؤيا، أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده»[1].



(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده، باختلاف يسير (ح: ٦٥٢)، وأحمد في مسنده ، باختلاف يسير (ح: ٢٠٦٩٤).

شرح: باب قول: «ما شاء الله وشئت»

عن قتيلة، أن يهوديا أتى النبي ﷺ فقال: إنكم تشركون، تقولون: «ما شاء الله وشئت»، وتقولون: «والكعبة!».

فأمرهم النبي ﷺ إذا أرادوا أن يحلفوا أن يقولوا: «وَرَبِّ الْكَعْبَةِ»، وأن يقولوا: «مَا شَاءَ اللهُ ثُمَّ شِئْتُ». رواه النسائي وصححه(١).

دل هذا الحديث على ما دلت عليه الأحاديث السابقة من النهي عن الشرك الأصغر، فاليهودي عرف أن قول: (ما شاء الله وشئت) شرك، وقد أقره النبي ﷺ ولم ينكر عليه، بل نهى عن ذلك؛ لأن الواو تقتضي مطلق الجمع والاشتراك، وأن مشيئة المخلوق مثل مشيئة الله، والمخلوق له مشيئة لكنها تابعة لمشيئة الله -كما تقدم-، لكن النهي إنما هو لوجود الواو المقتضية لمطلق الجمع بين مشيئة المخلوق ومشيئة الله، فما ظنك بمن قال: «أنا تائب إلى الله وإليك»؟! أو: «أرجو الله وأرجوك»؟! هذا أشد.

(ما شاء الله ثم شئت): قد تقول: «ثم» أليست مثبتة للاشتراك في المشيئة بين العبد وبين الله؟

نقول: بلى، لكنها تقتضي الترتيب والتأخير لا الجمع، فمشيئة الله مقدمة على مشيئة العبد، كما تقول: «جاء زيد ثم عمرو»، هذا الكلام يقتضي تأخر مجيء عمرو عن مجيء زيد، وسبق مجيء زيد على مجيء عمرو، بخلاف ما لو قلت: (جاء زيد وعمرو).

---

(١) أخرجه النسائي في سننه الكبرى (ح: ٤٦٩٦).

في الحديث فوائد:

أولا: فيه أن اليهودي عرف الحق، ومع هذا لم ينفعه؛ لأنه لم يعمل به، خلافا لغلاة المرجئة القائلين أن التصديق يكفي، فإذا صدق الإنسان حصل له الإيمان وإن تخلف العمل.

ثانيا: فيه دليل على قبول الحق ممن جاء به، فكل من جاءك بحق فينبغي أن تقبله وإن كان عدوك، وإن كان كافرا، لا ينبغي أن ترده، بل تتلقاه بالقبول والإذعان والتسليم؛ فإن رسول الله ﷺ قبل قول اليهودي مع كونه كافرا.

ثالثا: أن الحلف بغير الله شرك -كما تقدم-؛ لأن اليهودي قال: (إنكم تشركون)، وأقره الرسول ﷺ، ولم يقل: (كذبت).

رابعا: أن الحق متى علمته ينبغي أن تعمل به مباشرة؛ فإن الرسول ﷺ نهاهم مباشرة عن أن يحلفوا بغير الله، ونهاهم عن أن يقولوا: (ما شاء الله وشئت)، وأمرهم أن يقولوا: (ما شاء الله ثم شئت)، ونهاهم عن قول: (والكعبة)، وأمرهم بقول: (ورب الكعبة).

وله -أيضًا- عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن رجلا قال للنبي ﷺ: «ما شاء الله وشئت»، فقال: «أَجَعَلْتَنِي لِلَّهِ نِدًّا؟! مَا شَاءَ اللهُ وَحْدَهُ»(١).

---

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (ح: ١٣٠٠٥)، هذا الحديث جاء من حديث الأجلح، عن يزيد بن الأصم، عن ابن عباس رضي الله عنهما.
وفيه لين؛ فإن الأجلح -وهو عبد الله بن حجية الكوفي الشيعي - وثقه ابن معين (تاريخ ابن معين للدوري ٣/ ٢٦٩)، والعجلي (ثقاته ص٥٧)، وقال ابن عدي (٢/ ١٤٠): «هو عندي مستقيم الحديث صدوق»، ورمز له الحافظ في التجريد من اللسان (٩/ ٢٥٢) بأنه ممن اختلف فيه والعمل على توثيقه. =

(وله): أي: النسائي.

انظر في هذا الحديث إلى حماية الرسول ﷺ للتوحيد، بل وحمايته حمى التوحيد؛ فإنه أنكر عليه أشد الإنكار لما قال له: «ما شاء الله وشئت»، ولا شك

= لكن ضعفه أبو داود (سؤالات الآجري ص١٧٩)، والنسائي (الكبرى ٣/ ٤٠٢)، وابن سعد (الطبقات ٦/ ٣٥٠)، وأبو حاتم (الجرح والتعديل ٢/ ٣٦٤)، وابن حبان (المجروحين ١/ ١٧٥)، وأسرف الجوزجاني (أحوال الرجال ص٥٩) فقال: «مفترى»، وهذه عادته في المبالغة في الحط على الرواة الشيعة، نبه على ذلك الحافظ. ينظر: بذل الماعون (ص١١٧).

ثم إنه قد اختلف عليه: فرواه من هذا الوجه عن الأجلح:

ابن المبارك في مسنده (ح: ١٨١).

وهشيم عند الإمام أحمد (ح: ١٨٣٩).

وأبو معاوية عند الإمام أحمد -أيضًا- (ح: ١٩٦٤).

والثوري عند الإمام أحمد (ح: ٢٥٦١)، والبخاري في الأدب المفرد (ح: ٧٨٣)، وابن عدي (٢/ ١٤٠)، وابن السني في عملل اليوم والليلة (ح: ٦٦٧)، والطبراني (ح: ١٣٠٠٥)، وأبي نعيم في الحلية (٤/ ٩٩).

ويحيى القطان عند الإمام أحمد (ح: ٣٢٤٧).

وعيسى بن يونس عند النسائي في الكبرى (ح: ١٠٧٥٩).

وعلي بن مسهر عند ابن أبي شيبة (ح: ٢٧٢٢٧).

وجعفر بن عون عند البيهقي (٣/ ٣٠٧).

وشيبان بن عبد الرحمن النحوي عند الطحاوي في شرح مشكل الآثار (١/ ٢١٨).

كلهم عن الأجلح، عن يزيد، عن ابن عباس.

وخالف التسعة: القاسم بن مالك – وهو صدوق-، فرواه عن الأجلح، عن أبي الزبير، عن جابر، به، كما عند النسائي في الكبرى (ح: ١٠٧٥٨).

قال أبو حاتم (العلل لابن أبي حاتم ٥/ ٦٠٩): «هذا حديث منكر، إنما يرويه الأجلح، عن يزيد بن الأصم، عن ابن عباس، عن النبي ﷺ».

أن للرسول ﷺ مشيئة، ولكن مشيئته تابعة لمشيئة الله، فحسم ﷺ مادة الشرك بهذا الإنكار الشديد.

ولابن ماجه عن الطفيل أخي عائشة لأمها قال: رأيت كأني أتيت على نفر من اليهود، فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: عزير ابن الله.

قالوا: وإنكم لأنتم القوم لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد.

ثم مررت بنفر من النصارى فقلت: إنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: المسيح ابن الله.

قالوا: وإنكم لأنتم القوم، لولا أنكم تقولون: ما شاء الله وشاء محمد.

فلما أصبحت أخبرت بها من أخبرت، ثم أتيت النبي ﷺ فأخبرته، قال: «هل أخبرت بها أحدا؟».

قلت: نعم.

قال: فحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: «أما بعد؛ فإن طفيلا رأى رؤيا، أخبر بها من أخبر منكم، وإنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها، فلا تقولوا: ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا: ما شاء الله وحده»[1].

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مسنده (ح: ٦٥٢)، وأحمد في مسنده (ح: ٢٠٦٩٤)، وابن أبي عاصم في الآحاد والمثاني (ح: ٢٧٤٣)، والطبراني في المعجم الكبير (ح: ٨٢١٤)، والحاكم في المستدرك (ح: ٥٩٤٥)، من طريق حماد بن سلمة.
وأحمد في مسنده (ح: ٢٣٣٨٢)، والدارمي في سننه (ح: ٢٧٤١)، والطبراني في المعجم الكبير (ح: ٨٢١٤)، وأبو يعلى في مسنده (ح: ٤٦٥٥) من طريق شعبة. =

(إنكم لأنتم القوم)؛ أي: نعم القوم أنتم فإنكم أهل كتاب، إلا أن فيكم خصلة قبيحة شركية ينزه الرب عنها حيث تقولون: (عزير ابن الله).

فرد عليه اليهود فقالوا: يا أصحاب محمد نعم القوم أنتم، إلا أنكم تقولون: (ما شاء الله وشاء محمد).

(ثم مررت بنفر من النصارى)؛ أي: بجماعة من النصارى، قال لهم مثل ما قال للنفر من اليهود، ورد النفر من النصارى على الطفيل بمثل ما رد به النفر من اليهود.

وفي الحديث دليل على أن الرؤيا قد تكون سببا لتشريع بعض الأحكام؛

= وابن ماجه في سننه (ح:٢١١٨)- وساق إسناده دون متنه- من طريق أبي عوانة اليشكري.
والحاكم في المستدرك (ح: ٣٥٩٤٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ح: ٢٩٢) من طريق عبيد الله بن عمرو.
والطبراني في المعجم الكبير (ح: ٨٢١٥) من طريق زيد بن أبي أنيسة.
الخمسة عن عبد الملك بن عمير، عن ربعي بن حراش، عن الطفيل، به.
وخالفهم سفيان بن عيينة كما عند الإمام أحمد (ح: ٢٣٣٣٩)، والبزار في مسنده (ح: ٢٨٣٠)، والنسائي في عمل اليوم والليلة (ح:٩٨٤)، وابن ماجه في سننه (٢١١٨)، والبيهقي في الأسماء والصفات (ح: ٢٩٢) فرواه عن عبد الملك، عن ربعي، عن حذيفة بن اليمان به مرفوعا.
ورواه معمر عن عبد الملك فاضطرب فيه فأرسله مرة عن عبد الملك، كما في رواية عبد الرزاق عنه (جامع معمر ١٩٨١٣)، ورواه في الأخرى عن عبد الملك، عن جابر بن سمرة، به، كما في رواية هشام بن يوسف عنه عند الطحاوي في شرح المشكل(١/ ٢١٩)، وابن حبان في صحيحه (ح: ٥٧٢٥)، و«هشام أتقن من عبد الرزاق وأجل» قاله الذهبي في السير (٩/ ٥٨٠).
صوب الوجه الأول البخاري (التاريخ الكبير ٤/ ٣٦٤)، والبزار (٧/ ٢٥١)، والمزي (جامع المسانيد ٤/ ٣٩٩)، ونقله ابن حجر عن الحفاظ (الفتح ١١/ ٥٤٠).

لأن الرسول ﷺ نهى عن هذه الكلمة بسبب ما جاء في رؤيا الطفيل، وكذلك الأذان لما أراد النبي ﷺ أن يعلم الناس بالصلاة قال بعضهم: «لو اتخذت بوقا مثل بوق اليهود» - وبوق اليهود مثل القرن ينفخ فيه فيصير له صوت - فكرهه.

وقيل له: «لو اتخذت ناقوسا مثل ناقوس النصارى» - وهو شيء يضرب بعصا أو بحديدة فيصير له صوت عال - فكرهه، حتى رأى عبد الله بن زيد رؤيا، قال: «طاف بي وأنا نائم رجل عليه ثوبان أخضران...» الحديث فعلمه الأذان، فأخبر النبي ﷺ بما رأى من الأذان، قال: «إِنَّهَا لَرُؤْيَا حَقٌّ إِنْ شَاءَ اللهُ، فَقُمْ مَعَ بِلَالٍ فَأَلْقِ عَلَيْهِ مَا رَأَيْتَ فَلْيُؤَذِّنْ بِهِ، فَإِنَّهُ أَنْدَى صَوْتًا مِنْكَ»[1]، فصار سبب تشريع الأذان هي تلك الرؤيا.

و«الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ جُزْءٌ مِنْ سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»[2]، فأول ما بدئ به الرسول ﷺ قبل الوحي: الرؤيا الصالحة، ومعنى أن الرؤيا جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة: أن زمن النبوة ثلاث وعشرون سنة، فيكون نصفها ستة

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ١٦٤٧٨)، والدارمي في سننه (ح: ١٢٢٤)، وأبو داود في سننه (ح: ٤٩٩)، وابن ماجه في سننه (ح: ٧٠٦)، وابن الجارود في المنتقى (ح: ١٥٨)، وابن خزيمة في صحيحه (ح: ٣٧١)، وابن حبان في صحيحه (ح: ١٦٧٩)، والدارقطني في سننه (ح: ٢٩)، والبيهقي في السنن الكبرى (ح: ٢٠٠٦) من طريق ابن إسحاق، قال: حدثني محمد بن إبراهيم التيمي، عن محمد بن عبد الله بن زيد بن عبد ربه، عن أبيه، به.
وإسناده جيد.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٦٩٨٧- ٦٩٨٨)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٢٦٤- ٢٢٦٣) من حديث عبادة بن الصامت وأبي هريرة رضي الله عنهما.

أشهر، والرسول ﷺ بدئ بالرؤيا نحو ستة أشهر قبل أن ينزل عليه الوحي، فصارت الرؤيا بمنزلة ستة أشهر من ثلاث وعشرين سنة.

وللرؤيا طرق وعلامات تعرف بها صحتها، وهي مذكورة في كتب القوم.

وفي الحديث: أنه ينبغي عندما يريد الإمام أن ينهى عن شيء أو يأمر بشيء مهم، أن يخطب بالناس؛ فإن النبي ﷺ حمد الله وأثنى عليه، ثم قال: (أما بعد..) الحديث.

وأنواع الحمد أربعة:

الأول: حمد قديم لقديم، وهو: حمد الله لنفسه.

الثاني: حمد حادث لحادث، وهو: حمد بعض الخلق لبعضهم.

الثالث: حمد حادث لقديم، وهو: حمدك الله -سبحانه-.

الرابع: حمد قديم لحادث، وهو ما يحمده الله من أعمال خلقه التي يؤدونها فتكون موضع الرضا منه -سبحانه-.

وقد تنوعت عبارات العلماء في تعريف (الحمد)، فقيل:

هو: «فعل ينبي عن تعظيم المنعم»، وهذا تعريف الحنابلة وغيرهم، لكن القول الصحيح في تعريف الحمد هو أنه: «الثناء على المحمود مع حبه وتعظيمه وإجلاله».

وفرق بين الحمد والمدح؛ فإن المدح هو: مجرد الثناء على الممدوح، فإن اقترن الثناء بالمحبة والتعظيم صار حمدا، وأما إن كان ثناء فقط فهو مدح، فكل حمد هو مدح، وليس كل مدح حمدا.

(أما بعد): كثيرا ما يستعملها النبي ﷺ في خطبه وفي مراسلاته، و(أما) حرف شرط وتفصيل، و(بعد): ظرف مبني على الضم لقطعه عن الإضافة، ويجوز نصبه: (أما بعد)؛ بتقدير: «أما بعد ما تقدم من حمد الله والثناء عليه»، على نية حذف المضاف إليه، والمعروف الضم، مثل قوله تعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْأَمْرُ مِن قَبْلُ وَمِنۢ بَعْدُ﴾ [الروم: ٤]، وهي للانتقال من أسلوب إلى آخر.

واختلف العلماء في أول من نطق بها، فقيل: إن أول من نطق بها هو: آدم عليه السلام.

وقيل: يعقوب عليه السلام.

وقيل: داود عليه السلام.

وقيل: قس بن ساعدة.

وقيل: سحبان بن وائل، الخطيب المعروف، واستدلوا على هذا بقوله[(١)]:

لقد علم الحي اليمانون أنني ❁ إذا قلت: أما بعد أني خطيبها

وأقرب الأقوال: أن أول من نطق بها هو داود عليه السلام، وهو الذي رجحه الحافظ ابن حجر وغيره[(٢)].

والأقوال في هذا ثمانية، نظمها بعضهم[(٣)] بقوله:

---

(١) لم أقف على المصدر.

(٢) ينظر: فتح الباري (٢/ ٤٠٤).

(٣) وهو: الشمس الميداني. ينظر: غذاء الألباب للسفاريني (١/ ٣٤)، إحراز السعد للجوهري (ص٣٣).

جرى الخلف «أما بعد» من كان بهـا عـد أقـوال وداود أقـرب
ويعقـوب أيـوب الـصبور وآدم وقس وسحبان وكعب ويعرب

وليست هي فصل الخطاب الذي أوتيه داود في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٠]؛ لأن الذي في الآية هو الفصل بين الحق والباطل.

(إنكم قلتم كلمة كان يمنعني كذا وكذا): يعني: الحياء، كما جاء في رواية الطبراني[(١)]، والله لم ينه عنها، ولكن لما رأى الطفيل هذه الرؤيا أمر الله رسوله ﷺ بأن ينهى عنها، فكانت رؤيا الطفيل كالمقدمة والإرهاص للنهي عن قول: (ما شاء الله وشاء محمد)، و(ما شاء الله وشئت).



(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (ح: ٨٢١٤).

(٤٤) باب من سب الدهر فقد آذى الله

وقول الله -تعالى-: ﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾ الآية [الجاثية: ٢٤].

في «الصحيح» عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قال تعالى، يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر، وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار»[(١)].

وفي رواية: «لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر»[(٢)].



(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٤٨٢٦)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٢٤٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٦١٨٢)، ومسلم في صحيحه، واللفظ له (ح: ٢٢٤٦).

شرح: باب من سب الدهر فقد آذى الله

(الدهر) هو: الليل والنهار، وسبه فيه نوع من الشرك؛ لأن سابه ينسب الأشياء إليه، فكأن المتصرف هو الدهر، ولم يعلم أن الله هو المتصرف في هذا العالم كما تقتضيه حكمته وإرادته، وما الدهر إلا محل وزمن لتصرف الله في خلقه بما يريد، فسب الدهر مناف للتوحيد؛ كقولهم: «يا خيبة الدهر»، و«هذه سنة سوء»، ومثله قول العامة: «هذه سنة قشرا»، عندما يحل بهم شيء من المصائب، «هذا يوم أقشر»، هذا لا يجوز، وهذا من سب الدهر، فاليوم ما هو إلا زمن ومحل لما يقدر الله فيه.

وقول الله -تعالى-: ﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا نَمُوتُ وَنَحۡيَا وَمَا يُهۡلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهۡرُۚ﴾ الآية [الجاثية: ٢٤].

﴿وَقَالُواْ مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنۡيَا﴾ هذا قول مشركي العرب؛ فإن مشركي العرب يرون أن هذا العالم لا ابتداء له ولا نهاية، وهذا رأي بعض الفلاسفة، وممن رأى هذا الرأي: ابن سينا -المشهور-، فهو يرى قدم العالم وأن هذه الأجساد لا تعاد!

ومعنى «قدم العالم»: أن هذا العالم لا مبدأ له، بل هو قديم ليس له أول، فينكر: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ [الحديد: ٣]، وينكر: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ قَبْلَهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ»[1]؛ لأنه يرى أن هذا العالم ليس محدثا، ولأجل هذا كفره العلماء.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٣١٩١) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما.

قال أبو حامد الغزالي: يكفر ابن سينا بثلاثة أمور – أما التي حاد فيها عن الحق من المسائل نحو عشرين، لكن التي يكفر بها ثلاثة-:

الأول: قوله بقدم العالم؛ يعني: أن الله لم يحدث هذا العالم.

الثاني: قوله بإنكار معاد الأجسام، أنها لا تعاد ولا تحيى.

الثالث: قوله: إن الله غير عالم بالجزئيات، فالجزئيات لا يعلمها الله، وإنما يعلم الكليات.

من أجل هذا جعلوه إمام الملحدين، وكفروه(١).

وقال العلامة ابن القيم في إغاثة اللهفان(٢): «ابن سينا يحكي عن نفسه أنه هو وأبوه من دعاة الحاكم»، والحاكم هذا يزعم أنه هو الخالق، ويزعم أنه هو المتصرف بهذا العالم، وأمر أن يكتب لعن أبي بكر وعمر على أبواب الجوامع، هذا شأنه!، قال ابن القيم في ابن سينا: «هو إمام الملحدين، وإمام الكفرة».

وتكلم الذهبي عن ابن سينا فقال: «هو رأس الفلاسفة، يتمشى مع المعقول تاركا ما جاء به الرسول ﷺ»(٣)؛ لأنه يرى رأي الفلاسفة الدهريين، وقيل: إنه تاب في آخر حياته، والله أعلم بذلك(٤).

﴿وَقَالُوا۟ مَا هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا﴾، لا يوجد بعث ولا بدء لهذا العالم، ولا تنتهي الدنيا، ولا قيامة، ولا حساب وجزاء، ولا جنة ونار.

---

(١) ينظر: المنقذ من الضلال (ص١٤٤).
(٢) ينظر: إغاثة اللهفان (٢/ ٢٦١، ٢٦٦- ٢٦٨).
(٣) ينظر: تاريخ الإسلام (٩/ ٤٣٨).
(٤) ينظر: وفيات الأعيان (٢/ ١٦٠).

﴿وَمَا يُهْلِكُنَآ إِلَّا ٱلدَّهْرُ﴾، الأيام والليالي هي التي تبلي الناس وتذهبهم، كلما ذهب أقوام خلفهم آخرون إلى ما لا نهاية له، تذهب بأقوام وتجيء بآخرين، والفلاسفة يرون أن كل ست وثلاثين ألف سنة، يعود البر بحرا والبحر برا، وهلم جرا، بزعمهم أن الشمس تحل في كل برج ثلاثة آلاف سنة، والبروج عدتها: (اثنا عشر)، -فمثلا- تبقى في برج الحمل ثلاثة آلاف، ثم في برج الثور ثلاثة آلاف، فإذا انتهت المدة وهي: ستة وثلاثون ألف سنة، أصبحت البراري هذه كلها بحارا، وأصبحت البحار براري، ودار الزمن عدة أدوار!، وهذا من أبطل الباطل، وهو مخالف لما جاءت به الرسل من البعث والمعاد والنشور.

رد عليهم الله -سبحانه وبحمده- بقوله: ﴿وَمَا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ﴾ من الله ولا من رسله، ﴿إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ قولا غير متيقن، بل مجرد ظنون.

في «الصحيح» عن أبي هريرة، عن النبي ﷺ قال: «قَالَ اللهُ -تعالى-: يُؤْذِينِي ابْنُ آدَمَ ؛ يَسُبُّ الدَّهْرَ وَأَنَا الدَّهْرُ ، أُقَلِّبُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ»(١).

وفي رواية: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»(٢).

في «الصحيح»؛ أي: «صحيح البخاري»(٣).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٤٨٢٦)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٢٤٦).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٦١٨٢) بلفظ: «لا تقولوا: يا خيبة الدهر؛ فإن الله هو الدهر»، ومسلم (ح: ٢٢٤٦) باللفظ الذي ذكره المصنف رحمه الله.

(٣) هو في الصحيحين كما سبق، وإنما تبع الشارح في ذلك الشيخ سليمان -رحم الله الجميع-. ينظر: التيسير (٢/ ١٢٠٤).

(يؤذيني ابن آدم): كما هو جار على ألسنة بعض العامة: (يا خيبة الدهر)، (هذه ساعة قشرا)، (هذا يوم أقشر)، (هذه ساعة غير مباركة التي جمعت بيني وبينك)، هذا فيه إيذاء لله؛ كأنك تنسب الضر والنفع والإصلاح إلى الساعة واليوم والزمن، ناسيا أن المتصرف هو الله -سبحانه-.

والإيذاء: هو ما قل أثره وسهل أمره؛ فالله غني عن العباد، لكن هذا سوء أدب مع الله؛ حيث نسب الضر والنفع إلى الدهر، سواء اعتقد أن الدهر هو المؤثر والفاعل لذلك، أو اعتقد أن الله هو الذي فعل ذلك في الدهر، الدهر خلق من خلق الله فلا تسبه، ما هو إلا زمن ومحل لما يقدره الله ويقضيه، لا أن الدهر هو الذي يوجد القدر والقضاء، ما الدهر إلا أيام وليالي، وأنت وعملك، كما قال أبو تمام:

أحلام ليل أو كظل زائل ❁ إن اللبيب بمثلها لا يخدع[1]

وقال:

ثم انقضت تلك السنون وأهلها ❁ فكأنها وكأنهم أحلام[2]

(وفي رواية: «لَا تَسُبُّوا الدَّهْرَ؛ فَإِنَّ اللهَ هُوَ الدَّهْرُ»): لا تظن أن الله هو الدهر بذاته لكن المعنى: «لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو خالق الدهر»، ومكون الكائنات.

وغلط ابن حزم في هذا؛ حيث زعم أن (الدهر) اسم من أسماء الله، وهذا

---

(١) لم أجد هذا البيت في ديوان أبي تمام، ونسب إلى عمران بن حطان. ينظر: خزانة الأدب (٥/ ٣٦١)، شعر الخوارج (ص١٥٥).

(٢) ينظر: شرح ديوان أبي تمام للتبريزي (٢/ ٧٣).



غلط منه ومن أمثاله، وابن حزم في باب الأسماء والصفات من أضعف الناس، بل سك مسلك المعتزلة؛ لأنه لم يتيسر له من يدله على مذهب أهل السنة كما قاله ابن تيمية في كتابه «منهاج السنة»(١).

فابن حزم كل فعل من أفعال الله يشتق له منه اسما أو صفة منه، فمثلا: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ [العنكبوت: ٣] يقول: إن الله هو الفاتن! والله هو المستهزئ والماكر؛ لقوله: ﴿ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ [البقرة: ١٥]، ﴿وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: ٥٤]، وأنت تعرف أن هذا من أكبر الغلط، وأن الله يجل وينزه عن هذا.

والقاعدة الشرعية في هذا: أن باب الإخبار عن الله -سبحانه- أوسع من باب الأسماء والصفات، فنسميه بما سمى به نفسه أو سماه به رسوله ﷺ، ونصفه بما وصف به نفسه أو وصفه به رسوله ﷺ، أما أن نشتق له من كل فعل اسما فهذا غلط، وقد ذكر هذه القاعدة وأطال فيها ابن القيم في كتابه: «بدائع الفوائد»(٢)، وهو بحث نفيس.



(١) **ينظر**: منهاج السنة: (٢/ ٥٨٤).

(٢) **ينظر**: بدائع الفوائد (١/ ٢٨٠) وما بعدها.

(٤٥) باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إن أخنع اسم عند الله: رجل تسمى «ملك الأملاك»، لا مالك إلا الله».

قال سفيان: مثل (شاهان شاه)[١].

وفي رواية: «أغيظ رجل على الله يوم القيامة وأخبثه»[٢].

قوله: (أخنع)؛ يعني: أوضع[٣].



---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٦٢٠٧)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢١٤٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢١٤٣).

(٣) ينظر: صحيح مسلم (٣/ ١٦٨٨) (ح: ٢١٤٣).

شرح: باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

كملك الأملاك، وسلطان السلاطين، وحاكم الحكام، وما أشبه ذلك، عقد المصنف هذه الترجمة لينبهك أن هذا لا يصلح إلا لله، وأن الله -جل وعلا- هو حاكم الحكام، وهو قاضي القضاة، فهذه ألقاب ضخمة لا يتحملها المخلوق، أما: (رئيس القضاة)، أو: (رئيس الملوك) فهذا ليس فيه مانع.

في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إِنَّ أَخْنَعَ اسْمٍ عِنْدَ اللهِ رَجُلٌ تَسَمَّى مَلِكَ الْأَمْلَاكِ، لَا مَالِكَ إِلَّا اللهُ».

قال سفيان: مثل (شاهان شاه)[(١)].

وفي رواية: «أَغْيَظُ رَجُلٍ عَلَى اللهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَأَخْبَثُهُ»[(٢)].

قوله: «أخنع»؛ يعني: أوضع[(٣)].

(إن أخنع)؛ أي: أوضع وأسخط وأحط اسم من تسمى: (ملك الأملاك)، أو: (سلطان السلاطين).

يقال: (فلان وضيع)؛ أي: ساقط ورذيل، وكذلك أوضع الناس من تسمى بهذ الأسماء التي لا تصلح إلا لله -سبحانه-.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باختلاف يسير (ح: ٦٢٠٧)، ومسلم في صحيحه، واللفظ له (ح: ٢١٤٣).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢١٤٣).

(٣) ينظر: صحيح مسلم (٣/ ١٦٨٨) (ح: ٢١٤٣).

و(شاهان شاه): هذا في لغة فارس، وإن كان هذا اللفظ غير عربي إلا أنه في اللغة العربية بمعنى: (ملك الأملاك)، سواء بسواء.

وقد ذكر العلماء حكم الأسماء، وما هي أحسن الأسماء، وما هي الأسماء التي ينبغي تغييرها، فمعلوم أن النبي ﷺ غير أسماء رجال من الصحابة؛ كرجل اسمه: (غاوي)، سماه: (راشدا)، وكذلك ما فيه تزكية غيره كصحابية اسمها: (برة) غيرها الرسول ﷺ إلى (زينب)[(١)]، وقد قال الرسول ﷺ: «أحب الأسماء إلى الله ما عبد وحمد»[(٢)]؛ أي: ما كان عبدا لله: عبد الله، وعبد العزيز، وعبد الصمد، وعبد الباسط، أو ما يدل على التحميد؛ كمحمد، وحامد، وحماد، لكثرة صفاته الحميدة تفاؤلا، هذا أحسنها.

وهناك أسماء تجوز التسمية بها؛ كعمر، وعثمان، وعلي وما أشبه ذلك.

وهناك أسماء تكره التسمية بها؛ كحرب، قال الحنابلة: «تكره التسمية بحرب وما أشبهه»[(٣)].

وأما الألفاظ الضخمة مثل: (تقي الدين)، و(شمس الدين)، و(برهان الدين)، و(بهاء الدين) فهل نقول: هي منهي عنها؛ لأن فيها شيئا من التزكية، والله يقول: ﴿فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ﴾ [النجم: ٣٢]؟

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢١٤١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) هو بهذا اللفظ -على شهرته- لا أصل له، وفي صحيح مسلم (ح: ٢١٣٢) من حديث ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب أسمائكم إلى الله عبد الله وعبد الرحمن».
(٣) ينظر: كشاف القناع (٦/ ٤٤٤).

يلقب: (شمس الدين)؛ لأنه جعل الدين بمنزلة الشمس في الوضوح، أو أن الدين شرفه وجعله كالشمس، على كلا التقديرين هل يجوز ذلك؟

أو: (محيي الدين)؛ أحيا الدين بعد وفاته أو قريبا منها، أو أن الله أحياه بالدين، أو: (قمر الدين)، أو: (نور الدين)، ما أشبه ذلك، كثيرا ما نقرأ في كتب أهل العلم مثل هذه الألقاب الضخمة فما حكم هذه الألقاب؟

المسألة تحتاج إلى بحث، فبعض العلماء يرى التحريم، وأنها من الألقاب التي فيها تزكية للملقب بها، وهو خال منها[(١)]، ونقل عن النووي أنه قال: «لا أجعل في حل من لقبني بـ (محيي الدين)»[(٢)].

وقيل: هي مكروهة كراهة تنزيه[(٣)].

أما الذي في «الإقناع»[(٤)]: أنه إن كان اللقب صدقه الفعل فلا مانع، وإن كان لقبا لا حقيقة له فلا يجوز.

لكن هذا لا يجوز مطلقا، حتى ولو قلنا بتوسط الحجاوي؛ من هو الذي حقق بفعله لقب: (شرف الدين)، أو: (عز الدين)، أو: (محيي الدين)؟!

---

(١) وفي هذا أنشد الأمير الصنعاني رحمه الله (ديوان الأمير ص٢٥٦):

تسمى بـ (نور الدين) وهو ظلامه ... وهذا بـ (شمس الدين) وهو له كسف

وذا (شرف الإسلام) يدعوه قومه ... وقد نالهم من جوره كلهم عسف

(٢) ينظر: المنهل العذب الروي (ص١١).

(٣) ينظر: معجم المناهي اللفظية (ص٤٩٧).

(٤) ينظر: الإقناع (١/ ٤١٠).

الحقيقة أن النفس لا ترتضي هذا، وإن كان اشتهر في كثير من علماء العرب والعجم والشرق والغرب والقديم والحديث، لكن السلف لم يكونوا يعرفون شيئًا من هذا، والقصد من هذا معرفة الحكم وأن يكون الإنسان على بينة من أمره، ولاسيما في الشيء الذي يجري بكثرة على الألسن، والموجود في الكتب، فالذي يترجح لدي المنع مطلقا، النفس تميل لهذا؛ لأنه خلاف الواقع في الغالب، وتزكية للنفس، وقولهم: (إنها أصبحت كالأعلام المحضة)، ليس بصحيح، ليست كالأعلام المحضة؛ لأن اللفظ جعل دلالة على المعنى.

وابن القيم تكلم في إعلام الموقعين [(١)] عن دلالة اللفظ على ما وضع له، نوى المعنى أم لم ينوه، إذا لم ينو وكان منهيا عنه فهو محرم، وإذا نوى فهو أشد في التحريم؛ كمن تكلم بما لا ينبغي ثم قال: «أنا قصدي كذا وقصدي كذا»، ما ينفعه هذا، نحمله مدلوله ونيته له، سواء قصد أو لم يقصد، مثل ما يفعله بعض الناس عندما يغلط وترد عليه يقول: «أنا قصدي كذا وقصدي كذا»، فابن القيم يقول: قصدك لك؛ كلامك هذا لا يجوز؛ لأن هذا مدلول كلامك.

وأما قولهم: (صاحب الجلالة)؛ أي: صاحب العظمة، فإطلاقها لا يصلح إلا لله؛ لأن الجلالة بمعنى العظمة، والعظمة حيث أطلقت لا تصلح إلا لله[(٢)].

---

(١) ينظر: إعلام الموقعين (٣/ ١٨٥).

(٢) (صاحب الجلالة): تفيد الاختصاص، فمنع منها جماعة من علماء قطرنا، بخلاف: (جلالة الملك) فليست بممنوعة، قال الشيخ محمد بن إبراهيم رحمه الله (الفتاوى ١/ ٢٠٦): «قولهم: (جلالة الملك المعظم) لا يظهر لي أن فيها بأسا؛ لأن له جلالة تناسبه».

(٤٦) باب احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذلك

عن أبي شريح: أنه كان يكنى (أبا الحكم)؛ فقال له النبي ﷺ: «إن الله هو الحكم، وإليه الحكم».

فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني، فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين.

فقال: «ما أحسن هذا، فما لك من الولد؟».

قلت: شريح، ومسلم، وعبد الله.

قال: «فمن أكبرهم؟».

قلت: شريح.

قال: «فأنت أبو شريح». رواه أبو داود وغيره[١].



(١) أخرجه أبو داود في سننه (ح: ٤٩٥٥)، والنسائي في سننه (ح: ٥٣٨٧).

شرح: باب احترام أسماء الله وتغيير الاسم لأجل ذلك

لا ينبغي للمخلوق أن يتسمى باسم من أسماء الله، أو يتكنى بوصف مختص بالله، هذا من كمال التوحيد، بل من تحقيق التوحيد ومن تعظيم الله -سبحانه-.

عن أبي شريح: أنه كان يكنى (أبا الحكم)؛ فقال له النبي ﷺ: «إِنَّ اللهَ هُوَ الْحَكَمُ وَإِلَيْهِ الْحُكْمُ».

فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني، فحكمت بينهم، فرضي كلا الفريقين.

فقال: «مَا أَحْسَنَ هَذَا، فَمَا لَكَ مِنَ الْوَلَدِ ؟».

قلت: شريح، ومسلم، وعبد الله.

قال: «فَمَنْ أَكْبَرُهُمْ ؟».

قلت: شريح.

قال: «فَأَنْتَ أَبُو شُرَيْحٍ» رواه أبو داود وغيره[1].

ما أحسن أن تحكم فيرضى الفريقان، ولا يكون في نفس المحكوم عليه حزازة؛ لأن الرضا من كلا الفريقين نادر، بل لابد أن أحد الخصمين لاسيما

(١) أخرجه أبو داود في سننه (ح: ٤٩٥٥)، والنسائي في سننه (ح: ٥٣٨٧)، وابن حبان في صحيحه (ح: ٥٠٤)، والحاكم في المستدرك (١/ ٧٥) (ح:٦٢)، والبيهقي (١٠/ ٢٤٣) من حديث يزيد بن المقدام بن شريح بن هانئ، عن أبيه، عن جده شريح، عن أبيه هانئ أبي شريح، به. إسناده جيد، وقد ذكره أبو الحسن الدارقطني في الإلزامات (ص١٨٨).

المحكوم عليه يجد في نفسه ما يجد، حتى في حق النبي ﷺ وقع هذا، حين وقعت الخصومة بين الزبير وبين الأنصاري قال: «أَسْقِ يَا زُبَيْرُ، ثُمَّ أَرْسِلِ الْمَاءَ إِلَى جَارِكَ».

فقال الأنصاري: أن كان ابن عمتك يا رسول الله!

فأنزل الله: ﴿ فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ﴾ [النساء: ٦٥][(١)]؛ إذ إن رضا الناس غاية لا تدرك.

واستفدنا من هذا الحديث فوائد:

الأولى: أنه لا ينبغي أن يتكنى الإنسان بصفة خاصة لله؛ كأبي الحكم، وأبي العدل، وأبي القسط وما أشبه ذلك؛ فإن الله هو العدل والحكم بين عباده: ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ﴾ [الأنعام: ٥٧]، ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٩]، ﴿ وَمَا ٱخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ﴾ [الشورى: ١٠]، ﴿إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ يَقُصُّ ٱلْحَقَّ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْفَٰصِلِينَ ﴾ [الأنعام: ٥٧].

الثانية: الكنية هي: ما صدر بأب أو أم، مثل: أبي سعد، أبي علي، أبي محمد، أم معبد، أم هانئ.

و(اللقب) هو: ما أشعر بمدح أو ذم؛ كزين العابدين، وأنف الناقة[(٢)].

والعرب كانت تكنى حتى الصغار؛ فإن النبي ﷺ رأى طفلا صغيرا معه

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) لقب لبطن من تميم، وفيهم قال الحطيئة:

قوم هم الأنف والأذناب غيرهم ... ومن يساوي بأنف الناقة الذنبا؟!

ينظر: البيان والتبيين (٣/ ٢٦٩)، والعقد الفريد (٣/ ٣٠٠).

عصفور يلعب به، فقال: «يَا أَبَا عُمَيْرٍ، مَا فَعَلَ النُّغَيْرُ؟»(١)، هذا يدل على أن الكنية لا تختص بالكبير، بل حتى الصغير يكنى، وكان النبي ﷺ يكنى أبا القاسم ﷺ.

ويقول بعضهم: إذا تأملت اللقب وجدت بين اللقب وبين الملقب به نوع مشابهة(٢)، ولذا قال الشاعر(٣):

وقل إن أبصرت عيناك ذا لقب ❁ إلا ومعناه إن فكرت في لقبه

الثالثة: أن من الأمور المستحسنة حصول الرضا من المتخاصمين، أو أن يصلح بينهم القاضي، هذا من أحسن الأشياء، قطعا لدابر الضغائن، فقد قال عمر: «ردوا الخصوم حتى يصطلحوا؛ فإن الخصمة تورث بين الرجال الضغائن»(٤)، والله يقول: ﴿وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞ﴾ [النساء: ١٢٨].

و(الصلح) هو: التوفيق بين متخاصمين، يرضى أحدهما بإسقاط بعض الحق وإلزام الآخر بالبقية، وما أشبه ذلك من أوجه المصالحة، وقد قال النبي ﷺ:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٦١٢٩)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢١٥٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

(٢) ينظر: زاد المعاد (٢/ ٣٠٧).

(٣) ينظر: المجموع اللفيف لابن هبة الله (ص٢٠٨).

(٤) أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (ح: ١٥٣٠٤)، وابن أبي شيبة في مصنفه (ح: ٢٣٣٤٩)، والبيهقي في السنن الكبرى(ح: ١١٣٦٠) من طريق محارب بن دثار، عن عمر.
وأخرجه البيهقي (ح: ١١٣٦٢) من طريق علي بن بذيمة، عن عمر.
وكلاهما منقطع كما قال البيهقي رحمه الله.

«الصُّلْحُ جَائِزٌ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ، إِلَّا صُلْحًا حَرَّمَ حَلَالًا أَوْ أَحَلَّ حَرَامًا»[1].

الرابعة: فيه دليل على أن من صلح للقضاء وتحاكم إليه المتخاصمان ورضياه حكما فإن حكمه ينفذ، وإن لم يوله الإمام؛ ولذا قال الحنابلة في هذا المعنى: «وإذا حكم اثنان بينهما رجلا يصلح للقضاء نفذ حكمه في المال واللعان والحدود وغيرها»[2].

الخامسة: فيه أن الكنية تكون بأكبر الأولاد؛ لأن الرسول ﷺ قال: «ما لك من الولد؟».

(قال: شريح ومسلم وعبد الله).

(قال: من أكبرهم؟).

(قال: شريح).

قال: (أنت أبو شريح)، فدل على أن الإنسان يكنى بأكبر أولاده، وكذلك المرأة تكنى بأكبر أولادها أو بأكبر بناتها.

---

(١) أخرجه الترمذي في جامعه (ح: ١٣٥٢)، والبزار في مسنده (ح: ٣٣٩٣)، والطبراني (١٧/ ٢٢)، والحاكم في المستدرك (٤/ ١١٣) (ح: ٧٠٥٩) من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزني، عن أبيه، عن جده، به مرفوعا.
وإسناده واه، كثير متروك كذبه بعضهم، وللحديث شواهد، قال الحافظ في تغليق التعليق (٣/ ٢٨١): «روي من حديث أبي هريرة، وعمرو بن عوف، وأنس بن مالك، ورافع بن خديج، وعبد الله بن عمر، وكلها فيها مقال، لكن حديث ابي هريرة أمثلها».
وقال ابن العربي (العارضة ٣/ ٣٢٣): «ومقتضى القرآن وإجماع الأمة على لفظه ومعناه».

(٢) ينظر: المبدع (٨/ ١٥٩).

(٤٧) باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

وقول الله -تعالى-: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ الآية [التوبة: ٦٥].

عن ابن عمر، ومحمد بن كعب، وزيد بن أسلم، وقتادة -دخل حديث بعضهم في بعض-: أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا هؤلاء، أرغب بطونا، ولا أكذب السنا، ولا أجبن عند اللقاء - يعني: رسول الله ﷺ وأصحابه القراء-، فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ.

فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخض ونتحدث حديث الركب، نقطع به عنا الطريق.

قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ، وإن الحجارة تنكب رجليه، وهو يقول: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾، فيقول له رسول الله ﷺ: «أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟!»، ما يلتفت إليه، وما يزيده عليه[1].

---

(١) ذكره بهذا السياق شيخ الإسلام في الصارم (ص٣١)، وعنه نقله المصنف رحمه الله.

شرح: باب من هزل بشيء فيه ذكر الله أو القرآن أو الرسول

أي: فهو مرتد حلال الدم والمال.

ومن سب الله ورسوله قالوا: لا تقبل توبته في الظاهر، ولابد من قتله، وقد صنف ابن تيمية كتابا مفيدا في هذا المعنى سماه: «الصارم المسلول على شاتم الرسول».

وقول الله -تعالى-: ﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ﴾ الآية [التوبة: ٦٥].

﴿ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ﴾[التوبة: ٦٥- ٦٦]: دل على أن لهم إيمانا قبل مقالتهم تلك، وبمجرد كلمتهم هذه ذهب عنهم الإيمان الذي كانوا متلبسين به.

عن ابن عمر(١)، ومحمد بن كعب(٢)، زيد بن أسلم(٣)، وقتادة(٤) - دخل حديث بعضهم في بعض-: أنه قال رجل في غزوة تبوك: ما رأينا مثل قرائنا

---

(١) أخرجه ابن جرير (١١/ ٥٤٣)، وابن أبي حاتم في التفسير (٦/ ١٨٢٩) من حديث هشام بن سعد، عن زيد بن أسلم، عن ابن عمر، به.
إسناده جيد؛ هشام فيه ضعف إلا أن أبا داود ذكر أنه من أثبت الناس في زيد أسلم. ينظر: تهذيب الكمال (٣٠/ ٢٠٨).

(٢) أثر محمد بن كعب أخرجه ابن جرير (١١/ ٥٤٥)، وإسناده ضعيف.

(٣) أخرجه ابن جرير (١١/ ٥٤٣) وإسناده جيد.

(٤) أخرجه ابن جرير (١١/ ٥٤٤)، وابن أبي حاتم (٦/ ١٨٢٩) وإسناده جيد.

هؤلاء، أرغب بطونا، ولا أكذب ألسنا، ولا أجبن عند اللقاء – يعني: رسول الله ﷺ وأصحابه القراء–، فقال له عوف بن مالك: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله ﷺ.

فذهب عوف إلى رسول الله ﷺ ليخبره فوجد القرآن قد سبقه، فجاء ذلك الرجل إلى رسول الله ﷺ وقد ارتحل وركب ناقته، فقال: يا رسول الله، إنما كنا نخض ونتحدث حديث الركب، نقطع به عنا الطريق.

قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقا بنسعة[1] ناقة رسول الله ﷺ، وإن الحجارة تنكب رجليه، وهو يقول: ﴿إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ﴾، فيقول له رسول الله ﷺ: ﴿أَبِاللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾، ما يلتفت إليه وما يزيده عليه[2].

(أرغب بطونا): يأكلون كثيرا، ما لهم هم إلا بطونهم.

(ولا أكذب ألسنا): يكذبون علينا، يقولون: «محمد سيفتح الشام ويملك قصورها ومروجها!».

(ولا أجبن عند اللقاء): لأن الرسول ﷺ خرج لمجالدة بني الأصفر ومقاتلتهم في تبوك، قالوا: كأن محمدا لا يعرف قوة بني الأصفر، ولا جلد الروم؛ كأنا ننظر إلى هؤلاء وقد ذهبوا إلى رؤوس الجبال هاربين، أو نراهم مسلسلين، ذهب بهم إلى الروم.

---

(١) حبل يجعل زماما للبعير. **ينظر**: النهاية (٥/ ٤٨).
(٢) ذكره بهذا السياق شيخ الإسلام في الصارم (ص٣١)، وعنه نقله المصنف رحمه الله.

فالناس في هذه المقالة ثلاثة أقسام:

قسم قالوا، وقسم سكتوا، وقسم أنكروا وهؤلاء سلموا، منهم: عوف بن مالك؛ فإنه قال لمن قال هذا القول: (كذبت ولكنك منافق، لأخبرن رسول الله بما قلت)، فذهب عوف ليخبر الرسول ﷺ بما قال هؤلاء المنافقون، فوجد القرآن قد سبقه.

فجاء الرجل معتذرا وقد ركب الرسول ﷺ ناقته وارتحل، قال ابن عمر: كأني أنظر إليه متعلقا بنسعة ناقة رسول الله ﷺ، وهو يقول: (إنما كنا نخوض ونلعب ونتحدث حديث الركب نقطع به عنا الطريق)، من شأن المسافرين أنهم يتحدثون بما يسلون به أنفسهم، ويقطعون به المسافة، والرسول ﷺ يقول: (أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون؟!)، ما يلتفت إليه وما يزيده عليه، وأنزل الله: ﴿ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَـٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ ﴾ [التوبة: ٦٦] منهم: مخشي بن حمير، هو حضر لكن لم يوافق ولم ينكر، لم يقل مثلما قالوا، ولم ينكر كما أنكر عوف بن مالك، لما نزلت هذه الآية وعلم بنزولها تاب واستغفر وسأل الله أن يقتل شهيدا وألا يوقف له على عين ولا أثر، فأجاب الله دعاءه، فقتل يوم اليمامة ولم يوقف له على جثة، ولا يعرف من قتله، ولا أين ذهب[1].

استفدنا من هذا: أن الإنسان عليه أن يحفظ لسانه، فربما تكلم بالكلمة فوقع في الجرم من غير ما يشعر، وربما لا يقصد معناها، كما يقع من بعض العامة المنحرفين المستهترين عندما يرون من تمسك بسنة رسول الله ﷺ

(١) ينظر: الاستيعاب (٣/ ١٣٨١).

محافظا عليها مقتديا به ﷺ، وبما عليه الخلفاء الراشدون، معفيا لحيته، يقولون: «أهل اللحى»، «أبو لحية» من باب العيب والتهكم به؛ يعني: كأن من حلق لحيته هو أفضل، وهو الرجل، وهذا يعيبونه، من يقول هذا أخشى أن يكون مثل هؤلاء: ﴿أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ﴾ [التوبة: ٦٥]؛ لأن من استهزأ بسنة رسول الله ﷺ فقد استهزأ بالرسول ﷺ، وكذلك من يقول: «المطاوعة(١) يفعلون كذا وكذا» من باب التهكم بهم، والعيب لهم، فربما تكلم الإنسان بالكلمة فيبلغ بها من سخط الله إلى يوم القيامة ما يبلغ إلا أن يتدراكه الله برحمة منه، وأي بلاء أشد من أن يعيروك بتمسكك بالسنة؟! النبي ﷺ قال: «قُلْ آمَنْتُ بِاللهِ، ثُمَّ اسْتَقِمْ»(٢)؛ أي: استقم على معنى آمنت بالله، ومن لازم الإيمان بالله: الإيمان بما جاء به رسول الله ﷺ، فأصبحت غير مستقيم حيث تتهكم وتستهزئ بمن تمسك بسنة رسول الله ﷺ!، إني أخشى أن يكون من يصنع ذلك مثل هؤلاء الذين نزلت فيهم الآية، وإن أصبح مثل هذا دارجا على ألسنة الناس،

---

(١) مفردها (مطوع)، وهو: وصف شائع في الجزيرة العربية لمن استمسك بالسنة فأظهر شعائر الدين -الشيخ صالح-.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٣٨) من حديث سفيان بن عبد الله الثقفي رضي الله عنه، وفي النسخ المطبوعة من الصحيح: (فاستقم)، إلا أني رأيت في نسخة الحافظ الكبير أبي بكر ابن خير الإشبيلي رحمه الله من صحيح مسلم المحفوظة بخزانة جامع القرويين بفاس العتيقة برقم (٣/ ٣٤٥ب): (ثم استقم).

قال شيخ شيوخنا العلامة عبد الحي الكتاني رحمه الله (فهرس الفهارس ١/ ٣٨٥): «وبمكتبة القرويين بفاس إلى الآن نسخته من صحيح مسلم، التي قابلها مرارا وسمع فيها وأسمع، بحيث يعد أعظم أصل موجود من صحيح مسلم في أفريقيا».

وبهذا يظهر ضعف تعقب بعضهم واستدراكه على أبي زكريا النووي؛ حيث أورده في (الأربعين) وغيرها بلفظ: (ثم استقم).

لا يقيمون له وزنا، ولا يعرفون له معنى.

فالموضوع مهم جدا، يتكلم الإنسان بكلام لا يعرف له معنى، ولا يقيم له وزنا فيصير به كافرا حلال الدم والمال وهو لا يشعر! مثل أن يقول -من باب المزح والسخرية- في آية قرآنية أو في من تمسك بسنة رسول الله ﷺ مستخفا به بسبب تمسكه-: «هذا في القرون الوسطى، لم يعرف ما عليه الناس»، هذا شأن الكثيرين في هذه الأزمنة؛ لبعدهم عن دينهم؛ وعدم معرفتهم بخطورة هذا الأمر العظيم، فأصبح المتمسك بالقرآن والسنة مثل المضغة في الأفواه، تلوكه الألسن البذيئة، وفقنا الله لمعرفة دينه، والثبات عليه إلى أن نلقاه.



(٤٨) باب ما جاء في قول الله تعالى:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى﴾ **الآية [فصلت: ٥٠]**

قال مجاهد: «هذا بعملي، وأنا محقوق به»[١].

وقال ابن عباس: «يريد من عندي»[٢].

وقوله: ﴿قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ﴾ [القصص: ٧٨]، قال قتادة: «على علم مني بوجوه المكاسب»[٣].

وقال آخرون: «على علم من الله أني له أهل»[٤].

وهذا معنى قول مجاهد: «أوتيته على شرف»[٥].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى أراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكا، فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك؟

قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به.

قال: فمسحه، فذهب عنه قذره، وأعطي لونا حسنا، وجلدا حسنا.

---

(١) علقه البخاري في صحيحه (٦/ ١٢٧)، ووصله ابن جرير في تفسيره (٢٠/ ٤٥٨).
(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/ ٣٧٣).
(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٨/ ٣٢٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره (ح: ١٧١٢٣).
(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (ح: ١٧١٢٥).
(٥) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٠/ ٢٢١).

قال: فأي المال أحب إليك؟

قال: الإبل أو البقر -شك إسحاق-، فأعطي ناقة عشراء، وقال: بارك الله لك فيها.

قال: فأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟

قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به، فمسحه، فذهب عنه، وأعطي شعرا حسنا، فقال: أي المال أحب إليك؟

قال: البقر، أو الإبل، فأعطي بقرة حاملا، وقال: بارك الله لك فيها.

فأتى الأعمى، فقال: أي شيء أحب إليك؟

قال: أن يرد الله إلي بصري؛ فأبصر به الناس، فمسحه، فرد الله إليه بصره.

قال: فأي المال أحب إليك؟

قال: الغنم، فأعطي شاة والدا؛ فأنتج هذان، وولد هذا، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال، بعيرا أتبلغ به في سفري.

فقال: الحقوق كثيرة.

فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيرا، فأعطاك الله عز وجل المال؟!

فقال: إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر.

فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا.

فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري.

فقال: كنت أعمى فرد الله إلي بصري، فخذ ما شئت ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله.

فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك» أخرجاه[1].



(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باختلاف يسير (ح: ٣٤٦٤)، ومسلم في صحيحه، باختلاف يسير (ح: ٢٩٦٤).

شرح: باب ما جاء في قول الله تعالى:

﴿ وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى ﴾ **الآية [فصلت: ٥٠]**

الإنسان متى أنعم الله عليه جحد المنعم، ونسب ذلك إلى نفسه، يزعم أنه مستحق لها، وجدير بها.

قال مجاهد: «هذا بعملي وأنا محقوق به»[(١)].

يعني: أنا جدير بهذا المال، الله أنعم عليك بنعمة المال والبدن ونعمة الأولاد وجعلت تتقلب في النعم، وتنسى المنعم وتقول: «أنا أهل لهذا المال وأنا جدير به»؟!

وقال ابن عباس: «يريد من عندي»[(٢)].

أي: يريد أن هذا المال أو هذه النعمة هي من قبله لا من قبل الله.

وقوله: ﴿ قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ ﴾ [القصص: ٧٨]، قال قتادة: «على علم مني بوجوه المكاسب»[(٣)].

أي: هذا من حذاقتي ونباهتي ومعرفتي بوجوه المكاسب، أعرف كيف أبيع، وكيف أشتري، وكيف أتوقف وما أشبه ذلك، نسيت المنعم المتفضل من هو؟! هذا من جنس ما تقدم في قوله تعالى: ﴿ يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُنكِرُونَهَا ﴾ [النحل: ٨٣].

---

(١) علقه البخاري في صحيحه (٦/ ١٢٧)، ووصله ابن جرير في تفسيره (٢٠/ ٤٥٨) وإسناده صحيح.

(٢) ينظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (١٥/ ٣٧٣).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٨/ ٣٢٥)، وابن أبي حاتم في تفسيره (ح: ١٧١٢٣)، وإسناده حسن.

وقال آخرون: «على علم من الله أني له أهل»[1].

وهذا معنى قول مجاهد: «أوتيته على شرف»[2].

يعني: أني من أشراف الناس وأعيانهم، وقد علم الله أني أهل للمال؛ لأن لي مكانة، وهذا من الأمور الباطلة، الرب ينعم عليك وأنت تكفر بنعمته؟! الرب يتفضل عليك ثم تنسب الفضل إلى نفسك؟!

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: «إن ثلاثة من بني إسرائيل: أبرص، وأقرع، وأعمى أراد الله أن يبتليهم، فبعث إليهم ملكا، فأتى الأبرص، فقال: أي شيء أحب إليك»؟

قال: لون حسن، وجلد حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به.

قال: فمسحه، فذهب عنه قذره، وأعطي لونا حسنا، وجلدا حسنا.

قال: فأي المال أحب إليك؟

قال: الإبل أو البقر – شك إسحاق–، فأعطي ناقة عُشراء، وقال: بارك الله لك فيها.

قال: فأتى الأقرع، فقال: أي شيء أحب إليك؟

قال: شعر حسن، ويذهب عني الذي قد قذرني الناس به، فمسحه، فذهب عنه، وأعطي شعرا حسنا، فقال: أي المال أحب إليك؟

قال: البقر، أو الإبل فأعطي بقرة حاملا، وقال: بارك الله لك فيها.

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (ح: ١٧١٢٥) عن السدي.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢٠/ ٢٢١)، وإسناده جيد.

فأتى الأعمى، قال: أي شيء أحب إليك؟

قال: أن يرد الله إلي بصري؛ فأبصر به الناس، فمسحه، فرد الله إليه بصره.

قال: فأي المال أحب إليك؟

قال: الغنم، فأعطي شاة والدا.

فأنتج هذان، وولد هذا، فكان لهذا واد من الإبل، ولهذا واد من البقر، ولهذا واد من الغنم.

قال: ثم إنه أتى الأبرص في صورته وهيئته، فقال: رجل مسكين، قد انقطعت بي الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن، والجلد الحسن، والمال، بعيرا أتبلغ به في سفري.

فقال: الحقوق كثيرة.

فقال له: كأني أعرفك، ألم تكن أبرص يقذرك الناس، فقيرا، فأعطاك الله عز وجل المال؟!

فقال: إنما ورثت هذا المال كابرا عن كابر.

فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

قال: وأتى الأقرع في صورته، فقال له مثل ما قال لهذا، ورد عليه مثل ما رد عليه هذا.

فقال: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت.

وأتى الأعمى في صورته، فقال: رجل مسكين وابن سبيل، قد انقطعت بي

الحبال في سفري، فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك، أسألك بالذي رد عليك بصرك شاة أتبلغ بها في سفري.

فقال: كنت أعمى فرد الله إلي بصري، فخذ ما شئت ودع ما شئت، فوالله لا أجهدك اليوم بشيء أخذته لله.

فقال: أمسك مالك، فإنما ابتليتم، فقد رضي الله عنك، وسخط على صاحبيك» أخرجاه[١].

ساق المصنف حديث أبي هريرة المشهور، وهو حديث عظيم.

قوله: (شك إسحاق) هو: إسحاق بن عبد الله بن أبي طلحة، راوي الحديث عن عبد الرحمن ابن أبي عمرة، عن أبي هريرة.

(انقطعت بي الحبال)؛ أي: الأسباب والوسائل.

(قال الملك: إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت): فذهب ماله، وعاد أبرص كما كان؛ لأنه لم يشكر الله على هذه النعمة، ولم يعترف بها للمنعم المتفضل، ولم يصرفها في مرضاة مسديها، فثلاثة أمور وقعت منه:

الأول: جحد نعمة الله ونسبها إلى أجداده كابرا عن كابر.

الثاني: لم يصرفها في مرضاة الله، بإعطاء هذا المسافر المسكين الذي انقطعت به الأسباب، بل اعترض قائلا: «الحقوق كثيرة».

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باختلاف يسير (ح: ٣٤٦٤)، ومسلم في صحيحه، باختلاف يسير (ح: ٢٩٦٤).

الثالث: لم يتحدث بهذه النعمة، ويشكر الله عليها.

فلما فقد الشكر دعا عليه الملك.

قوله: (والله لا أجهدك): أي: لا أمنعك.

في هذا الحديث عبرة عظيمة، وهي: أن الإنسان إذا لم يعترف بنعمة الله ولم يشكر الله عليها ولم يصرفها في مرضاة مسديها فقد فاته الشكر وأخطأ، فهذان الاثنان نسبا المال إلى آبائهما وأجدادهما، ونسيا أن الله هو الذي أعطاهم وأنعم عليهم، نسيا ما كانا عليه من القذارة والمنظر السيئ، وجحدا هذان بأنهما على هذه الحال منذ زمن طويل، فلما لم يشكرا نعمة الله؛ سلبهما الله النعمة، وردهما إلى ما كانا عليه من القبح.

أما الذي اعترف بأن الله رد عليه بصره، واعترف بأنه كان أعمى وفقيرا، وقال: (خذ ما شئت ودع ما شئت)، قال الملك: (لا حاجة لنا في مالك، أمسك عليك مالك فإنما ابتليتم) -أي: اختبرتم- (فقد رضي الله عنك وسخط على صاحبيك)، فيه: إثبات صفة الرضا لله، وأن الله يرضى حقيقة، وفيه إثبات صفة السخط، خلافا للأشاعرة ومن ضاهاهم.



(٤٩) باب قول الله تعالى:

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآ﴾ الآية [الأعراف: ١٩٠]

قال ابن حزم: «اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله؛ كعبد عمر، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك، حاشا عبد المطلب»[١].

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال: لما تغشاها آدم حملت، فأتاهما إبليس فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة، لتطيعاني أو لأجعلن له قرني أيل، فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن - يخوفهما-؛ سمياه: (عبد الحارث)، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتا، ثم حملت، فأتاهما، فقال مثل قوله، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتا، ثم حملت، فأتاهما، فذكر لهما، فأدركهما حب الولد، فسمياه: (عبد الحارث)، فذلك قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَآ﴾ [الأعراف: ١٩٠]. رواه ابن أبي حاتم[٢].

وله بسند صحيح عن قتادة قال: «شركاء في طاعته، ولم يكن في عبادته»[٣].

وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾ [الأعراف: ١٨٩] قال: «أشفقا ألا يكون إنسانا»[٤].

وذكر معناه عن الحسن، وسعيد، وغيرهما[٥].

---

(١) ينظر: مراتب الإجماع (ص١٥٤).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٣٤).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٣٤).

(٤) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٣٣).

(٥) ينظر: تفيسر ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣٣).

شرح: باب قول الله تعالى:

﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾ الآية

أول الآية: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا فَلَمَّا تَغَشَّىٰهَا﴾؛ يعني: وطئها ﴿حَمَلَتْ حَمْلًا خَفِيفًا﴾ نطفة، ثم مضغة، ثم علقة، ﴿فَمَرَّتْ بِهِۦ﴾: بهذا الحمل، ﴿فَلَمَّآ أَثْقَلَت﴾ وقاربت الولادة ﴿دَّعَوَا﴾: آدم وحواء ﴿ٱللَّهَ رَبَّهُمَا لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا﴾؛ أي: ولدا صالحا ﴿لَّنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ١٨٩ فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا﴾؛ أي: سموه (عبد الحارث)؛ لأن الشيطان أمرهما بذلك، كما في حديث ابن عباس رضي الله عنهما الآتي.

قال ابن حزم: «اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله؛ كعبد عمر، وعبد الكعبة، وما أشبه ذلك، حاشا عبد المطلب»[(١)].

يحرم أن يتسمى الإنسان باسم معبد لغير الله؛ كعبد شمس، وعبد الدار، وعبد الكعبة، وعبد المسجد، وما أشبه ذلك؛ العبودية لله، والعبودية تقتضي الخضوع والتذلل لله، فلا خضوع ولا تذلل من أحد لأحد إلا من العبد لباريه وخالقه.

(حاشا عبد المطلب): فإنه جائز[(٢)]، والمطلب هو جد النبي صلى الله عليه وسلم، جاء في الحديث المعروف في ارتجاز النبي صلى الله عليه وسلم:

---

(١) ينظر: مراتب الإجماع (ص١٥٤).
(٢) ويحتمل أن يكون التقدير: (حاشا عبد المطلب؛ فإنه مختلف فيه).

أنا النبي لا كذب ❁ أنا ابن عبد المطلب[1]

فهذا يحتمل أحد أمرين:

الأول: أنه يدل على الجواز، قالوا: ليس هو عبد للمطلب بمعنى: أنه عابد له، إنما هو عبد يعني: مملوك، اشتراه المطلب، وذلك أن جد النبي ﷺ شيبة كان عند أخواله بالمدينة، فجاء به عمه إلى مكة بعد وفاة أبيه، وقد غير السفر لونه فصار أسود من أثر الشمس، فلما قدم عمه المطلب به على أهل مكة، قالوا: هذا عبد المطلب، ظنوه مملوكا رقيقا، لما فيه من السواد، وإلا فهو ابن أخيه، فعلق هذا الاسم به؛ فسمي: (عبد المطلب)، فلهذا لا يدخل في حكم: (عبد الكعبة)، و(عبد عمر) ونحوها.

ولكن بعض العلماء يمنع حتى (عبد المطلب)، فما الجواب عن قول الرسول ﷺ:

أنا النبي لا كذب ❁ أنا ابن عبد المطلب

الجواب: هو في الاحتمال الثاني: وهو: أن هذا كان على سبيل الإخبار، وفرق بين الإنشاء والإخبار، فهو يخبر عن أمر مضى.

حكايتك عن عبد المطلب وعبد شمس وعبد الدار وما أشبه ذلك أنت لم ترض به، ولم تسمهم بهذا الاسم، وإنما تخبر عن شيء مضى وصار لهم علما معروفا عند العرب.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما في الآية قال: لما تغشاها آدم حملت، فأتاهما إبليس

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٨٦٤)، ومسلم في صحيحه (ح: ١٧٧٦) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما.

فقال: إني صاحبكما الذي أخرجتكما من الجنة، لتطيعاني أو لأجعلن له قرني أيل، فيخرج من بطنك فيشقه، ولأفعلن ولأفعلن -يخوفهما- سمياه (عبد الحارث)، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتا، ثم حملت، فأتاهما، فقال مثل قوله، فأبيا أن يطيعاه، فخرج ميتا، ثم حملت، فأتاهما، فذكر لهما فأدركهما حب الولد، فسمياه: (عبد الحارث)؛ فذلك قوله تعالى: ﴿جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ﴾ [الأعراف: ١٩٠]. رواه ابن أبي حاتم[١].

(الأيل): الذكر من ذكور الوعل؛ يعني: يجعل للولد قرني وعل؛ ليشق بطنها عند الخروج، ولكن لم يطيعاه، غير أن حب الولد بعدما تكرر الأمر أدركهما فسمياه: (عبد الحارث)؛ شفقة عليه، فلم يشكرا النعمة؛ لأن حقيقة الشكر كما مر هي: صرف النعم في مرضاة الله.

وله بسند صحيح عن قتادة قال: «شركاء في طاعته، لم يكن في عبادته»[٢].

لم يعبدوه وإنما أطاعوه.

وله بسند صحيح عن مجاهد في قوله: ﴿لَئِنْ ءَاتَيْتَنَا صَٰلِحًا ﴾ [الأعراف: ١٨٩]

---

(١) أخرجه سعيد بن منصور في تفسيره (ح: ٩٧٣) من طريق عتاب بن بشير، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٣٤) من طريق شريك -كلاهما- عن خصيف، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، به موقوفا.

تابع سعيدا مجاهد عند سعيد بن منصور.

وهو خبر ضعيف؛ لضعف خصيف بن عبد الرحمن الجزري، ولما عُلم من الكلام في شريك -وهو ابن عبد الله النخعي-؛ ولأن عتابا لا بأس به إلا في روايته عن خصيف، فحديثه عنه منكر. ينظر: الميزان (١/ ٦٥٣- ٣/ ٢٧).

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٣٤)، وابن جرير في تفسيره (١٠/ ٦٢٥) بنحوه.

قال: «أشفقا ألا يكون إنسانا»[(١)].

بأن يكون بهيمة فسمياه عبد الحارث[(٢)].

وذكر معناه عن الحسن[(٣)]، وسعيد[(٤)]، وغيرهما.

الحاصل: أن كل اسم معبد لغير الله لا تجوز التسمية به، والحكاية المروية عن ابن عباس علق عليها محمد رشيد رضا في «مجموعة التوحيد الأولى» التي طبعها فقال: «هذه خرافة من أخبار بني إسرائيل، وكيف تكتب في مثل هذا؟!»[(٥)].

ولكن القصة صحيحة، ومعناها جاء عن قتادة، والحسن، وسعيد، وابن عباس، كلهم قال بهذا القول، وحينئذ لم تكن من الإسرائيليات.



(١) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٣٣).
(٢) ينظر: جامع البيان لابن جرير الطبري (١٣/ ٣١٠)، تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣٣).
(٣) ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣٣).
(٤) ينظر: تفيسر ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٣٣).
(٥) ينظر: تفسير المنار (٩/ ٤٣٤- ٤٣٥).

(٥٠) باب قول الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الآية [الأعراف: ١٨٠]

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ﴾ يشركون[١].

وعنه: «سموا اللات من (الإله)، والعزى من (العزيز)»[٢].

وعن الأعمش: «يدخلون فيها ما ليس منها»[٣].



---

(١) قوله: (يشركون) مروي عن قتادة وليس عن ابن عباس رضي الله عنهما. ينظر: تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٢٣).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٥٩٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٢٣).

(٣) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٢٣).

شرح: باب قول الله تعالى:

﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ الآية [الأعراف: ١٨٠]

دلت الآية على أن أسماء الله حسنى، وأننا مأمورون بأن نسأله بها: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَـٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَـٰهَ إِلَّا هُوَ ۖ لَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [طه: ٨]، وفي الحديث: «إِنَّ لِلهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ»(١)، والإحصاء هنا ثلاثة مراتب:

أولها: عدها وحفظها.

الثاني: معرفة معانيها وما دلت عليه.

الثالث: الدعاء بهذه الأسماء.

هذا هو الإحصاء، وليس هو العد فقط.

ولاشك أن أسماء الله حسنى، وهي أعلى الأسماء وأكملها، وأن الأسماء توقيفية، لا يجوز لأحد أن يزيد فيها أو ينقص منها، فما جاء في القرآن والسنة نثبته، وما لا فلا.

وسبق بيان أن ما جاء في القرآن والسنة هو على طريقين:

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٧٣٦)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٦٧٧) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

منها: ما أثبته الرب لنفسه بطريق الاسم، مثل (الرحمن): ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ [الرحمن: ١-٢]، ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَۖ عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِۖ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الحشر: ٢٢].

الثاني: ما كان على طريق الإخبار، وهذا لا نشتق منه اسما، ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: ٣] لا يجوز أن نسميه: (الفاتن)، وكذا (الماكر)، و(المستهزئ)، و(الكائد)، و(المخادع): ﴿ٱللَّهُ يَسۡتَهۡزِئُ بِهِمۡ﴾ [البقرة: ١٥]، ﴿إِنَّهُمۡ يَكِيدُونَ كَيۡدٗا ۝١٥ وَأَكِيدُ كَيۡدٗا﴾[الطارق: ١٥- ١٦]، ﴿يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمۡ﴾ [النساء: ١٤٢]، فهذا جاء على طريق الإخبار؛ فلا نشتق له منه اسما، وباب الإخبار أوسع من باب الأسماء والصفات، قال العلامة ابن القيم ما معناه في مثل هذا: ﴿وَمَكَرُواْ وَمَكَرَ ٱللَّهُۖ وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ﴾ [آل عمران: ٥٤]: «هذا في مقابلة ما فعلوا، مجازاتهم على وجه المقابلة»[1]، والله يقول: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ﴾ [الشورى: ٤٠].

وينبغي أن تدعو الله بالأسماء التي تناسب حاجتك، فمثلا تقول: «يا عليم علمني»، «يا غفور اغفر لي»، «يا رحيم ارحمني».

ثم إذا كان لهذه الأسماء مقابل فلا يجوز لك أن تسأل الله بأحدها فقط، فمن أسماء الله: (المعطي المانع)، (النافع الضار)، فلا تقل: «يا مانع يا مذل يا ضار ارحمني».

---

(١) ينظر: إعلام الموقعين (٣/ ١٧١).

والدعاء بالأسماء متضمن لدعاء العبادة، ودعاء المسألة.

دعاء العبادة: أن تعظم الله وتقدسه: «لا إله إلا الله وحده لا شريك له، سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر»، هذا دعاء عبادة.

دعاء المسألة: تقول: «يا رزاق ارزقني، يا غفار اغفر لي»، هذا دعاء مسألة.

ودعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة، ودعاء المسألة متضمن لدعاء العبادة، إذا سبحت وعظمت الله لا شك أنك تريد شيئا وهو: رضاه عنك، وأن يثيبك، فدعاء العبادة مستلزم لدعاء المسألة.

وما يجري على ألسنة الناس من قولهم: (الصانع) لا ينبغي، بل نقول: (الخالق)؛ لأن (الخالق) أوسع في المعنى من (الصانع) والله -جل وعلا- لم يسم نفسه (الصانع)، إنما هو (الخالق البارئ)، إنما جاء (الصانع) على طريق الإخبار: ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [النمل: ٨٨] يأتي مقيدا لا مطلقا.

ذكر ابن أبي حاتم عن ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَـٰٓئِهِۦ﴾ [الأعراف: ١٨٠] يشركون[(١)].

وعنه: «سموا اللات من (الإله)، والعزى من (العزيز)»[(٢)].

---

(١) الذي في النسخة التي بين أيدينا من تفسير ابن أبي حاتم (٥/ ١٦٢٣): عن ابن عباس ﴿ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ﴾: «يكذبون».

وإنما قوله: (يشركون) هو عن قتادة: ذكره ابن أبي حاتم بعد قول ابن عباس بأسطر، والله أعلم.

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (١٠/ ٥٩٧)، وابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٢٣) بسلسلة العوفيين، وهي مشهورة الضعف.

أسماء الله على ثلاثة أقسام:

الأول: ما أنزله في القرآن؛ كالسميع والبصير والرحمن الرحيم إلى غير ذلك.

الثاني: ما أطلع الله عليه ملائكته ومن شاء من خلقه.

الثالث: استأثر الله بعلمه، لم يطلع عليه ملكا مقربا، ولا نبيا مرسلا، هذا معنى ما جاء في حديث ابن مسعود: «أَسْأَلُكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُوَ لَكَ سَمَّيْتَ بِهِ نَفْسَكَ، أَوْ عَلَّمْتَهُ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ، أَوْ أَنْزَلْتَهُ فِي كِتَابِكَ، أَوِ اسْتَأْثَرْتَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَكَ، أَنْ تَجْعَلَ الْقُرْآنَ رَبِيعَ قَلْبِي، وَنُورَ صَدْرِي...» الحديث[(1)].

والإلحاد لغة: الميل، ومنه سمي لحد القبر لحدا؛ لأنه مائل، ألا ترى أنك إذا حفرت القبر وانتهيت منه حفرت لحدا مع جانب القبلة من القبر تضع فيه الميت، سمي (لحدا) لأنه مائل، وذلك أنك لم تدفن الميت وسط قعر القبر، بل حفرت له مع الجانب، هذا اشتقاقه.

والإلحاد في أسماء الله وصفاته أنواع، منه: تعطيل معانيها، وإنكار ما دلت عليه، هذا إلحاد، ووقع فيه الجهمية؛ فالجهمية لم يثبتوا لله حياة، ولا علما، ولا كلاما، ولا سمعا، ولا بصرا، ولا محبة، ولا سخطا، ولا غضبا، ويقولون: الله أجل وأعظم من أن يوصف بهذه الصفات!

نقول لهم: هذا هو الإلحاد بعينه، عطلتم ما أثبته الله لنفسه.

(١) سبق تخريجه.

وقابل الجهمية المشبهة، فقالوا: إن الله له يد وسمع وبصر وكلام من جنس صفات المخلوقين، سواء بسواء، فهو يتكلم بلسان وشفتين، ويبصر بعين مركبة من جفنين، وله يد جارحة كأيدينا؛ لأن الله أثبتها لنفسه، وعند الإطلاق لا نعرف إلا اليد المعروفة، والبصر المعروف.

نقول لهم: شبهتم الله بالمخلوق.

والسلف يقولون: «المعطل يعبد عدما، والمشبه يعبد صنما، والموحد يعبد إلها واحدا صمدا»[(١)].

ثم المعطلة يقولون: لو أثبتنا أن الله يتكلم لزم أن يكون له لسان، ولزم أن يكون له شفتان؛ لأنا لا نعرف الكلام إلا من شفتين ولسان وأضراس!

نرد عليهم ونقول: أخطأتم، بل نثبت له كلاما على وجه يليق بجلاله، ونقول كما قال الإمام الشافعي: «آمنا بالله، وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنا برسول الله، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله»[(٢)].

ثم إلزامكم هذا بأن الكلام لابد أن يكون من لسان وشفتين وأضراس غلط؛ فنجد بعض المخلوقات تتكلم وليس لها شفتان ولسان، قال تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِىَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ ﴾ [فصلت: ١١]، ﴿ ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ ﴾ [يس: ٦٥]، هل لها لسان؟! هل لها شفتان؟! هل لها لثة؟!

---

(١) ينظر: مقدمة الكافية الشافية.

(٢) ينظر: لمعة الاعتقاد (ص٧).

إذا كان هذا في المخلوقين فكيف تلزموننا ذلك في حق الله؟! تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا.

فنحن نصف الله بما وصف به نفسه، وبما وصفه به رسوله ﷺ، ولا نتجاوز القرآن والحديث، ولا يلزمنا ما ألزمتمونا به من شفة ولسان، فالله أعلم بنفسه وصفاته إلا أنا نثبتها كما أثبتها لنفسه، من غير تحريف ولا تعطيل ولا تكييف ولا تمثيل.

ومن الإلحاد في الأسماء والصفات: نفي الصفات عن الله، يقولون: إن الله موجب بذاته، بمعنى: أن هذا العالم قام في ذات الله، تكون هذا العالم بناء على ذات الله، فذات الله هي الموجبة، لا يثبتون أن الله خالق رازق مقدر محيي مميت، لا، هذا رأي الفلاسفة.

ومن الإلحاد في الأسماء والصفات: ما فعله المشركون، حيث سموا آلهتهم بأسماء اشتقوها من أسماء الله، فسموا اللات من (الإله)، والعزى من (العزيز)، و(اللات) صخرة منقوشة، تعبدها ثقيف بالطائف ومن التحق بهم.

و(العزى) شجرة سمر كانت بوادي نخلة، تعبدها قريش ومن التحق بها من العرب، والرسول ﷺ أزال هذين الصنمين كما هو معلوم.

ولما وقعت أُحد وحصل للمسلمين ما حصل جعل أبو سفيان يقول: أفيكم محمد؟

فنهاهم النبي ﷺ أن يجيبوه.

ثم قال: أفي القوم ابن أبي قحافة؟ ثلاث مرات.

ثم قال: أفي القوم ابن الخطاب؟ ثلاث مرات

ثم رجع إلى أصحابه فقال: أما هؤلاء، فقد قتلوا

ثم أخذ أبو سفيان يرتجز: أعل هبل، أعل هبل

لما وصل للتوحيد قال الرسول ﷺ: «أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ».

قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟

قال: «قُولُوا: اللهُ أَعْلَى وَأَجَلُّ».

فقال: لنا العزى ولا عزى لكم!

فقال الرسول ﷺ: «أَلاَ تُجِيبُوا لَهُ».

قالوا: يا رسول الله، ما نقول؟

قال: «قُولُوا اللهُ مَوْلاَنَا، وَلاَ مَوْلَى لَكُمْ»[1].

نستفيد من هذا: أنه لا بأس لو تركت الرد على المبطل الملحد، لكن إذا خاض في التوحيد وفي حق الله فيجب أن تشمر عن ساعدك، وأن ترد عليه باطله، ولا ينبغي أن تسكت، فمتى انتهكت محارم الله أو ألحد في أسماء الله وصفاته فلا يجوز لك أن تسكت، بل رد الباطل وبين الخطأ.

وعن الأعمش: «يدخلون فيها ما ليس منها»[2].

هذا -أيضًا- من الإلحاد؛ كتسميتهم له بالماكر والفاتن والمستهزئ.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٣٠٣٩) من حديث البراء بن عازب رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره (٥/ ١٦٢٣) ويرويه عن الأعمش: مبشر بن عبيد، وهو متروك بل متهم. ينظر: الميزان (٣/ ٤٣٣).

والحاصل: أن مذهب سلف الأمة وأئمتها هو إثبات الصفات حقيقة على وجه يليق بجلاله، نثبت يقينا أن الله له سمع وله بصر، ويقينا أنه يحب ويرضى، ويغضب ويسخط، ويرحم، وأنه هو الودود والكريم، لا نقول أنها من جنس صفات المخلوقين، بل نثبتها ونثبت معانيها وما دلت عليه على وجه يليق بجلاله من غير تعطيل ولا تحريف، ومن غير تكييف ولا تمثيل، على حد قوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، هذا هو مذهب أهل السنة، وهو الذي درج عليه أئمة السلف من المالكية والحنابلة والشافعية والحنفية وأهل الحديث.

أما الصحابة فلم يختلفوا في العقيدة أبدا، لا يمكن أن تجد بينهم خلافا فيها، وقع خلاف بينهم في المسائل الفرعية، أما العقائد فهم متفقون فيها، وإنما وقع الخلاف في أوائل القرن الثاني بسبب الجعد بن درهم الذي نشر مقالته وأخذها عنه الجهم بن صفوان، ثم نشرها، فنسب هذا المذهب الخبيث إلى جهم، وهو وراثة يهودية -كما سبق بيانه-.

وهيأ الله أهل السنة وردوا على جهم وأبطلوا مذهبه، ثم جاء بعده واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد، فدعوا إلى القول بخلق القرآن، وجاءت فتنة المأمون، وانتشر الشر بسببه، ودعا إلى الكلام، ودعا إلى ترجمة كتب الأوائل، ودعا إلى المنطق، وإلى القول بخلق القرآن، وإلى الشر والبلاء، حتى قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «ما ظن أن الله يغفل عن المأمون»[(١)].

---

(١) نقلها الصلاح الصفدي (الغيث المسجم ١/ ٧٩) ولم يسم الواسطة بينه وبين أبي العباس. **ينظر**: لوامع الأنوار البهية (١/ ٩).

(٥١) باب لا يقال: السلام على الله

في «الصحيح» عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا إذا كنا مع النبي صلى الله عليه وسلم في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تقولوا السلام على الله؛ فإن الله هو السلام»[(١)].



(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٨٣١)، ومسلم في صحيحه (ح: ٤٠٢).

شرح: باب لا يقال: السلام على الله

الله هو المسلم، والعبد المسلم، فلا يناسب أن تقول: «السلام على الله»، من الذي يسلم الله؟! الله لا يحتاج إلى أن يسلم عليه أحد، بل هو المسلم والغني الذي بيده كل شيء.

في «الصحيح» عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: كنا إذا كنا مع النبي ﷺ في الصلاة قلنا: السلام على الله من عباده، السلام على فلان وفلان، فقال النبي ﷺ: «لاَ تَقُولُوا السَّلاَمُ عَلَى اللهِ، فَإِنَّ اللهَ هُوَ السَّلاَمُ»[1].

(فإن الله هو السلام): هو الذي يسلم عباده من كل ما يؤذيهم، قال ابن القيم في النونية[2]:

وهو السلام على الحقيقة سالم ❊ من كل تمثيل ومن نقصان

فهو سالم من كل عيب ونقص، وهو المسلم لعباده من كل ما يؤذيهم، ألا ترى أنك إذا انصرفت من الصلاة كما في حديث ثوبان[3] تقول: «اللهُمَّ أَنْتَ السَّلاَمُ وَمِنْكَ السَّلاَمُ، تَبَارَكْتَ ذَا الْجَلاَلِ وَالْإِكْرَامِ»، فالسلام هو الله -جل وعلا-.

(1) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٨٣١)، ومسلم في صحيحه (ح: ٤٠٢).
(2) ينظر: الكافية الشافية "النونية" (ص١٨١).
(3) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٥٩١).



(٥٢) باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت

في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة؛ فإن الله لا مكره له»(١).

ولمسلم: «وليعظم الرغبة؛ فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه»(٢).



(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باختلاف يسير (ح: ٦٣٣٩)، ومسلم في صحيحه، باختلاف يسير (ح: ٢٦٧٩).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٦٧٩).

شرح: باب قول: اللهم اغفر لي إن شئت

في «الصحيح» عن أبي هريرة ﵁، أن رسول الله ﷺ قال: «لا يقل أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ليعزم المسألة؛ فإن الله لا مكره له»[(1)].

ولمسلم: «وَلْيُعَظِّمِ الرَّغْبَةَ، فَإِنَّ اللهَ لَا يَتَعَاظَمُهُ شَيْءٌ أَعْطَاهُ»[(2)].

نهي عنه؛ لأنه يدل على الفتور من قبل الداعي؛ كأنه غير مبال بحصول المغفرة، إن حصلت فحسن وإلا فلا بأس؛ يعني: وإن شئت فلا تغفر، إن أجاب دعاءه أو لم يجب كل ذلك عنده على السواء، فهذا لا يجوز، ويدل على استغناء العبد وعدم حاجته إلى عفو الله ورحمته ومغفرته، بل هو الفقير إلى الله، والله هو الغني عنه، العباد كلهم فقراء إلى الله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، دلت الآية على أن العباد كلهم فقراء إلى باريهم وخالقهم، وهو الغني عنهم، فلا ينبغي أن تعلق طلب المغفرة بالمشيئة، بل ادع الله واسأله وأنت موقن بالإجابة.

(وليعزم المسألة): أي: بت في المسألة واجزم دون تعليق بالمشيئة، ومعلوم أن العبد مطلوب منه الإكثار من الدعاء، وأن من علامات توفيق الله للعبد توفيقه للدعاء؛ فإن عمر يقول: «إني لا أحمل هم الإجابة، ولكني أحمل

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، باختلاف يسير (ح: ٦٣٣٩)، ومسلم في صحيحه، باختلاف يسير (ح: ٢٦٧٩).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٦٧٩).

هم الدعاء؛ لأني إن وفقت للدعاء تيقنت الإجابة»[1].

قد تقول: ها نحن ندعو ولكن لا يستجاب لنا، والله يقول: ﴿ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، ويقول: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ويقول: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ﴾ [النمل: ٦٢]: أما تذكرون ولو تذكرا قليلا ترجعون به إلى ربكم، فلماذا لا يستجاب لنا؟

نقول: قد تتأخر الإجابة بسبب أكل الحرام، فهو من أعظم الأسباب لمنع قبول دعاء الداعي، كما قال سعد: يا رسول الله ادع الله أن أكون مجاب الدعوة.

قال ﷺ: «أَطِبْ مَطْعَمَكَ تَكُنْ مُسْتَجَابَ الدَّعْوَةِ»[2]، وكذلك الحديث المعروف: «ذَكَرَ الرَّجُلَ يُطِيلُ السَّفَرَ أَشْعَثَ أَغْبَرَ، يَمُدُّ يَدَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ، يَا رَبِّ، يَا رَبِّ، وَمَطْعَمُهُ حَرَامٌ، وَمَشْرَبُهُ حَرَامٌ، وَمَلْبَسُهُ حَرَامٌ، وَغُذِيَ بِالْحَرَامِ، فَأَنَّى يُسْتَجَابُ لِذَلِكَ؟»[3].

والحاصل: أنه إذا لم يكن ثَمَّ مانع من الدعاء فإن الله يجيب دعاءك ويعطيك طلبك، أو يصرف عنك من البلاء ما لا تعلمه، أو يدخر لك في الآخرة ما هو أنفع وأصلح مما طلبته.

---

(١) لم أقف عليه مسندا، وقد ذكره ابن تيمية في الاقتضاء (٢/ ٢٢٩)، وابن القيم في الجواب الكافي (ص٢٩).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ١٠١٥).

(وليعظم الرغبة): بالغ في تعظيم الرغبة؛ بمعنى: أن يكون مطلوبك عظيما بنفعك في الدنيا والآخرة، ولا تكن همتك فيما تطلبه من الله همة دنيئة؛ كشيء من الدنيا وملذاتها، بل اطلب أعلى ما يمكن أن تطلبه، وهو نعيم الجنة والنجاة من عذاب الآخرة.

(فإن الله لا مكره له) أنت تسأل الله وتطلبه دون تعليق؛ فإن الله هو الذي يعطي ويمنع، ويصل ويقطع، ويعز ويذل، بيده التصرف على حسب حكمته وإرادته، يعطي لحكمة ويمنع لحكمة.

وغرض المصنف من هذه الترجمة بعدما تقدم من بيان الأسماء والصفات التي تدعو الله بها: أن يكون دعاؤك صحيحا؛ كأن المصنف يقول: سقت لك ما ينبغي أن تدعو الله به، وإذا عرفته فلا ينبغي أن تعلق دعاءك بالمشيئة، بل اعزم المسألة، واطلب أعظم شيء، وهو: دخول الجنة، والنجاة من النار.





(٥٣) باب لا يقول: عبدي وأمتي

في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: **«لا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضيء ربك، وليقل: سيدي ومولاي، ولا يقل: عبدي وأمتي، وليقل: فتاي وفتاتي، وغلامي»**[(١)].



---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له (ح: ٢٥٥٢)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٢٤٩).

شرح: باب لا يقول: عبدي وأمتي

في «الصحيح» عن أبي هريرة رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ: أَطْعِمْ رَبَّكَ وَضِّئْ رَبَّكَ، اسْقِ رَبَّكَ، وَلْيَقُلْ: سَيِّدِي مَوْلاَيَ، وَلاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ: عَبْدِي أَمَتِي، وَلْيَقُلْ: فَتَايَ وَفَتَاتِي وَغُلاَمِي»[1].

وذلك لما في هذا اللفظ من الإيهام بمشاركة الله -سبحانه-، وهذا تأدب مع جناب الربوبية، فالعباد كلهم مملوكون لله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِى ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، فإذا قلت: «هذا عبدي» حصل شيء من الاشتراك اللفظي، بأن لك عبدا، ولله عبيدا، وإن كان المراد الملك، ولكن نهي عن هذا من باب التأدب.

ويفرق بين المكلف وبين غيره، فالمكلف لا ينبغي أن تقول عنه: «عبدي»؛ لأنه عبد الله مأمور بفعل طاعة الله، وترك معصية الله، أما غير المكلف فلا مانع من إضافته إلى ربه؛ كأن تقول: «رب الإبل، رب الغنم، رب الدار»، وكما يقول العلماء: «ادعي رب الدار»، و«أخذ من رب الغنم زكاته»، وما أشبه ذلك.

ثم اختلف العلماء في قول: «هذا عبدي»، فقيل: محرم؛ لأن النهي يقتضي التحريم، ولأن الإنسان مأمور بحماية التوحيد؛ ولأن الحديث (لا يقل أحدكم: عبدي).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه، واللفظ له (ح: ٢٥٥٢)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٢٤٩).

وقيل: مكروه كراهة تنزيه، فهو جائز إلا أن الأولى والأفضل خلافه.

مال ابن مفلح في الفروع [(١)] إلى أنه محرم، وإضافة العبودية إلى الله إضافة ملك إلى مالكه وصفة إلى موصوفها؛ أي: تارة تقتضي الإضافة التكريم والتشريف، وتارة تقتضي الملك، فما جاء على طريق التعميم كما في قوله: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]، هذا للملك، الجميع كلهم عباد الله، وأما إضافة التكريم والتشريف: مثل: «بيت الله» للكعبة، فإضافتها هي تشريف وتكريم، وإن كانت كل الأرض لله، وكذا إضافة ناقة صالح إلى الله [(٢)]، إضافة تشريف وتكريم.

(ولا يقل أحدكم: أطعم ربك، وضئ ربك): النهي عن قول: «ربك»؛ للعلة المذكورة في قول: (عبدي وأمتي).

(وليقل: سيدي ومولاي): فإطلاق السيد على مالك العبد لا بأس به.

وبقي بحث وهو: هل يجوز إطلاق السيد على غير الله بناء على هذا الحديث؟

إن قلت: جائز، فما الجواب عن حديث عبد الله بن الشخير حين جاء وفد بني عامر فقالوا للرسول ﷺ: يا رسول الله، أنت سيدنا، وابن سيدنا، وخيرنا، وابن خيرنا، فقال: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ» [(٣)]؟

---

(١) ينظر: الفروع (٦/ ١١٥).
(٢) أي: «ناقة صالح»، ففي التنزيل العزيز: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَٰهَا﴾ [الشمس: ١٣].
(٣) يأتي تخريجه في باب ما جاء حماية النبي ﷺ حمى التوحيد، وسده كل طريق يوصل إلى الشرك.

هذه مسألة اختلف العلماء فيها، فمن قائل بالمنع؛ لحديث عبد الله بن الشخير، ومن قائل بالجواز؛ لقول النبي ﷺ: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ»[(١)]؛ أي: ولا أتعاظم وأتبجح بهذا، وقال لليهود: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ»[(٢)]؛ يعني: سعدا، قالوا: هذا يدل على جواز إطلاق السيد على غير الله، وأجابوا عن حديث عبد الله بن الشخير بأنه إنما أنكر عليهم ﷺ تأدبا مع جناب الربوبية، وحماية للتوحيد، لما قابلوه بهذا القول، وإلا فهو لا شك أنه سيدنا، وسيد الخلق أجمعين، لكن نهاهم خشية أن الشيطان يستجرهم وينقلهم لما هو أعظم من ذلك، وبهذا يتضح أنه لامانع من إطلاق السيد عليه ﷺ وإن كان في المسألة خلاف، ذكره العلامة ابن القيم في بدائع الفوائد[(٣)].

المسألة الثانية: هل السيد من أسماء الله؟

ذهب كثير من أهل العلم إلى عدم ثبوت هذا الاسم، وإطلاقه من باب الخبر لا حرج فيه؛ لأن باب الإخبار أوسع من باب الأسماء كما سبق تقريره.

المسألة الثالثة: هل يجوز للعبد المملوك أن يقول: «مولاي»؟ أم أن المولى هو الله -سبحانه-؟

أجاز هذا طائفة من أهل العلم بدليل هذا الحديث، وقالوا: إن لفظة

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٢٧٨) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٣٠٤٣)، ومسلم في صحيحه (ح: ١٧٦٨) من حديث أبي سعيد رضي الله عنه.

(٣) ينظر: البدائع (٣/ ١١٧٥).

المولى مشترك تنطبق على نحو ستة عشر اسما[1]، فالناصر يسمى: (مولى)، والعتيق يسمى: (مولى)، فلو أعتقت عبدا كنت أنت مولاه، وولي نعمته؛ إذ أنت الذي حررته من الرق.



(١) ينظر: النهاية في غريب الحديث (٥/ ٢٢٦)، وتهذيب الأسماء واللغات (٤/ ١٩٦).

(٥٤) باب لا يرد من سأل بالله

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «من استعاذ بالله فأعيذوه، ومن سأل بالله فأعطوه، ومن دعاكم فأجيبوه، ومن صنع إليكم معروفا فكافئوه، فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه» رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح[(١)].

(١) أخرجه أبو داود في سننه (ح: ٥١٠٩)، والنسائي في سننه (ح: ٢٥٦٧).

شرح: باب لا يرد من سأل بالله

عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «مَنِ اسْتَعَاذَ بِاللهِ فَأَعِيذُوهُ، وَمَنْ سَأَلَ بِاللهِ فَأَعْطُوهُ، وَمَنْ دَعَاكُمْ فَأَجِيبُوهُ، وَمَنْ صَنَعَ إِلَيْكُمْ مَعْرُوفًا فَكَافِئُوهُ، فَإِنْ لَمْ تَجِدُوا مَا تُكَافِئُوا بِهِ فَادْعُوا لَهُ حَتَّى تَرَوْا أَنَّكُمْ قَدْ كَافَأْتُمُوهُ». رواه أبو داود والنسائي بسند صحيح[1].

---

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده (٣/ ٤١١) (ح: ٢٠٠٧)-ومن طريقه البيهقي (٤/ ٣٣٤)-، والإمام أحمد في مسنده (ح: ٥٣٦٥)، وعبد بن حميد في مسنده (ح: ٨٠٦)، والبخاري في الأدب المفرد (ح: ٢١٦)، وأبو داود في سننه (ح: ٥١٠٩)، والنسائي في سننه (ح: ٢٥٦٧)، والطبراني في المعجم الكبير(ح: ١٣٤٦٦)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٧٣) (ح: ١٥٠٢) من طريق أبي عوانة، الوضاح بن عبد الله اليشكري.

وأخرجه أبو داود في سننه (ح: ١٦٧٢)، وابن حبان في صحيحه (ح: ٣٤٠٨) من طريق جرير بن عبد الحميد.

وأخرجه الطبراني في المعجم الكبير (ح: ١٣٤٦٥) من طريق حبان بن علي.

وأخرجه الحاكم في المستدرك (١/ ٥٧٢) من طريق عمار بن رزيق.

الأربعة، عن الأعمش، عن مجاهد، عن ابن عمر رضي الله عنهما، به، رجاله ثقات.

خالفهم:

عبد الملك بن معن -وهو ثقة-، فرواه عن الأعمش، عن إبراهيم التيمي، عن مجاهد، عن ابن عمر، أخرجه ابن حبان في صحيحه (ح: ٣٣٧٥).

ومغيرة بن مسلم -سلك الجادة-؛ فرواه عن الأعمش، عن أبي صالح، عن أبي هريرة، به مرفوعا، أخرجه البزار في مسنده (ح: ٩٢٧٢).

عبد الملك لا تحتمل مخالفته للأربعة -وإن صوب ابن حبان روايته-، وأما رواية مغيرة بن مسلم فمنكرة، أعلها البزار بعد إخراجها، وصوب رواية الجماعة أبو الحسن الدارقطني (العلل ٦/ ٣٧٤)، وأبو عبد الله الحاكم (المستدرك ١/ ٥٧٢).

هذا الحديث تضمن أربع مسائل:

المسألة الأولى: قوله ﷺ: «من استعاذ بالله فأعيذوه»، كما لو قال لك إنسان: «أستعيذ بالله ثم بك أن تكف شر فلان عني»؛ كأن تكون عندك سلطة وقدرة تستطيع بها أن تناصره، فهذا يجب عليك أن تناصره كما في الحديث الآخر: «انْصُرْ أَخَاكَ ظَالِمًا أَوْ مَظْلُومًا»[1]، إن كان ظالما تمنعه من الظلم، وإن كان مظلوما فتساعده وترفع الظلم عنه.

المسألة الثانية: (من سأل بالله فأعطوه): إذا سألك رجل بالله ينبغي أن تجيب سؤله تعظيما لله وإجلالا له، مثاله: لو قال شخص: «أسألك بالله أن تعطيني كذا وكذا»، فينبغي لك أن تعطيه، لكن هل يجب أم لا؟

أكثر العلماء على أنه لا يجب[2]، وقوله: (فأعطوه)، هذا أمر، والأمر يقتضي الوجوب، فهو على الوجوب، ذهب إلى هذا شيخ الإسلام ابن تيمية[3].

المسألة الثالثة: قوله ﷺ: (ومن دعاكم فأجيبوه): لو صنع أخوك المسلم وليمة ثم دعاك، فينبغي أن تذهب إليه، وأن تجيب دعوته، وقد قال رسول الله ﷺ: «حَقُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ سِتٌّ» قِيلَ: مَا هُنَّ يَا رَسُولَ اللهِ؟، قَالَ: «إِذَا لَقِيتَهُ فَسَلِّمْ عَلَيْهِ، وَإِذَا دَعَاكَ فَأَجِبْهُ، وَإِذَا اسْتَنْصَحَكَ فَانْصَحْ لَهُ، وَإِذَا عَطَسَ فَحَمِدَ اللهَ فَسَمِّتْهُ، وَإِذَا مَرِضَ فَعُدْهُ وَإِذَا مَاتَ فَاتَّبِعْهُ»[4]، هذه من حقوق المسلم، ولاسيما إذا كانت

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٤٤٣) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) ينظر: المنهاج شرح صحيح مسلم (١٤/ ٣٢)، والفتح (١٢/ ٤٣٥).
(٣) ينظر: الفروع (٦/ ٣٤٢).
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢١٦٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

الدعوة لوليمة العرس؛ فإنه إذا دعاك مسلم يحرم هجره لوليمة عرس وجب عليك الحضور، ولا يجوز لك التأخر، بل تفطر لو كنت صائما صوم نفل، لما في ذلك من إدخال الأنس والسرور عليه، وهذا خاص بوليمة العرس -عند طائفة من أهل العلم-، أما بقية الولائم كوليمة الختان، أو وليمة حضور غائب ونحوها فيستحب أن تحضر ولا يجب، أما إن كان صاحب بدعة وصاحب معاصي فلا ينبغي أن تحضر إلا إذا كنت تستطيع أن تمنعه من هذه المعصية؛ كأن يدير على طعامه كؤوس خمر -مثلا- وأنت تستطيع منعه ينبغي أن تحضر وتمنعه من هذا المحرم، أما إذا كنت لا تستطيع فلا تحضر.

وقال الخطابي: «دعي بعض العلماء إلى ليمة فأبى الحضور، فقيل له: إن سلفنا الصالح كانوا يدعون فيجيبون، والرسول ﷺ يقول: «دَعَاكُمْ أَخُوكُمْ وَتَكَلَّفَ لَكُمْ»[(١)].

فقال: السلف كانوا يدعون للأخوة والمواساة، ونحن ندعي للمكافأة والمباهاة، فلا نحضر»[(٢)].

---

(١) أخرجه الطبراني في الأوسط (ح: ٣٢٤٠) من حديث حماد بن أبي حميد، عن ابن المنكدر، عن أبي سعيد الخدري.
وابن أبي حميد ضعيف اضطرب في هذا الحديث، فرواه كما عند الدارقطني (ح: ٢٢٣٩) عن إبراهيم بن عبيد مرسلا.
وتابعه على الرواية الأولى: أبو أويس، كما عند البيهقي (٤/ ٤٦٢) إلا أن أبا أويس فيه لين - أيضًا-.
وللحديث شاهد من حديث جابر عند الدارقطني (ح: ٢٢٤١) وإسناده ضعيف جدا.

(٢) **ينظر**: معالم السنن (٤/ ٢٣٧).



المسألة الرابعة: قوله ﷺ: (ومن صنع لكم معروفا فكافؤه)؛ أي: إذا أسدى إليك إنسان معروفا ينبغي أن تكافأه، فتعطيه من جنس ما أعطاك أو أكثر؛ وذلك أنك إذا صنعت لشخص معروفا فهو ولابد سيميل قلبه إليك مقابل معروفك، ويذل لك، فينبغي أن يكافأك حتى يكون قلبه كله لله، فينقطع القلب عن جميع الخلائق ويتصل بالخالق.

(فإن لم تجدوا ما تكافئوه فادعوا له حتى تروا أنكم قد كافأتموه): (تروا)؛ أي: تظنوا، ويصح (تروا) أي: تعلموا أنكم قد كافأتموه؛كأن المعنى أنك تقول: «يا رب أنا عاجز عن مكافأته فكافئه أنت يا رب»، فتدعو له بالرحمة والمغفرة والرزق الواسع مقابل إحسانه إليك، وفي هذا المعنى يقول الشاعر[1]:

إذا أفـادك إنـسـان بفائـــدة ❁ مـن العلـوم فـأدمن شـكره أبـدا

وقـل: فـلان جـزاه الله صـالحة ❁ أفادنيهـا وألـق الكبـر والحسـدا



(١) محمد بن عبد الملك الفارقي المتوفي سنة ٥٦٤هـ ينظر: طبقات الشافعية الكبرى للسبكي(٦/ ١٣٧).

(٥٥) باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لا يسأل بوجه الله إلا الجنة»[١].



(١) أخرجه أبو داود في سننه (ح: ١٦٧١).

شرح: باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

عن جابر ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَا يُسْأَلُ بِوَجْهِ اللهِ إِلَّا الْجَنَّةُ»[1].

المصنف عقد الباب بلفظ الحديث، فقال: (باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة)، والحديث اشتمل على مسألتين:

المسألة الأولى: في الحديث دليل على أن لله وجها يليق بجلاله، ومذهب أهل السنة والجماعة: إثبات الصفات التي أثبتها الله لنفسه في كتابه، أو أثبتها له رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل، ومن غير تكييف ولا تمثيل، لا نقول: «إن لله وجها كوجوه خلقه»، فكما أن ذاته لا تشبه ذوات خلقه، فكذلك صفاته لا تشبه صفات خلقه، أما المنكرون للصفات ففسروا الوجه بالذات، وقالوا المعنى: (لا يسأل بذات الله إلا الجنة)، وهذا هو مذهب الجهمية والأشاعرة والمعتزلة ونظائرهم.

فنقول: لا، بل الوجه معنى حقيقي، قال الله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ [القصص: ٨٨]، وقال: ﴿وَيَبْقَىٰ وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٢٧].

وفي لغة العرب لا تسمى اليد: (وجها)، ولا الذات: (وجها)، ولا الرِّجل: وجها، إنما الوجه إذا أطلق فهو الوجه المعروف، إلا أنا لا نشبه الله بخلقه، هذا

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه (ح: ١٦٧١)، وابن عدي (٤/ ٢٤١)، والبيهقي (٤/ ٣٣٣) من حديث سليمان ابن معاذ، عن محمد بن المنكدر، عن جابر، به.
وهو حديث ضعيف، سليمان هو: ابن قرم، ومعاذ جده، وقد أورد ابن عدي هذا الحديث في جملة ما أنكر عليه. ينظر: الميزان (٢/ ٢١٩).



هو الحق، لا نحرف، ولا نكيف، ولا نمثل، ولا نعطل، وإثبات الوجه لله هو من باب إثبات الصفات الذاتية؛ كاليد والبصر والسمع وما أشبه ذلك.

المسألة الثانية: دل الحديث على أنه لا يسأل بوجه الله إلا غاية المطالب ونهايتها وأعلاها ألا وهي: الجنة، فعظمة الله وكبرياؤه وجلاله أجل وأعظم من أن يسأل بوجهه أمر من أمور الدنيا التي هي لا تزن عند الله جناح بعوضة، ولا بأس أن تسأل بوجه الله ما يستلزم دخول الجنة، كما لو سألت الله العظيم بوجهه الكريم أن يعيذك من النار؛ لأن من لازم السلامة من النار، أن تدخل الجنة، أو تسأل الله بوجهه الكريم السلامة من غضبه.



(٥٦) باب ما جاء في اللو

وقول الله -تعالى-: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهُنَا﴾ الآية [آل عمران: ١٥٤].

وقوله: ﴿الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا﴾ الآية [آل عمران: ١٦٨].

في «الصحيح» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «احرص على ما ينفعك، واستعن بالله ولا تعجزن، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا؛ ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل؛ فإن لو تفتح عمل الشيطان»(١).

---

(١) سبق تخريجه.

شرح: باب ما جاء في اللَّو

أي: النهي عن «لو»، وهو أن تقول إذا قدر الله قدرا وقضى أمرا: (لو فعلت كذا لكان كذا وكذا)، هذا غلط، وهذا يخدش كمال التوحيد، فما قدره الرب -سبحانه- وقضاه لابد أنه واقع، سواء قلت: (لو) أم لم تقل، بل قل: (قدر الله وما شاء فعل)، ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، فالله -جل وعلا- إذا حكم وقدر قدرا فلا مناص من وقوعه.

وقول الله -تعالى-: ﴿يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾ الآية [آل عمران: ١٥٤].

﴿يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، هذه الآية نزلت في وقعة أُحد، وذلك أن المشركين لما جاؤوا لحرب رسول الله ﷺ بالمدينة، خرج الرسول ﷺ ومعه المسلمون، وأمر الرماة أن يثبتوا، وأن لا يبرحوا مكانهم، فتقاتل المسلمون والكفار، فانهزم الكفار، فجاء الرماة لأخذ الغنيمة، فبقي مكانهم خاليا، فهجمت خيل لقريش من هذه الجهة فقتلوا المسلمين، وحصل على الصحابة ما حصل، وكان من جملتهم أناس من المنافقين، فقالوا: ﴿لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا﴾؛ أي: لو كنا على حق وهدى ما قتلنا ها هنا،

فلما حصل ما حصل دل على أننا لسنا على حق، فقال الله: ﴿قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾، فالله الذي قدر آجالهم في هذا المكان وقضى عليهم القتل، فلابد أن يبرزوا لوقوع قضاء الله وقدره.

﴿وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ﴾، بسبب هذه الواقعة ظهرما ظهر مما كانت تخفيه الصدور من النفاق، أما من كمل إيمانه فثبت على إيمانه ولم يزعزعه شيء من ذلك، كما قال الله: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، حكمة من الله بأن يتخذ من المؤمنين شهداء، وحكمة من الله بأن يظهر من في قلبه نفاق، ويثبت من كان قلبه ممتلئا إيمانا، ففتح باب (لو) لا ينفع.

وقوله: ﴿ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟﴾ الآية [آل عمران: ١٦٨].

لم يكونوا مع الرسول ﷺ وقالوا لإخوانهم: ﴿لَوْ أَطَاعُونَا﴾ ولم يخرجوا مع محمد ﴿مَا قُتِلُوا۟﴾، وإنما قتلوا بسبب خروجهم، ها نحن لم نخرج فلم يحصل علينا شيء، رد عليهم الرب بقوله: ﴿فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٨]؛ أي: ادفعوا عن أنفسكم الموت إذا جاءكم، هذه آجالهم، قضى الله عليهم أن تنتهي حياتهم، وأن تكون على هذه الكيفية في الجهاد في سبيل الله، المُحِق منهم والمخلص يجازى بالخير، والعكس

بالعكس، ثم قال: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ﴾ [آل عمران: ١٦٩- ١٧٠].

والحاصل: أنه إذا حصل عليك مصيبة لا ينبغي أن تقول: «لو فعلت كذا لكان كذا وكذا»، بل إذا حصل ما لا تحبه قل: «قدر الله وما شاء فعل»، الله الذي قدر وقضى وحكم، وما شاء فعله الرب -سبحانه-.

في «الصحيح» عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «احْرِصْ عَلَى مَا يَنْفَعُكَ، وَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَلَا تَعْجِزْ، وَإِنْ أَصَابَكَ شَيْءٌ فَلَا تَقُلْ: لَوْ أَنِّي فَعَلْتُ كَانَ كَذَا وَكَذَا، وَلَكِنْ قُلْ: قَدَّرَ اللهُ وَمَا شَاءَ فَعَلَ؛ فَإِنَّ لَوْ تَفْتَحُ عَمَلَ الشَّيْطَانِ»[(١)].

(في الصحيح): أي: صحيح مسلم.

وهذا حديث عظيم، جليل القدر، اشتمل على فوائد كثيرة:

الفائدة الأولى: دل الحديث على تفاوت المحبة؛ فإن الله يحب أقواما أكثر مما يحب آخرين -وإن اشتركوا في أصل المحبة-، كما أن عكسها -أيضًا- متفاوت كذلك وهو الغضب؛ فإن الله يغضب على قوم أكثر مما يغضب على آخرين؛ كما في قوله ﷺ: «اشْتَدَّ غَضَبُ اللهِ عَلَى قَوْمٍ اتَّخَذُوا قُبُورَ أَنْبِيَائِهِمْ مَسَاجِدَ»[(٢)]، وكما في حديث الشفاعة الطويل: «إِنَّ رَبِّي غَضِبَ الْيَوْمَ غَضَبًا لَمْ يَغْضَبْ قَبْلَهُ مِثْلَهُ»[(٣)].

الفائدة الثانية: دل الحديث على أن الله يحب القوي، والمراد بالقوة هنا

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٣٣٤٠)، ومسلم في صحيحه (ح: ١٩٤) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

هي: القوة المعنوية، ليست القوة الجسمية، فالبعير أقوى من الإنسان بكثير، يحمل ما لا يحمله الإنسان، لكن المراد القوة المعنوية في دين الله وشرعه، يستطيع بقوة الإرادة أن يأمر وينهي، وينفذ أمر الله، وينهى عن محارم الله باللسان واليد- على حسب قدرته كما جاءت به الشريعة-، فقد يكون المؤمن ضعيف البنية لكنه أقوى في دين الله وشرعه من قوي البنية.

(احرص على ما ينفعك): بفتح الراء، ويجوز كسرها، والحرص: غاية الاجتهاد في ما من شأنه أن يجلب لك النفع ويدفع عنك الضرر، هذا هو الحرص، ولا ينبغي أن تميل إلى الكسل وإلى البطالة، بل اجتهد لتدرك الغاية في تحصيل ما ينفعك، ويدفع عنك الضرر، طالبا العون في ذلك من الله -تعالى-.

(واستعن بالله): اطلب العون من الله، وهذا معنى قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥]، فالحرص على ما ينفعك عبادة، وهذا يدل على أن الله أمر بتعاطي الأسباب.

(وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كذا لكان كذا وكذا، ولكن قل: قدر الله وما شاء فعل): بعدما تفعل الأسباب، إن حصل لك مقصودك فاشكر الله، وإن كانت الأخرى بأن صرفه الله عنك لأمر اقتضته حكمته، فقل: (قدر الله وما شاء فعل)، ولا تقل: (لو أني أتيت فلانا لكان كذا وكذا)، ما دام أنك فعلت الأسباب وبلغت النهاية في الاجتهاد، ولم يحصل لك مرادك، فهذا أمر بيد الله، قل: (قدر الله وما شاء فعل).

(فإن لو تفتح عمل الشيطان)؛ يعني: كأنك جعلت الأمور مرتبة على

فعلك أنت، وأن الله لم يأمر ويقدر، وهذا من أكبر الخطأ، وأعظم الجرم.

لكن ما الجواب عن الأحاديث التي جاءت فيها: (لو)؛ كقول النبي ﷺ: «لَوْلَا أَنْ أَشُقَّ عَلَى أُمَّتِي لَأَمَرْتُهُمْ بِالسِّوَاكِ»[(١)]، و«لَوْلَا أَنَّ قَوْمَكِ حَدِيثُو عَهْدٍ بِشِرْكٍ لَهَدَمْتُ الْكَعْبَةَ، فَأَلْزَقْتُهَا بِالْأَرْضِ، وَجَعَلْتُ لَهَا بَابَيْنِ»[(٢)]؟

الأول: حث على استعمال السواك عند كل صلاة وعند كل وضوء، وليس فيه ما يدل على الوجوب[(٣)]، وأما الحديث الثاني فكأنه ﷺ ينبه الناس إلى أنه ينبغي أن يكون كذا ليفعلوه، وقد فهم ابن الزبير أن الرسول ﷺ ما منعه من بناء الكعبة على قواعد إبراهيم إلا خشية أن يفتتن هؤلاء المسلمون الذين أسلموا حديثا، فتركها حتى ينغرز الإسلام في قلوبهم حقيقة، وتنقلع جذور الشرك من قلوبهم، وقد ترجم البخاري في «صحيحه» على هذا الحديث بقوله: (باب: من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه فيقعوا في أشد منه)[(٤)]، فإذا زال المحظور فيفعل الأحسن، لذا هدمها ابن الزبير وجعل لها بابين، لكن لما جاء الحجاج هدمها وردها على ما كانت بنتها عليها قريش، ولما جاء

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٨٨٧)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٠٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ١٢٦)، ومسلم في صحيحه، واللفظ له (ح: ١٣٣٣) من حديث عائشة رضي الله عنها.

(٣) لما كان السواك مامورا به، وقال ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك...» دل على أن التقدير (لأمرتهم) أمر إيجاب؛ لأن أمر الاستحباب ثابت. **ينظر**: شرح مختصر الروضة (١/ ٣٥٦).

(٤) **ينظر**: صحيح البخاري (١/ ٣٧).



الرشيد أراد أن يهدمها وأن يردها على بناء ابن الزبير لمقتضى هذا الحديث؛ فمنعه الإمام مالك خشية أن يكون هذا البيت ملعبة للأمراء، فذكر: (لو) في هذه الأحاديث وغيرها ليست من (لو) التي تفتح عمل الشيطان؛ لأن المقام مقام تشريع.



(٥٧) باب النهي عن سب الريح

عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «لا تسبوا الريح، فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شر هذه الريح، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به». صححه الترمذي[١].



(١) أخرجه الترمذي في جامعه (ح: ٢٢٥٢)، والنسائي في سننه (ح: ١٠٧٠٤).

شرح: باب النهي عن سب الريح[1]

عن أبي بن كعب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «لَا تَسُبُّوا الرِّيحَ، فَإِذَا رَأَيْتُمْ مَا تَكْرَهُونَ فَقُولُوا: اللَّهُمَّ إِنَّا نَسْأَلُكَ مِنْ خَيْرِ هَذِهِ الرِّيحِ وَخَيْرِ مَا فِيهَا وَخَيْرِ مَا أُمِرَتْ بِهِ، وَنَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّ هَذِهِ الرِّيحِ وَشَرِّ مَا فِيهَا وَشَرِّ مَا أُمِرَتْ بِهِ». صححه الترمذي[2].

هو: أبي بن كعب بن قيس بن عبيد بن زيد الأنصاري الخزرجي، أبو المنذر، صحابي بدري، من قراء الصحابة وفقهائهم وعلمائهم، له مناقب مشهورة رضي الله عنه،

---

(١) هذا الباب من شرح معالي الشيخ الدكتور/ صالح بن عبد الله بن حميد.

(٢) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ح: ٢٩٨٢٩)، وعبد الله في زيادات المسند (٢١١٣٨)، والبخاري في الأدب المفرد (ح: ٧١٩)، والترمذي في جامعه (ح: ٢٢٥٢)، والنسائي في سننه (ح: ١٠٧٠٤)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٢/ ٣٨٠)، والحاكم في المستدرك (٢/ ٢٩٨) (ح: ٣٠٧٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣٩٢) من طرق عن سعيد بن عبد الرحمن بن أبزى، عن أبيه، عن أبي بن كعب، به.

وقع في أسانيده اضطراب شديد؛ فإنه يرويه عن سعيد: حبيب بن أبي ثابت وقد اختلف عليه فيه، ويرويه عن حبيب: الأعمش وشعبة واختلف عليهما فيه، ويرويه عن الأعمش جماعة منهم: محمد بن فضيل وأسباط بن محمد واختلف عليهما فيه، وذلك الاختلاف هو في الوقف والرفع، وفي شيخ حبيب هل هو سعيد أم بينهما ذر بن عبد الله؟

ولا يسع المقام لبسط ذلك كله، إلا أن الصواب من طرقه -والله أعلم- هو: ما رواه النسائي في عمل اليوم والليلة من الكبرى (ح: ١٠٧٠٦)، والحاكم (٢/ ٢٩٨) من طريق جرير بن عبد الحميد، عن الأعمش.

وما رواه النسائي (ح: ١٠٧٠٨- ١٠٧٠٩) وعنه الطحاوي (٢/ ٣٨٠) من طريق محمد بن أبي عدي والنضر بن شميل عن شعبة.

كلاهما -شعبة والأعمش- عن حبيب، عن ذر، عن سعيد، عن أبيه، عن أبي موقوفا.

مات سنة تسع عشرة في خلافة عمر رضي الله عنه، وقيل: سنة ست وثلاثين، وقيل غير ذلك[1].

والسب: هو الشتم، وقد جاء اللفظان في حديث في «الصحيحين» عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما وفيه: قالوا: يا رسول الله وهل يشتم الرجل والديه؟

قال: «نَعَمْ يَسُبُّ أَبَا الرَّجُلِ فَيَسُبُّ أَبَاهُ..» الحديث[2].

وقد يفرق بينهما بأن بينهما عموما وخصوصا مطلقا، فالسب أعم من الشتم، فكل شتم سب، وليس كل سب شتما.

والحاصل: أن السب والشتم واللعن والعيب والقدح ألفاظ يفسر بعضها بعضا.

والريح هو: الهواء الذي يصرفه الله -سبحانه- كيف يشاء، وجمعه: رياح.

والرياح تكون لواقح، وتكون عقيما، فاللواقح: هي التي تحمل الماء؛ كاللقحة من الإبل، يقول عز شأنه: ﴿وَأَرْسَلْنَا ٱلرِّيَـٰحَ لَوَٰقِحَ﴾ [الحجر: ٢٢].

والعقيم: التي لا ماء فيها، قال عز شأنه: ﴿وَفِى عَادٍ إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلرِّيحَ ٱلْعَقِيمَ﴾ [الذاريات: ٤١]؛ أي: لا مطر فيها.

ويقول أبو بكر ابن عياش: لا تقطر من السماء قطرة حتى تعمل فيها أربع رياح، فالصبا تهيجه، والشمال تجمعه، والجنوب تبدده، والدبور

(١) ينظر: الاستيعاب (١/ ٦٥)، الإصابة (١/ ٥٧).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٥٩٧٣)، ومسلم في صحيحه، واللفظ له (ح: ٩٠).

تفرقه، ذكره البغوي عنه في تفسيره[١].

ويقول جرير:

مطاعيم الشمال إذا استحنت ✽ وفي عرواء كل صبا عقيم[٢]

أي: مطاعيم الشتاء، والعراة: البرد الشديد[٣]، واستحنان الشمال: هيجانها.

ويقول الحافظ ابن القيم رحمه الله: «ومن آياته الباهرات هذا الهواء اللطيف المحبوس بين السماء والأرض...، إلى أن قال: فإذا شاء سبحانه حركه بحركة الرحمة، فجعله رخاء، ورحمة، وبشرى بين يدي رحمته، ولاقحا للسحاب يلقحه كما يلقح الذكر الأنثى بالحمل، وتسمى رياح الرحمة: المبشرات، أو: النشر، أو: الذاريات، أو: المرسلات، أو: الرخاء، أو: اللواقح.

ورياح العذاب تسمى: العاصف، أو: القاصف، وهما في البحر، والعقيم والصرر وهما في البر»[٤].

قالوا: وأمهات الرياح أربع: الصبا وتقابلها الدبور، والشمال وتقابلها الجنوب، وفي الحديث الصحيح المرفوع: «نُصِرْتُ بِالصَّبَا، وَأُهْلِكَتْ عَادٌ بِالدَّبُورِ»[٥].

---

(١) ينظر: معالم التنزيل (٤/ ٣٧٥).

(٢) ينظر: ديوان جرير (ص٤٠٠).

(٣) ينظر: الصحاح (٦/ ٢٤٢٣).

(٤) ينظر: مفتاح دار السعادة (٢/ ٥٧٢).

(٥) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٩٠٠) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

قوله: (لا تسبوا الريح): أي: تسندوا الفعل إليها فتشتموها، فهي لا فعل لها، بل هي مدبرة مأمورة، والله هو مرسلها ومدبرها، وسب المخلوق سب لخالقه -تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا-.

قال تعالى: ﴿ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَاحَ لَوَاقِحَ ﴾ [الحجر: ٢٢]، وقال: ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا صَرْصَرًا فِي أَيَّامٍ نَّحِسَاتٍ ﴾ [فصلت: ١٦].

قال الشافعي رحمه الله: «لا ينبغي لأحد أن يسب الريح؛ فإنها خلق لله مطيع، وجند من أجناده، يجعلها رحمة ونقمة إذا شاء سبحانه»(١).

قوله: (فإذا رأيتم ما تكرهون فقولوا: اللهم إنا نسألك من خير هذه الريح، وخير ما فيها، وخير ما أمرت به، ونعوذ بك من شرها، وشر ما فيها، وشر ما أمرت به).

أرشدهم النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك لما ينفعهم، ونهاهم عما يضرهم، وقد أضاف الخير والشر إليها إضافة سببية؛ أي: أن الله جعلها سببا لذلك الخير أو الشر الذي أمرت به، وليست مستقلة في ذلك، وفي قوله: (ومن شر ما فيها) جعلها ظرفا لذلك؛ لأن الله جعل الشر فيها تحمله إلى حيث أمرت.

وفي قوله: (وما أمرت به): جعل الأمر في السؤال كله لله -تعالى-، وفي كل ذلك أثبت الأسباب التي أثبتها مرسلها تبارك وتعالى، فهو سبحانه يرسلها مبشرات، ومخوفات، ونقمات؛ أي: بما يكره الإنسان، وبما يحب.

وقد روى أبو داود وابن ماجه بإسناد حسن عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

---

(١) ينظر: معرفة السنن والآثار (٥/ ١٩٠).



سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الرِّيحُ مِنْ رَوْحِ اللهِ، تَأْتِي بِالرَّحْمَةِ، وَتَأْتِي بِالْعَذَابِ، فَإِذَا رَأَيْتُمُوهَا فَلَا تَسُبُّوهَا، وَسَلُوا اللهَ خَيْرَهَا، وَاسْتَعِيذُوا بِاللهِ مِنْ شَرِّهَا»(١).

وجاء في «صحيح مسلم» عن عائشة رضي الله عنها قالت: كان رسول الله ﷺ إذا عصفت الريح قال: «اللهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ خَيْرَهَا، وَخَيْرَ مَا فِيهَا، وَخَيْرَ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْ شَرِّهَا، وَشَرِّ مَا فِيهَا، وَشَرِّ مَا أُرْسِلَتْ بِهِ»(٢).

وفي ذلك كله دليل على أن ما استجلبت نعم الله بمثل طاعته وشكره، ولا استدفعت نقمة بمثل الالتجاء إليه بالتوبة والاستغفار من الذنوب.

وفي هذا -أيضًا- تبيين العبودية لله، والطاعة له ولرسوله ﷺ، واستدفاع الشرور، والتعرض لله ونعمته، وهذا حال أهل التوحيد والإيمان، خلافا لأهل الجهل بالله وبدينه وبما شرعه لعباده، وخلافا لأهل الفسوق والعصيان الذين قد يحرمون ذوق طعم التوحيد وتحقيقه الذي هو حقيقة الإيمان.

وسب الريح نوع من الشرك؛ لأن سابها ينسب ما جاءت به وما تحمله إليها، فكأنها هي المتصرفة، ولم يعلم بأن الله هو المتصرف في هذا العالم بما

---

(١) أخرجه معمر في جامعه (ح: ٢٠٠٠٤)، وأحمد في مسنده (ح: ٧٦٣١)، والبخاري في الأدب المفرد (ح: ٧٢٠)، وأبو داود في سننه (ح: ٥٠٩٧)، وابن ماجه في سننه (ح: ٣٧٢٧)، وابن حبان في صحيحه (ح: ١٠٠٧)، والبيهقي في سننه (ح: ٦٥٣٧)، من طريق الزهري قال: حدثني ثابت بن قيس -وهو الزرقي- عن أبي هريرة، به، ورجاله ثقات.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٨٩٩).

تقتضيه حكمته وإرادته وتدبيره وتصريفه، والريح من خلق الله تجري على مقتضى أمره وإرادته وتدبيره وتصريفه.

وعلاقة هذا الباب بالتوحيد: أن سب الريح إذا كان يعتقد أن الريح هي التي تصنع الأشياء وتوجدها أو تحدثها فهو شرك في الربوبية، وهو شرك أكبر.

وإذا كان لا يعتقد ذلك، بل يعتقد أن الله هو الخالق المدبر، وإنما نسب هذه الأشياء إلى هذه المملوكات كقوله: الريح طيبة، وكان المسير حسنا، والملاح حاذقا فوصلنا بأمان فهذا محرم، إذ المتعين شكر الله ونسبة كل خير إليه سبحانه، فهو الذي سخر الريح، وهو الذي وفق الملاح وعلمه وفهمه.

ومما يستدعي التنبيه ما ساد في هذا العصر من الحديث عن الأحوال الجوية، والظواهر الكونية، ونسبة الأمطار إلى المنخفض الجوي، أو أنواع الرياح، وما شابه ذلك، فكل هذا مما ينبغي الاحتراز فيه، والحرص كل الحرص على الأدب مع الله -سبحانه-، وأنه سبحانه رب الأرباب، ومسبب الأسباب.

ولا مانع من الاستدلال بما وضعه الله من أسباب كمعرفة الخسوف والكسوف، ومواعيد المطر -بإذن الله-، وأحوال درجات الحرارة، لكن لا ينسب ذلك إلى الأسباب، بل إلى الله -سبحانه-، وتقديره ومشيئته، فهو سبحانه ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن.



(٥٨) باب قول الله تعالى:

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ الآية [آل عمران: ١٥٤]

وقوله: ﴿الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ﴾ الآية [الفتح: ٦].

قال ابن القيم في الآية الأولى: «فسر هذا الظن: بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل.

وفسر: بأن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته، وفسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله، وأن يظهره الله على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق، فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره بحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة، فذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته وحمده.

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتا على القدر وملامة له، وأنه

كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟!

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة ❁ وإلا فـإني لا إخالـك ناجيـا»[1].



(١) ينظر: زاد المعاد (٣/ ٣١٠- ٣١١).

شرح: باب قول الله تعالى:

﴿يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ الْأَمْرِ مِن شَيْءٍ قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾ **الآية [آل عمران: ١٥٤]**

إضافة الظن للجاهلية إضافة ذم وعيب، والآية في وقعة أحد، لما حصل على المسلمين ما حصل، فكانت الهزيمة أولا على المشركين، جاء الرماة الذين أمرهم الرسول ﷺ بأن يثبتوا مكانهم مبادرين لأخذ الغنيمة، فبقي مكانهم خاليا ليس فيه أحد[1]، فحصل على المسلمين ما حصل، وقتل من قتل من المسلمين، فالجهلة المنافقون ظنوا أنه لن تقوم دائرة للمسلمين بعد هذا، وأن الإسلام انتهى وبادت خضراؤه، هذا ظنهم!

﴿قُلْ إِنَّ الْأَمْرَ كُلَّهُ لِلَّهِ﴾: فالله -سبحانه- له الحكمة البالغة، والتقدير التام، وهو الذي قدر ذلك، فمن الحكم في ظهور المشركين على المسلمين: أن بعض الناس تعلق بالرسول ﷺ وظنوا أن عنده شيئا من النصر فأعلمهم الله بأن محمدا ﷺ ليس بيده شيء: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ﴾ الأمر بيد الله -سبحانه-؛ فحصل ما حصل لأجل أن تنصرف القلوب إلى الله وتتعلق به، وألا يبقى في القلب أي تعلق لا بالرسول ﷺ ولا بغيره.

(١) أي: أحد يسد الخلة، ويحمي الثغر؛ فإن قوما من الرماة ثبتوا فقتلوا - رضي الله عن الجميع -، منهم: أميرهم عبد الله بن جبير رضي الله عنه. ينظر: الطبقات لابن سعد (٢/ ٤١)، الروض الأنف (٦/ ٤٩)، وأصله في البخاري (ح: ٤٠٤٣).

ومن الحكم: ما ذكره الله في قوله: ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ﴾ [آل عمران: ١٦٥] من أين جاءت هذه المصيبة؟!

﴿قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾، المصيبة والهزيمة جاءتا من قبل عملكم، وهو أنهم: خالفوا أمر نبيهم ﷺ؛ فتركوا الثغر المهم.

وهذا فيه: الرد على القدرية الذين يقولون: إن الله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها، فالرب غير عالم بما سيقع، وهو خارج عن قدرته، والأمر أنف؛ أي: جديد، لم يكن في سابق علم الله.

أما المسلمون فيقولون: ما شاء الله كان، فالله إذا أراد شيئا لابد من وقوعه، شاء الناس أم لا، وما لم يشأ الله لم يكن، شاء الناس أم لا؛ لأن مشيئته غالبة نافذة على كل مشيئة، رضي الناس أم سخطوا.

وقوله: ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ الآية [الفتح: ٦].

حسن الظن بالله واجب من واجبات التوحيد، فلا يجوز لك أن تسيء الظن بالله، بل أحسن الظن بالله؛ فإن الله بعباده غفور رحيم ودود، يغفر الذنوب ويستر العيوب، وهو الرزاق ذو القوة المتين، ولكن ليس معنى هذا أنك تغلب جانب الرجاء بأن ترتكب المعاصي وتترك المأمورات بناء على حسن الظن بالله، وبناء على أن الله غفور رحيم، بل تذكر أن الله قال: ﴿نَبِّئۡ عِبَادِيٓ أَنِّيٓ أَنَا ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ٤٩ وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ ٱلۡعَذَابُ ٱلۡأَلِيمُ﴾ [الحجر: ٤٩- ٥٠]، فجمع بين الترغيب والترهيب، فلا تأمن من مكر الله، بل ابتعد عن كل ما يغضبه ويؤسفه[1].

(١) الأسف: شدة الغضب، كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّآ ءَاسَفُونَا ٱنتَقَمۡنَا مِنۡهُمۡ﴾ [الزخرف: ٥٥].

ثم تأمل قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [الأعراف: ١٦٧]: جمع بين العقاب والرحمة حتى إذا ذكرت عفو الله ومغفرته ورحمته أحسنت الظن به، وإذا ذكرت عذابه وذنوبك وما يفعل بالعصاة جعلت تبتعد عن المعاصي؛ فإن الله يقول: ﴿أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [الأعراف: ٩٩]، هذا في حق من غلب جانب الرجاء، وفي حق من غلب جانب الخوف قال سبحانه: ﴿وَمَن يَقْنَطُ مِن رَّحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ [الحجر: ٥٦]، فعليك أن لا تغلب جانب الرجاء وحسن الظن بالله، ولا تغلب جانب الخوف فتقنط من رحمة الله، بل سر بين هذا وهذا؛ كجناحي طائر؛ فالطائر عندما يطير ويحلق في الجو فإن جناحيه متساويان، وقد ذكر العلماء أنه ينبغي للإنسان في مرض الموت أن يغلب جانب الرجاء وحسن الظن بالله.

قال ابن القيم في الآية الأولى: «فسر: هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل.

وفسر: بأن ما أصابهم لم يكن بقدر الله وحكمته، وفسر بإنكار الحكمة، وإنكار القدر، وإنكار أن يتم أمر رسوله، وأن يظهره الله على الدين كله، وهذا هو ظن السوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح، وإنما كان هذا ظن السوء؛ لأنه ظن غير ما يليق به سبحانه، وما يليق بحكمته وحمده ووعده الصادق، فمن ظن أنه يديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضمحل معها الحق، أو أنكر أن يكون ما جرى بقضائه وقدره، أو أنكر أن يكون قدره بحكمة بالغة يستحق عليها الحمد، بل زعم أن ذلك لمشيئة مجردة، فذلك ظن الذين كفروا، فويل للذين كفروا من النار.

وأكثر الناس يظنون بالله ظن السوء فيما يختص بهم وفيما يفعله بغيرهم، ولا يسلم من ذلك إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته، وموجب حكمته وحمده.

فليعتن اللبيب الناصح لنفسه بهذا، وليتب إلى الله ويستغفره من ظنه بربه ظن السوء، ولو فتشت من فتشت لرأيت عنده تعنتا على القدر وملامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كذا وكذا، فمستقل ومستكثر، وفتش نفسك: هل أنت سالم؟

فإن تنج منها تنج من ذي عظيمة ❁ وإلا فـإني لا إخالـك ناجيـا»[1]

كمن ظن أن الله -سبحانه- يعاقب المطيعين، وينعم على العاصين، فقد ظن بالله ظن السوء.

ومن ظن أنه -سبحانه- يعذب محمدا ﷺ ويرضي أبا جهل بأعلى عليين، فقد ظن بالله ظن السوء.

ومن ظن أن الله -سبحانه- حال في كل مكان فقد ظن بالله ظن السوء، بل قال بعضهم: «سبحان ربي الأسفل»، فلا فرق -عنده- بين العلو والسفل!

ومن اعترض على قدر الله وحكمته وتصرفه فقد ظن بالله ظن السوء؛ فإن العقول قاصرة لا تصل إلى معرفة حكمة الله -جل وعلا-، فمنها ما قدر يظهر للإنسان حكمته وغايته المحمودة، ومنها ما لا يظهر، فعلى الإنسان الاستسلام والإذعان والانقياد لما قدر الله؛ فهو أعلم بمصالح خلقه.

---

(١) **ينظر**: زاد المعاد (٣/ ٣١٠- ٣١١).

وكذلك من ظن أن الله خاطبنا بالقرآن وأن له معانيَ باطنة غير ما دلت عليه تلك الظواهر فقد ظن بالله ظن السوء؛ كمن يقول: إن الله أمرنا أن نكد عقولنا وأن نفكر، لا نأخذ ما دلت عليه ظواهر القرآن والسنة، بل لها معنى باطن! -كما تقوله القرامطة-.

(ولو فتشت من فتشت): من العلماء والعوام والعقلاء؛ لرأيت أنهم يعترضون على الله ويعترضون على حكمته، فالله يعطي هذا ويمنع هذا، فيقول قائل: لم أعطي هذا؟ بل أنا أقرب منه، كما قال ابن الراوندي[1]:

ربي أعطيتني ورقا ولم تعطني ✽ ورقا فما لي بهذا الورق؟!

أو كمن يقول: أي مصلحة لله في أن يخلق ما فيه مضرة على الإنسان؛ كالحيات والعقارب، أو ما لا مصلحة فيه كالخنفساء، ما هي المصلحة في إيجاد الله لها؟!

نقول لك: عقلك قاصر، بل فيها من الحكم ما الله به عليم، سواء وصل عقلك إلى معرفتها أو قصر، اعزل هذا العقل واستسلم لخالق العقل، وانقد وأذعن لله.

قال ابن الجوزي: «دخلت على صدقة بن الحسين الحداد -وهو من

---

(١) أحمد بن يحيى بن إسحاق، أبو الحسين ابن الراوندي، اشتهر بالزندقة، وعرف بالإلحاد، صنف مصنفات مرذولة في الطعن على الشريعة، كان من أذكياء الخلق، إلا أنه حرم التوفيق، وحاد عن سواء الطريق، نعوذ بالله من حال أهل الضلال، توفي سنة ٢٩٨هـ. ينظر: لسان الميزان (١/ ٦٩٥).

الفقهاء- وإذا هو مصاب بالجرب، فجعل يعترض على الله، يقول: ما معنى هذا الذي عذبني الله به؟!»[1].

مع أن فيه مصلحة له، وهي: تخفيف ذنوبه، وحط سيئاته؛ كما قال النبي ﷺ: «إِنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلَاءِ، وَإِنَّ اللهَ إِذَا أَحَبَّ قَوْمًا ابْتَلَاهُمْ، فَمَنْ رَضِيَ فَلَهُ الرِّضَا، وَمَنْ سَخِطَ فَلَهُ السَّخَطُ»[2].

إن كنت عاقلا فينبغي أن تنصح نفسك وأن توقفها عند حدها، والله -سبحانه- يعطي لحكمة، يمنع لحكمة، وأسماؤه وصفاته كلها تدل على ما تقتضيه المصلحة والرحمة والحكمة، فالرب -جلا وعلا- لا يظلم أحدا أبدا، والسفاريني قال في منظومته[3]:

وجاز للمولى يعذب الورى ❁ من غير ذنب ولا جرم جرى
فكل ما منه تعالى يجمل ❁ لأنه عن فعله لا يسأل

أنكر عليه بعض المحققين[4]، وقالوا: الله لا يعذب أحدا بغير ذنب، ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾ [فصلت: ٤٦]، وربك يقول: ﴿وَوَجَدُوا۟ مَا عَمِلُوا۟ حَاضِرًا ۗ وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

---

(١) ينظر: الآداب الشرعية (٢/ ٣٠٢).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) ينظر: العقيدة السفارينية (الدرة المضية في عقد أهل الفرقة المرضية) (ص٦٢).

(٤) ينظر: تعليق الشيخ عبد الله أبابطين رحمه الله على لوامع الأنوار البهية (١/ ٣٢٠)، وشرح الشيخ ابن عثيمين رحمه الله على العقيدة السفارينية (ص٣٤٠).

(٥٩) باب ما جاء في منكري القدر

وقال ابن عمر: «والذي نفس ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبا، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر»، ثم استدل بقول النبي ﷺ: «الإيمان: أن تؤمن بالله، وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره»(١).

وعن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: «يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب.

فقال: رب، وماذا أكتب؟

قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني»(٢).

وفي رواية لأحمد: «إن أول ما خلق الله تعالى القلم، فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة»(٣).

وفي رواية لابن وهب: قال رسول الله ﷺ: «فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار»(٤).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٨).

(٢) أخرجه الطيالسي في مسنده، باختلاف يسير (ح: ٥٧٨)، والترمذي في جامعه، باختلاف يسير (ح:٢١٥٥ - ٣٣١٩).

(٣) أخرجها أحمد في مسنده (ح: ٢٢٧٠٥)، والبزار في مسنده (ح: ٢٦٨٧).

(٤) أخرجها ابن وهب في القدر (ح: ٢٦).

وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي قال: «أتيت أبي بن كعب، فقلت: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يذهبه من قلبي، فقال: «لو أنفقت مثل أحد ذهبا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار».

قال: فأتيت عبد الله بن مسعود، وحذيفة بين اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ». حديث صحيح رواه الحاكم في صحيحه[1].

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (١/ ١٠٥)، والإمام أحمد في مسنده (ح: ٢١٥٨٩).

شرح: باب ما جاء في منكري القدر

الإيمان بالقدر أحد أركان الإيمان الستة، ثبت أن جبريل حين سأل النبي ﷺ عن الإيمان قال: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[1]، وقال الله -تعالى-: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩]، ومعنى هذا: أنك تعتقد أن ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ما شاء الله وقوعه لابد أن يكون شاء الناس أم لا، وما لم يشأ وقوعه ولم يقدره لا يقع، شاء الناس أم لا.

وقد اختلف الناس في القدر، فمن قائل: لا قدر مطلقا، والله لا يعلم الأشياء إلا بعد وقوعها، فالرب لا يعلم ما سيكون، وماذا يؤول إليه أمرك!، وهذا قول باطل، والقرآن يكذبه: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِى كِتَٰبٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]، ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَآ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحديد: ٢٢]، وهذا قول غلاة القدرية، حدث في البصرة بعد انقضاء عهد الخلفاء الأربعة، وذلك في عصر بني أمية، بدأه معبد الجهني وغيلان القدري، وقالا: «الأمر أنف»؛ يعني: جديد مستأنف، لا يعلمه الله إلا بعد وقوعه، ثم انتشر هذا في غير العراق -أيضًا-، وكان حميد بن عبد الرحمن ويحيى بن يعمر يريدان الحج أو العمرة وأن يسألا عن هذه المسألة، فقالا: لو وفق لنا أحد أصحاب رسول الله ﷺ فنسأله، فلقيا عبد الله بن عمر رضي الله عنهما داخلا المسجد، قال يحيى: فاكتنفته أنا وصاحبي، وظننت أن صاحبي سيكل الكلام إلي، فقلت: أبا

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٨) من حديث عمر رضي الله عنه.

عبد الرحمن، إنه قد ظهر قبلنا أناس يتقفرون العلم، ويزعمون أن لا قدر، وأن الأمر أنف.

فقال: «إذا لقيتهم فأخبرهم أني بريء منهم، وأنهم برآء مني، والذي يحلف به عبد الله بن عمر: لو أن لأحدهم مثل أحد ذهبا فأنفقه في سبيل الله ما قبل الله منه حتى يؤمن بالقدر»، ثم استدل بقول النبي ﷺ: «وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»(١).

وإذا تأملت وجدت أن القدر على أربعة أقسام -كما جاءت به النصوص-:

الأول: تقدير أزلي.

الثاني: تقدير عمري.

الثالث: تقدير حولي.

الرابع: تقدير يومي.

أما التقدير الأزلي فهو مكتوب في اللوح المحفوظ، مقادير كل شيء إلى قيام الساعة.

وأما التقدير العمري فهو: ما جاء في حديث ابن مسعود: «إِنَّ أَحَدَكُمْ يُجْمَعُ خَلْقُهُ فِي بَطْنِ أُمِّهِ أَرْبَعِينَ يَوْمًا، ثُمَّ يَكُونُ عَلَقَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَكُونُ مُضْغَةً مِثْلَ ذَلِكَ، ثُمَّ يَبْعَثُ اللهُ مَلَكًا فَيُؤْمَرُ بِأَرْبَعِ كَلِمَاتٍ، وَيُقَالُ لَهُ: اكْتُبْ عَمَلَهُ، وَرِزْقَهُ، وَأَجَلَهُ، وَشَقِيٌّ أَوْ سَعِيدٌ، ثُمَّ يُنْفَخُ فِيهِ الرُّوحُ»(٢).

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه مفتتحا به كتاب الإيمان (ح: ٨).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٣٢٠٨)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٦٤٣).

وأما التقدير الحولي فهو في كل سنة في ليلة القدر، يقدر الله ما سيقع في تلك السنة، يموت هذا، ويرزق هذا، ويعطي هذا، ويمنع هذا، يخفض ويرفع، ويصل ويقطع، ويعطي ويمنع، وهي في ليلة سبع وعشرين من رمضان كما دلت عليه النصوص[(١)].

وأما التقدير اليومي فهو أن الله -سبحانه- ينظر كل يوم ثلاثا وستين نظرة في اللوح المحفوظ فيقضي ما يشاء، يحيي ويميت ويعز ويذل إلى غير ذلك[(٢)].

والحاصل: أن القول بأن الله لا يعلم بالأشياء، إلا بعد وقوعها لا شك إنه إلحاد وخروج عن دين الإسلام.

وقال ابن عمر: «والذي نفس ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبا، ثم أنفقه في سبيل الله ما قبله الله منه حتى يؤمن بالقدر».

ثم استدل بقول النبي ﷺ عن الإيمان: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلَائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ»[(٣)].

القدر مما يجب على المسلم أن يؤمن بخيره وشره، والأمر بيد الله -سبحانه-، ومن أنكر القدر فهو كافر حلال الدم والمال؛ أي: من ينكر أن الله قدر هذه الأشياء.

---

(١) لعل الشيخ رحمه الله يريد أنها أرجى الليالي وأحراها، وقيل: لا تقع إلا في سبعة وعشرين، وقيل غير ذلك.

(٢) لم أقف عليه، وروي نحوه في خبر مختلق مصنوع. ينظر: إرواء الغليل (٨/ ٢٨٧).

(٣) سبق تخريجه.

والقدر على أربعة مراتب:

المرتبة الأولى: علم الله -سبحانه- بما كان وبما هو كائن.

المرتبة الثانية: كتابته لذلك.

المرتبة الثالثة: مشيئته العامة بإيجاد ما كتبه وما علمه، وما شاء وقوعه.

المرتبة الرابعة: خلقه لما شاءه وقدره وكتبه.

أما العلم: فالرب -سبحانه- لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السماوات ولا في الأرض، ولا تحت أطباق الجبال، وهو عالم بما كان وما يكون، ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ [التغابن: ١١].

وأما الكتابة: فإنه كتب ما كان وما يكون، كتبه في الأزل، قال تعالى: ﴿أَلَمۡ تَعۡلَمۡ أَنَّ ٱللَّهَ يَعۡلَمُ مَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ إلى أن قال: ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَٰبٍۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحج: ٧٠].

وقال: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأۡنٖ وَمَا تَتۡلُواْ مِنۡهُ مِن قُرۡءَانٖ وَلَا تَعۡمَلُونَ مِنۡ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيۡكُمۡ شُهُودًا إِذۡ تُفِيضُونَ فِيهِۚ وَمَا يَعۡزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثۡقَالِ ذَرَّةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ وَلَآ أَصۡغَرَ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكۡبَرَ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مُّبِينٍ﴾ [يونس: ٦١].

وقال: ﴿مَآ أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِيٓ أَنفُسِكُمۡ إِلَّا فِي كِتَٰبٖ مِّن قَبۡلِ أَن نَّبۡرَأَهَآۚ﴾؛ أي: من قبل أن نخلقها ونوجدها، ﴿إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٞ﴾ [الحديد: ٢٢].

وأخطأ من زعم أن الكتابة هي: العلم، فسرها بالعلم؛ فإن الله عالم بمقادير الخلق قبل أن تكتب.



وأما المشيئة فإن الله -سبحانه- له المشيئة الكاملة، والقدرة العامة، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وأما الخلق، فالله -سبحانه- خلق العباد، وخلق أفعالهم: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]؛ هذه مراتب القدر، وفي «صحيح مسلم» عن ابن عمر، عن أبيه رضي الله عنهما في حديث جبريل قال الرسول ﷺ: «فَإِنَّهُ جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ دِينَكُمْ»[(١)]، وعلى هذا الحديث تدور عقيدة المسلمين، ومن ذلك: الإيمان بالقدر خيره وشره، فالقدر فيه خير وشر، لكن الشر لا ينسب إلى الله بل ينسب إلى العبد، والشر من مفعولاته -سبحانه-، والسبب عملك وما ارتكبته، وهذا معنى قوله ﷺ: «وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ»[(٢)].

ومن أمثلته التي تقربه: لو أن ملكا عادلا من شأنه أن كل من ارتكب جريمة أدبه، فالسارق يقطع يده - عملا بالشرع-، والزاني يرجمه إذا كان محصنا، ويجلده ويغربه عاما إذا كان غير محصن؛ كذلك شارب الخمر يجلده -على وفق ما جاءت به الشريعة-، والقاتل يقتله، هذا الشر الذي حصل فقطعت يد هذا الشخص بسبب سرقته، هو شر عليه بسبب جرمه، لكن من جهة الملك الذي أمر بقطع يد السارق هو عدل وخير، ولولا هذا لفسد الناس، فالملك يشكر عليه ويحمد ويدعى له، وعمله هذا عدل وليس بشر من قبله، إنما هو شر من قبل الذي سرق أو شرب أو قتل، ولله المثل الأعلى.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٨).

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه (٧٧١) من حديث علي رضي الله عنه في الاستفتاح الطويل.

وعن عبادة بن الصامت أنه قال لابنه: «يا بني إنك لن تجد طعم الإيمان حتى تعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن أول ما خلق الله القلم، فقال له: اكتب».

فقال: رب، وماذا أكتب؟

قال: اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة»، يا بني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من مات على غير هذا فليس مني»[1].

وفي رواية لأحمد: «إِنَّ أَوَّلَ مَا خَلَقَ اللهُ الْقَلَمُ، ثُمَّ قَالَ: اكْتُبْ فَجَرَى فِي

---

(١) أخرجه الطيالسي في مسنده باختلاف يسير (ح: ٥٧٨)، ومن طريقه الترمذي في جامعه باختلاف يسير (ح: ٢١٥٥- ٣٣١٩)، وابن أبي عاصم في السنة باختلاف يسير (ح: ١٠٥) من طريق عبد الواحد بن سليم، عن عطاء بن أبي رباح، عن الوليد بن عبادة، عن أبيه به مرفوعا.
وإسناده ضعيف جدا؛ قال الإمام أحمد في عبد الواحد (العلل ٣/ ٣٢٢): «حديثه منكر، أحاديثه موضوعة»، وضعفه -أيضا- النسائي (الضعفاء ص٦٨)، وقال الذهبي (الميزان ٢/ ٦٧٤): «له حديث منكر في القدر وخلق القلم».
تابع عطاء يزيد بن أبي حبيب كما عند الإمام أحمد (ح: ٢٢٧٠٧)، وابن أبي عاصم (ح: ١٠٣)؛ إلا أن في إسناده ابن لهيعة.
وأخرجه أبو داود في سننه (ح: ٤٧٠٠)، والطبراني (مسند الشاميين ٥٩)، والبيهقي (١٠/ ٣٤٤) من طريق رباح بن الوليد، عن إبراهيم بن أبي عبلة، عن أبي حفصة قال: قال عبادة.. الحديث.
رباح صدوق، وأبو حفصة هو حبيش بن شريح ليس بالمعروف، وثقه العجلي (الثقات ص٤٩٦)، وابن حبان (٤/ ١٩٠).
قد اضطرب فيه رباح؛ فرواه كما في (مسند الشاميين ٥٨) عن إبراهيم، عن أبي يزيد الأزدي، عن عبادة، وأبو يزيد لا يعرف، وسماع حبيش من عبادة محل شك.

يَدَيِ السَّاعَةِ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ»[1].

وفي رواية لابن وهب: قال رسول الله ﷺ: «فَمَنْ لَمْ يُؤْمِنْ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ أَحْرَقَهُ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ- بِالنَّارِ»[2].

هذا الحديث جاء من طريق الوليد بن عبادة قال: دخلت على أبي وأنا أتخايل فيه الموت، فقلت له: يا أبتي أوصني، فقال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «لن يجد طعم الإيمان عبد حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه وما أخطأه لم يكن ليصيبه»، يا بني، سمعت رسول الله ﷺ يقول: (أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب...) الحديث، وهذا الحديث دل على وجوب الإيمان بالقدر، وأنه -كما تقدم- ركن من أركان الإيمان الستة تعتقد أن الله عالم بأفعال العباد قبل وقوعها، فإذا آمنت بالقدر استراح قلبك، وانشرح صدرك، واطمأن ضميرك؛ لأنك تعلم أن المصيبة التي وقعت عليك لم تكن جديدة بل قدرها الله قبل أن يخلقك، كما قال بعض المستشرقين: إن من دلائل صواب دين الإسلام، ومن محاسن ما يقوله المسلمون: أن ما أصابك لا يخطئك، وأن

---

(1) أخرجها أحمد في مسنده (ح: ٢٢٧٠٥)، والبزار في مسنده (ح: ٢٦٨٧)، والطبراني في مسند الشاميين (١٩٤٩) من حديث أيوب بن زياد عن عبادة بن الوليد بن عبادة عن أبيه عن جده به مرفوعًا.
ولا يصح؛ أيوب لم يؤثر توثيقه عن غير ابن حبان. ينظر: الثقات (٦/ ٥٨).

(2) أخرجها ابن وهب في القدر (ح: ٢٦) من حديث الأعمش قال: قال عبادة، بين الأعمش وعبادة مفاوز تنقطع دونها أعناق الإبل.
وأخرج نحوه ابن أبي عاصم في السنة (١١١) من طريق عثمان بن أبي العاتكة حدثني سليمان المحاربي، عن الوليد بن عبادة عن أبيه، وعثمان لين الحديث.

ما أخطأك لم يكن ليصيبك، فيكون الإنسان مرتاح الضمير، ومطمئن البال».

ودل الحديث على أن العلم بأن ما أخطأك لم يكن ليصيبك، وما أصابك لم يكن ليخطئك: من حلاوة الإيمان، فالإيمان له في قلبك حلاوة وبشاشة، ومن حلاوة الإيمان أن المصيبة التي وقعت يخف ضررها عليك متى اعتقدت أن الله قدرها عليك قبل أن تخلق، فإنك تجد شيئا من الراحة، ولهذا تقدم في الحديث: «ثَلَاثٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ وَجَدَ حَلَاوَةَ الإِيمَانِ: أَنْ يَكُونَ اللهُ وَرَسُولُهُ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِمَّا سِوَاهُمَا..»[(١)].

إذا امتلأ قلبك من محبة الله رضيت بما قدر الله، وإذا امتلأ قلبك بمحبة رسول الله ﷺ صدقته فيما يقول، ومن جملة ذلك: الإيمان بالقدر.

قوله: (أول ما خلق الله القلم فقال له: اكتب، فجرى في تلك الساعة بما هو كائن إلى يوم القيامة): القلم خلقه الله وبعدما خلقه أمره أن يكتب، فكتب مقادير الخلق متى تولد، متى تموت، وما يجري عليك في حياتك، وما يجري عليك بعد وفاتك، كل ذلك مكتوب، وجاء في الحديث: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ»[(٢)]، ومن ثم اختلف العلماء هل خلق الله العرش قبل القلم أم القلم قبل العرش؟

ذهب بعض أهل السنة كابن جرير[(٣)] إلى أن القلم خلق قبل العرش،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ١٦)، ومسلم في صحيحه (ح: ٤٣) من حديث أنس رضي الله عنه.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٣١٩١) من حديث عمران بن حصين رضي الله عنهما.
(٣) ينظر: تاريخ الطبري (١/ ٣٢).

ولكن الصواب: أن الذي خلق أولا هو العرش، كما في الحديث: «كَانَ اللهُ وَلَمْ يَكُنْ شَيْءٌ غَيْرُهُ، وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى المَاءِ»، فدل على أن أول مخلوقات الله: العرش.

أما حديث: (أول ما خلق الله القلم)؛ يعني: من هذا العالم الموجود، فأول ما خلق الله في هذا العالم القلم، وقد أشار إلى الخلاف العلامة ابن القيم في «النونية» فقال:

والناس مختلفون في القلم الذي ❁ كتب القضاء به من الديان

هل كان قبل العرش أو هو بعده ❁ قولان عند أبي العلا الهمذاني

ثم رجح فقال:

والحق أن العرش قبل لأنه ❁ قبل الكتابة كان ذا أركان

هذا الذي ذهب إليه ابن تيمية[(١)]، وابن القيم[(٢)].

وفي المسند والسنن عن ابن الديلمي قال: «أتيت أبي بن كعب، فقلت: في نفسي شيء من القدر، فحدثني بشيء لعل الله يذهب من قلبي، فقال: «لو أنفقت

---

(١) ينظر: الصفدية (٢/ ٧٩).

(٢) ينظر: الكافية الشافية (ص٦٧)، وذكر رحمه الله معنى حديث (أول ما خلق الله القلم..) بقوله:

وكتابة القلم الشريف تعقبت ❁ إيجاده من غير فصل زمان

لما براه الله قال اكتب كذا ❁ فغدا بأمر الله ذا جريان

فجرى بما هو كائن أبدا إلى ❁ يوم المعاد بقدرة الرحمن

مثل أحد ذهبا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر، وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطأك لم يكن ليصيبك، ولو مت على غير هذا لكنت من أهل النار».

قال: فأتيت عبد الله بن مسعود، وحذيفة بن اليمان، وزيد بن ثابت، فكلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي ﷺ، حديث صحيح رواه الحاكم في صحيحه [(١)].



---

(١) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (ح: ٢١٥٨٩)، وعبد بن حميد في مسنده (ح: ٢٤٧)، وأبو داود في سننه (ح: ٤٦٩٩)، وابن ماجه في سننه (ح: ٧٧)، وابن أبي عاصم في السنة (ح: ٢٤٥)، وابن حبان في صحيحه (ح: ٧٢٧)، والطبراني في المعجم الكبير(ح: ٤٩٤٠)، والبيهقي في السنن الكبرى (ح: ٢٠٨٧٤) من حديث أبي سنان سعيد بن سنان، عن وهب بن خالد، عن ابن الديلمي به، وإسناده حسن، والمرفوع منه هو من مسند زيد بن ثابت رضي الله عنه.

(٦٠) باب ما جاء في المصورين

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال الله -تعالى-: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي؟!، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة»[١].

ولهما عن عائشة رضي الله عنها، أن رسول الله ﷺ قال: «أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله»[٢].

ولهما عن ابن عباس رضي الله عنهما: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كل مصور في النار، يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم»[٣].

ولهما عنه مرفوعا: «من صور صورة في الدنيا كلف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ»[٤].

ولمسلم عن أبي الهياج قال: قال لي علي: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟

ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرا مشرفا إلا سويته»[٥].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٥٩٥٣)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢١١١).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٥٩٥٤)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢١٠٧).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٢٢٥)، ومسلم في صحيحه، واللفظ له (ح: ٢١١٠).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٥٩٦٣)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢١١٠).
(٥) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٩٦٩).

شرح: باب ما جاء في المصورين

أي: في الوعيد الشديد لمن تعاطى ذلك.

ووجه إدخال هذا الباب في «كتاب التوحيد» هو: أن مقصد «كتاب التوحيد»: بيان التوحيد الذي خلق الله العباد لأجله، وبيان ما ينافي التوحيد من الشرك الأكبر، وبيان ما ينافي كماله الواجب من الشرك الأصغر، وبيان الذرائع المقربة للشرك، وبيان الوسائل الموصلة إليه، وبيان البدع القادحة في التوحيد، وبيان المعاصي المنقصة لثواب التوحيد، فأدخل هذا الباب لأن التصوير معصية.

فإن قلت: المعاصي كثيرة، الخمر معصية، والزنا معصية، وقتل النفس معصية، وكلها كبائر، فما وجه ذكر معصية التصوير -على وجه الخصوص- في «كتاب التوحيد»؟

نجيبك بأن نقول: موضوع الكتاب هو: أن لا يعبد إلا الله، وأن من عبد غير الله فقد جعله شريكا لله ومضاهيا لله، والتصوير مشابهة لخلق الله، وإذا كان الوعيد جاء فيمن عمل عملا شابه به خلق الله، فما ظنك بمن اتخذ شريكا شبه به الله؟!، بأن صرف له شيئا من العبادة؛ كالذبح والنذر وغير ذلك.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «قَالَ اللهُ -عَزَّ وَجَلَّ-: وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذَهَبَ يَخْلُقُ خَلْقًا كَخَلْقِي؟ فَلْيَخْلُقُوا ذَرَّةً، أَوْ لِيَخْلُقُوا حَبَّةً أَوْ لِيَخْلُقُوا شَعِيرَةً»[1].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٥٩٥٣)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢١١١).

ولهما عن عائشة ﵂، أن رسول الله ﷺ قال: «أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الَّذِينَ يُضَاهُونَ بِخَلْقِ اللهِ»(١).

«يضاهون»؛ أي: يماثلون ويشابهون بخلق الله، فإذا كانت هذه حالهم فما ظنك بمن ساوى غير الله بالله؟!

ولهما عن ابن عباس ﵄: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «كُلُّ مُصَوِّرٍ فِي النَّارِ، يَجْعَلُ لَهُ، بِكُلِّ صُورَةٍ صَوَّرَهَا، نَفْسًا فَتُعَذِّبُهُ فِي جَهَنَّمَ»(٢).

ولهما عنه مرفوعا: «مَنْ صَوَّرَ صُورَةً فِي الدُّنْيَا كُلِّفَ أَنْ يَنْفُخَ فِيهَا الرُّوحَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَيْسَ بِنَافِخٍ»(٣).

ولمسلم عن أبي الهياج قال: قال لي علي: «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله ﷺ؟

ألا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرا مشرفا إلا سويته»(٤).

(ألا تدع صورة): نكرة في سياق النفي فتفيد العموم.

(إلا طمستها): المجسمة لابد من إتلافها، وإنما الطمس يكون فيما يقولون: إنه حبس للظل.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٥٩٥٤)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢١٠٧).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٢٢٥)، ومسلم في صحيحه، واللفظ له (ح: ٢١١٠).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٥٩٦٣)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢١١٠).
(٤) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٩٦٩).

فتضمن هذا الحديث مسألتين:

المسألة الأولى: حكم التصوير، وقد تقدم الكلام عليها، وأن القول الصحيح الذي عليه المحققون من أهل العلم والذي تشهد له الأدلة من نصوص رسول الله ﷺ: تحريم الصور، سواء كان لها ظل أو لم يكن لها ظل؛ لعمومات الأحاديث، ولما يدل عليه هذا الحديث: (ألا تدع صورة إلا طمستها)؛ إذ إن الطمس لا يكون إلا في ما له ظل، فلا يلتفت إلى قولهم: «التصوير ما هو إلا حبس للظل»، وقد سبق أن قلنا: نطالب هذا القائل بالدليل، فنقول له: وإن كان حبسا للظل فهل عندك دليل يجوز هذا من كتاب أو سنة أو قول صحابي؟! لا يستطيع أن يأتي بشيء.

المسألة الثانية: قوله: (ولا قبرا مشرفا)؛ أي: مرتفعا (إلا سويته): أصل شرك العالم هو: الافتتان بالقبور، بالذبح لها، ودعائها، والنذر لها، والبناء عليها؛ فإنك إذا تأملت سنة رسول الله ﷺ وتأملت ما عليه أكثر الناس تجد حالهم متناقضا متنافيا مع سنة رسول الله ﷺ، هذا رسول الله ﷺ يقول: «لَا تُصَلُّوا إِلَى الْقُبُورِ»[1] وهؤلاء يصلون إليها!

ورسول الله ﷺ نهى عن اتخاذ القبور مساجد، وهؤلاء يبنون على القبور مساجد، ويرون أن المسجد الذي يبنى على القبر أفضل من غيره!

ورسول الله ﷺ نهى عن أن يبنى على القبر، وهؤلاء يبنون عليها القباب، ويشيدون المباني عليها، بل يزينونها بحلي نفيسة، ويجعلون أناسا على خيولهم

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٩٧٢) من حديث أبي مرثد الغنوي رضي الله عنه.

مقابلين لهذا القبر أربعا وعشرين ساعة، كلما مضت ساعات جاء آخرون على خيولهم، كما هو واقع الآن في قبور بعض العظماء!

ورسول الله ﷺ نهى عن أن يجصص القبر، وهؤلاء يجصصون القبور، ويرصفونها، ويضعون لها المداخل!

ورسول الله ﷺ نهى أن يتخذ قبره عيدا، و(العيد): اسم لما يعود ويتكرر مجيئه، سواء كان في اليوم أو السنة أو الأسبوع، وهؤلاء يأتون إليها في أيام معينة، ويقولون: (هذا ميلاد أحمد البدوي)، (هذا ميلاد عبد القادر الجيلاني)، وما أشبه ذلك، فانظر إلى منابذتهم ومباينتهم للسنة!

والرسول ﷺ نهى عن دعاء صاحب القبر وأن يسأل من دون الله، وهؤلاء يأتون إلى القبر ويقولون: (المدد المدد يا فلان)، (أغثني أغثني يا فلان)!

أيبقى لهؤلاء إسلام مع مخالفتهم لصحيح وصريح سنة رسول الله ﷺ ؟!

قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «من جعل بينه وبين الله واسطة، يرجوه ويظن أنه يرفع الحوائج إلى الله، فهو كافر إجماعا»[1]، فانظر إلى ما عليه أكثر الناس اليوم، هو بعينه من جنس شرك الأولين الذي بعث فيهم النبي ﷺ، فإن قوما منهم يعبدون الأشجار، وآخرون يعبدون القبور، وآخرون يعبدون الصخر، هكذا فرقوا دينهم كما قال تعالى: ﴿ أَفَرَءَيْتُمُ ٱللَّٰتَ وَٱلْعُزَّىٰ ﴿١٩﴾ وَمَنَوٰةَ ٱلثَّالِثَةَ ٱلْأُخْرَىٰٓ ﴿٢٠﴾ أَلَكُمُ ٱلذَّكَرُ وَلَهُ ٱلْأُنثَىٰ ﴾ [النجم: ١٩ - ٢١]، كانت (العزى) لأهل مكة ولغيرهم ممن

(١) ينظر: مجموع الفتاوى (١/ ١٢٤).

التحق بهم من قبائل العرب، وهي شجرة سمر، كانوا يعظمونها ويقولون: إن لها مكانة عند الله، تنفعهم وتضرهم، وتجلب الخير لهم، وتكشف الضر عنهم، وقد بعث النبي ﷺ خالد بن الوليد لقطعها لما فتح مكة، فذهب خالد وقطع الشجرة، فجاء إلى الرسول ﷺ فقال له: «ارْجِعْ فَإِنَّكَ لَمْ تَصْنَعْ شَيْئًا»، فذهب فهدم البيت الذي بني، فخرجت منه امرأة ناشرة شعرها تولول، فشملها خالد بالسف فقتلها، ثم رجع إلى الرسول ﷺ فأخبره، فقال: «تِلْكَ الْعُزَّى»[(١)].

كذلك (مناة) هي: لبني كنانة وبني هلال، سميت (مناة) لكثرة ما يمنى عندها من الدماء.

وكذلك (اللات)، قيل: إنها صخرة بيضاء بالطائف، وقيل: إنه رجل صالح يلت السويق للحاج، مات فعكفوا على قبره يعبدونه من دون الله، وهكذا كل قبائل العرب على هذا المنوال، كان في نجد صنم كبير يحج إليه الناس، ويسألونه من دون الله، يسمى: (ذو الكعبات)، وبنو حنيفة في هذه الديار كانوا يأتون بشيء من التمر فيعجنونه بالسمن فيعبدونه، فإذا جاعوا أكلوه!

قال الشاعر:

أكلت حنيفة ربها ✽ زمن التقحم والمجاعه

لم يحذروا من ربهم ✽ سوء العواقب والتابعه[(٢)]

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ينظر: المعارف لابن قتيبة (ص٦٢١).

وكانت لأهل نجران نخلة كبيرة يعبدونها، يذبحون لها، والنبي ﷺ أبطل هذا كله، وجاهد الناس كلهم من أجل أن لا يعبد إلا الله وحده لا شريك له. ورحم الله الإمام مالكا حيث يقول: «لن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما صلح به أولها»[(١)]، ولكن عاد الشرك كما كان بالأمس؛ فإنه قل بلد أو قطر إلا وفيه قبور يبنون عليها، ويذبحون وينذرون لها، ويطوفون بها، ويسألونها تفريج الكربات، حتى آل الحال ببعضهم إلى أن ألف كتابا سماه: «مناسك حج المشاهد»[(٢)]، قرر فيه أن يطاف بقبر الحسين بالعراق، ويحلق الرأس تعظيما له؛ أي شرك أعظم من هذا الشرك؟!

وأي بلاء أكبر من هذا البلاء؟!

ولكن كما قال النبي ﷺ: «لتتبعن سنن من كان قبلكم، حذو القذة بالقذة، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه».

قالوا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟

قال: «فمن؟!»[(٣)]؛ أي: فمن المعنيون إلا أولئك، وقد ترجم البخاري في «صحيحه» قائلا: «باب: تغير الزمان حتى تعبد الأوثان»، يريد بهذه الترجمة:

---

(١) ينظر: الشفا (٢/ ٤١ - ٨٨).

(٢) قال شيخ الإسلام في منهاج السنة (١/ ٤٧٦): «وقد صنف شيخهم ابن النعمان، المعروف عندهم بالمفيد، -وهو شيخ الموسوي والطوسي- كتابا سماه: (مناسك المشاهد)، جعل قبور المخلوقين تحج كما تحج الكعبة البيت الحرام الذي جعله الله قياما للناس، وهو أول بيت وضع للناس فلا يطاف إلا به، ولا يصلى إلا إليه، ولم يأمر الله إلا بحجه...».

(٣) سبق تخريجه.



بعد تعاهد الناس السنة، وبعدهم عما جاءت به الرسل، فلابد وأن يعودوا إلى وثنيتهم، وأن يعبدوا الأوثان، ويطلبوا منها ما لا يقدر عليه إلا الله، وساق بسنده حديث: «لَا تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّى تَضْطَرِبَ أَلَيَاتُ نِسَاءِ دَوْسٍ عَلَى ذِي الْخَلَصَةِ»(١).



(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح:٧١١٦).

(٦١) باب ما جاء في كثرة الحلف

وقول الله -تعالى-: ﴿وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب»[(١)].

وعن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه» رواه الطبراني بسند صحيح[(٢)].

وفي «الصحيح» عن عمران بن حصين رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «خير أمتي قرني، ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم -قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثا؟- ثم إن بعدكم قوما يشهدون ولا يستشهدون، ويخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، ويظهر فيهم السمن»[(٣)].

وفيه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خير الناس قرني، ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته»[(٤)].

قال إبراهيم: «كانا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار»[(٥)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٠٨٧)، ومسلم في صحيحه (ح: ١٦٠٦).
(٢) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باختلاف يسير(ح: ٦١١١).
(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٦٥١)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٥٣٥).
(٤) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٦٥٢)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٥٣٣).
(٥) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٦٥٢).

شرح: باب ما جاء في كثرة الحلف

أي: في النهي عن ذلك، فلا يجوز للإنسان أن يكثر الحلف.

وقول الله -تعالى-: ﴿وَاحْفَظُوٓاْ أَيْمَٰنَكُمْ﴾ [المائدة: ٨٩].

قيل المراد: إذا وقعت منك يمين وحنثت فينبغي أن تحفظها بالتكفير، هذا هو رأي ابن جرير(١).

وقيل: لا تحلف أصلا، فأنت إذا حلفت بكثرة لم تكن حافظا ليمينك ولو كفرت.

وقيل: إذا حلفت فبر بقسمك، ولا تحنث، لكن القولان الأولان متلازمان، فالمعنى: أنك تتحفظ في اليمين بأن لا تبذلها ولا تعود لسانك على الحلف، سواء كفرت أم لم تكفر، فإذا وقع شيء من ذلك وحنثت فلابد من التكفير، ومراد المصنف في هذه الترجمة هو: أن الإنسان في حالة بيعه وشرائه ومخالطته للناس ينبغي أن يتحفظ في يمينه، وألا يبذلها، وألا ينتهك حرمة الله، فإن المحلوف به -وهو الله- أجل وأعظم من أن تحلف به وأنت كاذب، أو تحلف به على أمور تافهة، أو تحلف به ثم تحنث(٢).

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «الْحَلِفُ مَنْفَقَةٌ لِلسِّلْعَةِ مَمْحَقَةٌ لِلْكَسْبِ»(٣).

---

(١) ينظر: جامع البيان (٨/ ٦٥٥).

(٢) أو تحنث في يمينك به ولا تكفر.

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٠٨٧)، ومسلم في صحيحه (ح: ١٦٠٦).

(منفقة للسلعة): إذا حلفت تسبب ذلك في شراء سلعتك منك، كما لو سألك المشتري: بكم اشتريت هذه الأرض؟

فقلت: «والله اشتريتها بمئة ألف»، صدقك، فاشتراها منك بمكسب مئة وعشرة، والواقع أنك اشتريتها بخمسين ألف، فبسبب يمينك راجت أرضك أو سلعتك أو سيارتك، ولكن هذا المكسب الذي تحصل مآله إلى الذهاب والتباب وعدم انتفاعك به، فهي ممحقة للكسب؛ لأنه لم يأت على الوجه الشرعي، بل أتتك هذه الزيادة وهذا الكسب بسبب أيمانك الفاجرة، فهذه اليمين الفاجرة التي حلفت فيها بالله، فانتقصت المحلوف به -وهو: الله ﷻ-؛ حيث حلفت وأنت كاذب، وغررت هذا الذي حلفت به بأن صدقك واشتراها منك على حسب ما قلت، واتضح أن الأمر غير صحيح، فما توصلت إليه من هذا الكسب بسبب هذه اليمين الفاجرة مآله إلى المحق والذهاب وعدم الانتفاع به، هذا معنى قوله ﷺ: (الحلف منفقة للسلعة، ممحقة للكسب).

وعن سلمان رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «ثلاثة لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: أشيمط زان، وعائل مستكبر، ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه» رواه الطبراني بسند صحيح[1].

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الكبير، باختلاف يسير(ح: ٦١١١) من طريق حفص بن غياث، عن عاصم الأحول، عن أبي عثمان، عن سلمان، به مرفوعا.

رواته ثقات، وقد روى البخاري (ح: ٢٣٥٨) ومسلم (ح: ١٠٨) من حديث أبي هريرة مرفوعا: «ثلاثة لا ينظر الله إليهم يوم القيامة، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم، رجل على فضل=



سلمان: هو سلمان الفارسي، من أفاضل الصحابة وأجلائهم وعلمائهم، وقصة إسلامه مشهورة معلومة، ذكرها ابن هشام في «السيرة»[1]، أسلم في مقدم النبي ﷺ للمدينة، وكان عبدا اشترى، وكان يعمل في نخل سيده، والقصة معروفة، وقد قال النبي ﷺ في حقه: «سَلْمَانُ مِنَّا أَهْلَ الْبَيْتِ»[2]؛ فدل على فضله، بخلاف عم النبي ﷺ أبي لهب الذي هو من أشراف العرب، ومن صميم بني هاشم، ومع هذا لم يقبل ما جاء به الرسول ﷺ، وصار من أشقى هذه الأمة، وأخبر الله أنه سيصلى نار جهنم، كما أنزل الله فيه قرآنا يُتلى إلى يوم القيامة، قال الشاعر[3]:

لقد رفع الإسلام سلمان فارس ❊ كما وضع الشرك الشقي أبا لهب

(ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة) فيه: إثبات صفة الكلام لله -سبحانه-، وأن الله يكلم من أطاعه واتبع سبيله، ولا يكلم من عصاه وخالف أمره، وكلام الله -جل وعلا- يثبته أهل السنة والجماعة، فالله يتكلم حقيقة على وجه يليق بجلاله، كما دل عليه القرآن العزيز والسنة النبوية، قال الله -تعالى-:

= ماء يمنعه من ابن السبيل، ورجل بايع إماما لا يبايعه إلا لدنيا فإن أعطاه منها رضي، وإن لم يعطه منها سخط، ورجل أقام سلعته بعد العصر فقال: والله الذي لا إله غيره لقد أعطيت بها كذا وكذا، فصدقه رجل هو على غير ذلك».

كما روى مسلم (ح: ١٠٧) من حديث أبي هريرة مرفوعا: «ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم: شيخ زان، وملك كذاب، وعائل مستكبر».

(١) سيرة ابن هشام (١/ ٢١٤)، وأصلها في البخاري (ح: ٣٩٤٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) لم أقف عليه.

﴿تِلْكَ ٱلرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، وقال: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وقال: ﴿وَلَمَّا جَآءَ مُوسَىٰ لِمِيقَٰتِنَا وَكَلَّمَهُۥ رَبُّهُۥ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، وقال: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾ [التوبة: ٦]، فهذا القرآن المتلو بألسنتنا، المكتوب في مصاحفنا، المحفوظ في صدورنا هو: كلام الله، تكلم به حقيقة على الوجه الذي يليق بجلاله.

ولا نقول: إن كلامه مثل كلام المخلوقين، حاشا، ليس كلامه ككلامنا الذي هو مركب من اللسان والشفتين واللثة، فكما أن ذاته لا تشبه ذوات المخلوقين، فكذلك صفاته لا تشبه صفات المخلوقين: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ألا ترى أن الله يكلم الناس يوم القيامة: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيُكَلِّمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تُرْجُمَانٌ»[1]، ويقول سبحانه: «يَا آدَمُ، فَيَقُولُ: لَبَّيْكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، فَيَقُولُ: أَخْرِجْ بَعْثَ النَّارِ»[2]، إلى غير ذلك، وكلام الله قديم النوع -كغيره من صفات الأفعال- حادث الآحاد، وعدم الكلام صفة نقص وليست صفة كمال، فالذي لا يتكلم هو ناقص، ألم تر ما قاله إبراهيم لأبيه: ﴿يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا﴾ [مريم: ٤٢].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٧٤٤٣) من حديث عدي بن حاتم رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٣٣٤٨)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٢٢) من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه.

(ولا يزكيهم) أي: ولا يطهرهم بسبب جرمهم ومعاصيهم.

(ولهم عذاب أليم: أشيمط زان): تصغيرا واحتقارا له، الأشيمط هو: الذي لاح البياض في لحيته وفي شعره، هذا هو الأشيمط، ومع هذا تتوق نفسه إلى الزنا؛ مما يدل على أن الشر متغلغل في قلبه، ولم يكن نشأ عن شهوة وقوة دافع، ودل ذلك -أيضًا- على: ضعف إيمانه، وعدم مراقبته لربه؛ إذ لو كان إيمانه قويا، ومخافته من الله قوية لغلبت ما يريده.

قال بعضهم: «إن الإنسان إذا ابيض شعره يجدر به أن لا يدنس بياضه؛ لأن البياض يدنسه أقل شيء؛ كالثوب الأبيض أقل وساخة تدنسه..».

(وعائل مستكبر)؛ أي: الفقير الذي لا مال له ولا جاه ومع هذا يتعاظم ويتكبر على الناس!

وإن كان الزنا ممنوعا وقبيحا في حق الشباب وغير الشباب، والكبر ممنوعا وقبيحا في حق الفقير وغير الفقير، لكن قد يكون هذا الشباب أو الغني عنده شيء من الداعي للزنا أو الكبر، فمع ضعف الداعي يكون ذلك أقبح.

(ورجل جعل الله بضاعته؛ لا يشتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه): هذا هو الشاهد من الحديث للترجمة، فهذا الذي دائما يبيع بقوله: «والله ما أبيعها إلا بكذا»، «والله اشتريتها بكذا»، «والله شراها مني فلان بكذا»، «والله أعطيت فيها كذا»، وكله كذب، فهذا لا يكلمه الله يوم القيامة؛ لأنه استخف بالمحلوف به - وهو الله عز وجل - في سبيل إيجاد ما يصل إليه من قليل حطام الدنيا.

وفي الصحيح عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:

«خَيْرُ أُمَّتِي قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ -قال عمران: فلا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو ثلاثا؟-، ثُمَّ إِنَّ بَعْدَكُمْ قَوْمًا يَشْهَدُونَ وَلَا يُسْتَشْهَدُونَ، وَيَخُونُونَ وَلَا يُؤْتَمَنُونَ، وَيَنْذِرُونَ وَلَا يَفُونَ، وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ»[1].

هذا حديث عظيم، أخبر فيه النبي ﷺ بأن خير القرون هو: القرن الذي بعث فيه ﷺ؛ فإن الإسلام بهم انتشر، وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر، ونزل عليهم القرآن، وتعلموا العلم من الرسول ﷺ، وجاهدوا في الله حق جهاده، هذا كله في القرن الذي كان فيه ﷺ، واتسعت ممالك الإسلام؛ فإن المسلمين ملكوا من البحر الأطلنطي غربا إلى الصين شرقا على تباعد هذه الأمم واختلاف أعراقها، وتباين لغاتها، يحملون جوازا واحدا، ألا وهو: شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، كل هذا في القرن الذي بعث فيه الرسول ﷺ، فأخضعوا الأمم لأوامر القرآن ونواهيه، وأزالوا من الوجود ملك أمتين عظيمتين هما أقوى أمم الأرض وأشدها بأسا: فارس والروم، قوم صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فأنجز لهم ما وعدهم، مجدا في الدنيا وأجرا في الآخرة.

(ثم الذين يلونهم): أي: القرن الثاني بعد انقراض الأول؛ فإن الإسلام كان لا زال طريا؛ لأن التابعين تعلموا من الصحابة، والإسلام ظاهر، والأمانة موجودة، والدين قائم، وإن وجد شيء من البدع كبدعة الخوارج والروافض لكنهم ذليلون، والمسلمون يردون عليهم.

ثم القرن الثالث - والراوي شك فقال: لا أدري أذكر بعد قرنه مرتين أو

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٦٥٠)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٥٣٥).

ثلاثا-، والظاهر أنه ذكر ثلاثا كما في حديث ابن مسعود الآتي، والقرن الثالث ظهرت فيه بدعة الجهمية، وبدعة المعتزلة، وتفرق الناس، ولكن هناك علماء يردون هذه الأباطيل، ويبينون زيفها، ويوضحون معالم الحق وإن كانت البدع موجودة.

ثم في القرن الرابع قال: (ثم إن بعدهم قوم يشهدون ولا يستشهدون)؛ لبعدهم عن عهد النبوة، ولم يأخذوا عن الصحابة، ولا عمن أخذ عن الصحابة، بل اشتغلوا بالدنيا.

يشهدون ولا يتشهدون؛ لضعف الأمانة، وقلة الديانة، يأتي ويشهد قبل أن يسأل الشهادة، وقد يكون محقا وقد يكون مبطلا، فلا ينبغي أن تشهد قبل أن تطلب منك الشهادة، ولكن يرد على هذا: الحديث الآخر: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِخَيْرِ الشُّهَدَاءِ الَّذِي يَأْتِي بِشَهَادَتِهِ قَبْلَ أَنْ يُسْأَلَهَا»(1)، فدل هذا على أن أداء الشهادة قبل أن تطلب من الخير، ومن أجل الطاعات، وفي الحديث الأول ذم ذلك، فما الجمع بينهما؟

الجمع -والله أعلم- أن حديث: «خير الشهداء الذي يأتي بشهادته قبل أن يسألها» هو: فيما إذا كان عند المرء شهادة ولم يعلم المشهود له أن عنده شهادة له، فينبغي أن يخبره إذا خشي من ضياع حقهن أما إذا كان يعلم بها فلا يجوز أن يشهد المرء قبل أن يستشهد، وهذا إذا كانت شهادة حق، فما ظنك إذا كانت شهادة زور؟! قال الله: ﴿وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ﴾ [الحج: ٣٠]، وقال النبي ﷺ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟».

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ١٧١٩) من حديث زيد بن خالد الجهني رضي الله عنه.

قالوا: بلى يا رسول الله.

قال: «الْإِشْرَاكُ بِاللهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَجَلَسَ وَكَانَ مُتَكِئًا، فَقَالَ: أَلَا وَقَوْلُ الزُّورِ»، قال: فما زال يكررها حتى قلنا: ليته سكت[(١)].

(ويندرون ولا يوفون): لا يبالون بالوفاء؛ لضعف إيمانهم، وعدم مبالاتهم بما هو واجب في ذمتهم.

(ويظهر فيهم السمن)؛ لكثرة شهواتهم ومأكولاتهم، مما يؤدي إلى كثرة اللحم والشحم في الجسم؛ لأنه لا يهمه إلا ما يدخله في بطنه؛ لقلة دينه، وضعف إيمانه، فظهور ذلك في الأمة من علامات الشر والبلاء.

وفيه عن ابن مسعود رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينَهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتَهُ»[(٢)].

(تسبق شهادة أحدهم يمينه): يحلف ويشهد غير مبال بعظم الشهادة، ولا بالمشهود به، ولا المشهود عليه، ولم يبال قبل ذلك بالله! إذ لم يعلم بأن الله سيحاسبه، فيحلف على كذب وباطل، هذا شأن بعض هذه الأمة؛ لبعد العهد عن النبوة، ولقلة الأمانة، وضعف الديانة، فالدنيا أحب شيء إليهم، فإذا أمرتهم بأوامر الشرع تجد المرء كسلانا لا يبالي، وإذا كان في أمور دنياه صار كالحية

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٦٥٤)، ومسلم في صحيحه (ح: ٨٧) من حديث أبي بكرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٦٥٢)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٥٣٣).



الرقطاء! مجد ومجتهد، يسعى في طلبها، ويبذل في تحصيلها كل غال ونفيس، من شهادة فاجرة، ويمين كاذبة.

قال إبراهيم: «كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار»[١].

انظر إلى تربية السلف لأولادهم عندما يسمعون الصغير يحلف أو يشهد يضربونه؛ إكبارا لله وتعظيما له في قلبه، لينشأ نشأة صالحة، وإن كانت يمينه لا تنعقد، وشهادته لا تقبل، لكن كل هذا تربية له على الخير، ونهيا له عن ما لا ينفعه، وهذا من أعظم التربية للصغار؛ فإن الإنسان إذا لم ينشأ بالتربية الدينية ولم يقم بقلبه تعظيم الله؛ فإن الموت خير له من حياته، ولو كان يحمل شهادة جامعية أو شهادة ما جستير أو شهادة دكتوراه! ماذا ينتفع بشهادات أقوام ساءت أخلاقهم، وفسدت أحوالهم، وقوي عامل الشر فيهم؟!

فلا بارك الله فيهم، لا في علومهم - ما داموا على هذه الحالة-، متنكرين لدينهم، ويفتخرون بما حملوا من شهادة؛ لأنه تخرج من الجامعة الفلانية، أو يحمل شهادة كذا وكذا، إذا كان التعليم لم يورثه خشية الله، ولم يقده إلى الأعمال الصالحة، ولم يعرفه بربه، ولا بمصالح دينه ودنياه، فالموت خير له من حياته، والجهل خير له من علمه.



(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٦٥٢).

(٦٢) باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه ﷺ

وقول الله -تعالى-: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ الآية [النحل: ٩١].

عن بريدة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا، فقال: «اغزوا بسم الله، في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليدا.

وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال -أو: خلال- فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم، وكف عنهم، ثم ادعهم إلى الإسلام فإن هم أجابوك فاقبل منهم، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين، وعليهم ما على المهاجرين، فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين، يجري عليهم حكم الله -تعالى-، ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شيء إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فاسألهم الجزية، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك؛ فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمة أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة نبيه.

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك؛ فإنك لا تدري أتصيب حكم الله فيهم أم لا؟» رواه مسلم(1).



(1) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ١٧٣١).

شرح: باب ما جاء في ذمة الله وذمة نبيه ﷺ

أراد المصنف بهذه الترجمة: أن من واجبات التوحيد الوفاء بالعهود، إذا أبرمت عهدا وأكدته فيجب المحافظة عليه، وقد أمر الله بالوفاء بالعهود فقال: ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ [الإسراء: ٣٤].

وقول الله -تعالى-: ﴿وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدتُّمْ وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾ الآية [النحل: ٩١].

﴿وَلَا تَنقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا﴾، أي: بعد إبرامها وإحكامها، وهو أن الإمام إذا أبرم عهدا مع الكفرة فإنه لا يجوز نقضه إلا إذا خاف منهم ريبة أن ينقضوا العهد، فلا بأس أن يبعث إليهم بنقض العهد(١).

عن بريدة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ كان إذا أمر أميرا على جيش أو سرية أوصاه بتقوى الله ومن معه من المسلمين خيرا، فقال: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلَا تَغُلُّوا، وَلَا تَغْدِرُوا، وَلَا تَمْثُلُوا، وَلَا تَقْتُلُوا وَلِيدًا.

وَإِذَا لَقِيتَ عَدُوَّكَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ، فَادْعُهُمْ إِلَى ثَلَاثِ خِصَالٍ - أَوْ خِلَالٍ - فَأَيَّتُهُنَّ مَا أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ، فَإِنْ أَجَابُوكَ، فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى التَّحَوُّلِ مِنْ دَارِهِمْ إِلَى دَارِ

---

(١) على حد قول الحق -سبحانه-: ﴿وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَانبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ﴾ [الأنفال: ٥٨].

الْمُهَاجِرِينَ، وَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ إِنْ فَعَلُوا ذَلِكَ فَلَهُمْ مَا لِلْمُهَاجِرِينَ، وَعَلَيْهِمْ مَا عَلَى الْمُهَاجِرِينَ، فَإِنْ أَبَوْا أَنْ يَتَحَوَّلُوا مِنْهَا، فَأَخْبِرْهُمْ أَنَّهُمْ يَكُونُونَ كَأَعْرَابِ الْمُسْلِمِينَ، يَجْرِي عَلَيْهِمْ حُكْمُ اللهِ الَّذِي يَجْرِي عَلَى الْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَكُونُ لَهُمْ فِي الْغَنِيمَةِ وَالْفَيْءِ شَيْءٌ إِلَّا أَنْ يُجَاهِدُوا مَعَ الْمُسْلِمِينَ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَسَلْهُمُ الْجِزْيَةَ، فَإِنْ هُمْ أَجَابُوكَ فَاقْبَلْ مِنْهُمْ، وَكُفَّ عَنْهُمْ، فَإِنْ هُمْ أَبَوْا فَاسْتَعِنْ بِاللهِ وَقَاتِلْهُمْ.

وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تَجْعَلَ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ، وَذِمَّةَ نَبِيِّهِ، فَلَا تَجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّةَ اللهِ، وَلَا ذِمَّةَ نَبِيِّهِ، وَلَكِنِ اجْعَلْ لَهُمْ ذِمَّتَكَ وَذِمَّةَ أَصْحَابِكَ، فَإِنَّكُمْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَمَكُمْ وَذِمَمَ أَصْحَابِكُمْ أَهْوَنُ مِنْ أَنْ تُخْفِرُوا ذِمَّةَ اللهِ وَذِمَّةَ رَسُولِهِ.

وَإِذَا حَاصَرْتَ أَهْلَ حِصْنٍ فَأَرَادُوكَ أَنْ تُنْزِلَهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، فَلَا تُنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِ اللهِ، وَلَكِنْ أَنْزِلْهُمْ عَلَى حُكْمِكَ، فَإِنَّكَ لَا تَدْرِي أَتُصِيبُ حُكْمَ اللهِ فِيهِمْ أَمْ لَا؟!» رواه مسلم[(١)].

(إذا أمر أميرا على جيش): فيه دليل على أن الإمام يشرع له أن يؤمر على الجيوش والسريا، و(السرية) أقل من (الجيش)، فما كان أربع مئة فأقل فهو (سرية)، وإذا تجاوزوا ذلك صار (جيشا).

وذكر العلماء أنه يجب على الإمام الجهاد في كل سنة مرة، هذا أقل ما يكون، فواجب عليه أن يبعث جيشا في كل سنة ليغيروا على الكفار؛ لتكون كلمة الله هي العليا، وإظهارا لعز الإسلام والمسلمين، فيجب على الإمام وجوبا أن

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ١٧٣١).

يبعث جيشا كل سنة لقتال الكفار؛ لأن الجهاد فرض كفاية، وفرض الكفاية لابد أن يؤدى في كل سنة مرة، إلا إذا كان بالمسلمين ضعف ولم يستطيعوا على ذلك، ولا قدرة لهم على عدوهم، فلا مانع من تأجيله لحين الاستطاعة، لكن لا يجوز له أن يهادن الكفار أكثر من سنة إذا كان عنده قدرة، وأما إذا لم يكن عنده قدرة جازت المهادنة إلى نحو عشر سنين، على تفصيل مذكور في كتب أهل العلم.

(أوصاه بتقوى الله): دل على أن الإمام يوصي أمراء الجيش بتقوى الله، وهي: أن تجعل من طاعة الله وقاية لك من معصيته، فتحترز بطاعة الله من ارتكاب معاصيه.

و(التقوى) كلمة جامعة لخصال الخير كله، فهي وصية الله للأولين والآخرين: ﴿وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا ٱللَّهَ﴾ [النساء: ١٣١]، وحقيقة التقوى: امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه.

(وبمن معه من المسلمين خيرا): يوصيه بتقوى الله فيمن معه من المؤمنين؛ أن يرفق بهم، ويخفض الجناح لهم، ويحرص على دفع الشرور عنهم، ويبعث العيون لأجل التعرف على حالة العدو، وألا يوقع المسلمين في المهالك، أو ينزلهم أمام الأعداء في مكان لا يصلح لهم، ليس فيه ماء، أو لا مجال للقتال فيه.

(اغزوا باسم الله)؛ أي: اشرعوا في الغزو لقتال الكفار؛ لتكن كلمة الله هي العليا، باسم الله مستعينين بالله، معتمدين عليه، فنعم المولى هو ونعم النصير.

(قاتلوا من كفر بالله)؛ أي: العلة في قتالهم هي: الكفر، فليس السبب في قتالهم



هو طلب الأموال، أو السيطرة والهيمنة على بلادهم وعليهم، بل سبب قتالهم هو كفرهم، وفي الحديث دليل لمن قال: «إن الكفار يقاتلون لكفرهم، لا لدفع شرهم»، والمسألة خلافية، فبعض الناس يرى أن قتال الكفار هو لدفع شرهم.

والقول الصحيح الذي عليه المحققون: أن قتالهم هو لكفرهم؛ كما يفيده هذا الحديث، وكما يدل عليه القرآن.

فإن قلت: ما الفرق بين القولين؟ وما فائدة الخلاف؟

نقول: من قال: «يقاتلون لكفرهم» فعنده: يقاتلون حتى يكون الدين كله لله، ومن قال: «يقاتلون لدفع شرهم» فعنده: إن غزونا في بلادنا فنحن نقاتلهم، وإن سكتوا عنا فنحن لا نقاتلهم.

ويدل على القول الصحيح قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة: ٧٣]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة: ١٢٣]، وقوله: ﴿فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ﴾ [التوبة: ٥]، وقوله: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ﴾ [البقرة: ١٩٣].

أما القائلون بأنهم يقاتلون لدفع شرهم -كما عليه أكثر العصريين اليوم- فيستدلون بقوله تعالى: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، وقوله: ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ﴾ [الكافرون: ٦]، وقد أجاب المحققون عن هذا، فقالوا: إن قوله: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾ هو فيما إذا بذلوا لنا الجزية؛ كما في قوله تعالى:



﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ [التوبة: ٢٩].

وقيل: إن الآية منسوخة بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ﴾ في سورة براءة، وقالوا: إن من تتبع سيرة النبي ﷺ عرف أنه كان يقاتل الكفار لكفرهم؛ فإن له في ذلك مقامات:

أولا: في بدء الدعوة كان يدعو الناس إلى عبادة الله، ولم يأمر أصحابه الذين كانوا معه أن يقاتلوا أحدا، فهم المقاتلون، فلما هاجر إلى المدينة لم يقاتل أحدا، ثم أذن له أن يقاتل من قاتله: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا﴾ [الحج: ٣٩]، ولم يؤذن له أن يقاتل الناس ابتداء، لما قوي الإسلام وكثر المسلمون صار يقاتل لأجل الإيمان، وظهور الإسلام، والمبيح للقتال هو: الكفر والشرك بالله، ولهذا كان يبعث السرايا، فقاتل أهل الطائف، وقاتل أهل مكة ودخلها، وكذلك قاتل الروم في تبوك، وفهم أصحابه مقصده ﷺ فبعثوا الجيوش إلى فارس والروم، حتى أخضعوا الأمم لأوامر القرآن ونواهيه، مع أن الكفار لم يغزوا المدينة، وأما العصريون اليوم مثل: محمد رشيد رضا[1]، ومحمد عبده[2] وطبقتهم فذكروا أن الكفار يقاتلون لدفع شرهم، وإلى هذا ذهب كثير من أهل العلم قبلهم كما أشار إليه النووي وغيره، ولكن الصواب:

---

(١) ينظر: فتاوى رشيد رضا (ص٨٩٢).

(٢) ينظر: التوحيد لمحمد عبده (ص٢٣٥).

أنهم يقاتلون لكفرهم، كما قرره ابن تيمية وابن القيم[١]، وهو المعروف عند أئمة الدعوة النجدية[٢]، وتدل عليه نصوص الكتاب والسنة.

(ولا تغلوا): (الغلول) هو: الأخذ من الغنيمة قبل قسمتها، وهو حرام، ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَن يَغُلَّ﴾ [آل عمران: ١٦١]؛ لأنه حق المسلمين، وهم مشتركون في هذه الغنيمة، المجاهدون وغيرهم، وسئل سالم بن عبد الله بن عمر فقال رجل: إني أخذت غلولا وتبت، فما أصنع؟

فأمره أن يتصدق به؛ لأنه مشترك بين جميع المسلمين، وليس له مالك معين حتى يرسله إليه، وكذا قال معاوية كما أشار إليه ابن كثير في تفسيره[٣]، والعلامة ابن القيم[٤].

(ولا تغدروا)؛ أي: لا تنقضوا العهد -هذا الشاهد من الحديث-؛ بأن تعطيهم عهدا ثم تأخذهم على غرة، بل أوف بالعهد وحافظ عليه ولو كانوا كفارا، فكيف لو أعطيت عهدا بالله؟! الله أجل وأعظم من أن تعطي عهده وتنقضه.

---

(١) لم أجد هذا القول مصرحا به فيما اطلعت عليه من مصنفات الشيخين، ووجدت ما يوافق القول الثاني:

قال ابن تيمية (النبوات ١/ ٥٧٠): «الكفار إنما يقاتلون بشرط الحراب، كما ذهب إليه جمهور العلماء، وكما دل عليه الكتاب والسنة، كما هو مبسوط في موضعه».

(٢) **ينظر**: الدرر السنية (١١/ ٣٧٤)، فتاوى الشيخ محمد بن إبراهيم (٦/ ١٩٩)، فتاوى ابن باز (٣/ ١٩٤).

(٣) **ينظر**: تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ١٥٢).

(٤) **ينظر**: إعلام الموقعين (٢/ ٢٨).

(ولا تمثلوا): المسلمون عندما يقاتلون الكفار ويقتلون منهم لا يجوز أن يمثلوا بهم؛ كقطع الأنف، أو الأذن، أو الشفة.

(ولا تقتلوا وليدا): إذا قاتلنا الكفار ودخلنا بلادهم فلا يجوز لنا أن نقتل الأطفال، ولا النساء، ولا الصبيان الذين هم دون البلوغ، ولا الشيوخ المسنين، ولا الرهبان الذين في الصوامع؛ لأنهم لم يحملوا علينا سلاحا، ولا الرجل الأعمى إلا أن يكون له رأي وتدبير في الحرب فهذا يقتل؛ لأن رأيه أبلغ من سلاحه، كما قال المتنبي:

الرأي قبل شجاعة الشجعان ❁ هو أول وهي المحل الثاني

إلى أن قال:

ولربما طعن الفتى أقرانه ❁ بالرأي قبل تطاعن الأقران(١)

قد تكون شجاعا وبطلا وغيرك ليس لديه شجاعة، ولكن عنده حسن تدبير ورأي وإلقاء المكائد بالعدو، فإن كان من أهل الرأي فهذا يقتل -وإن كان لا يحمل السلاح؛ كالأعمى والشيخ الفاني والراهب-، أما إذا لم يكن ممن يحمل السلاح وليس له رأي فلا يقتل.

(وإذا لقيت عدوك من المشركين: فادعهم إلى ثلاث خصال، فأيتهن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم): يدعوهم أولا إلى الإسلام، إذا حاصر بلادهم، فأول شيء يفعله هو دعوتهم إلى الإسلام؛ لأن القصد من الجهاد هو

---

(١) ينظر: شرح ديوان المتنبي للواحدي (ص٢٩٦).

أن يدخلوا في دين الإسلام، فإذا دخلوا وجبت حمايتهم والرفق بهم، ولهم ما لنا وعليهم ماعلينا، ثم يطلب منهم أن يتحولوا إلى بلاد الهجرة بلاد المسلمين -إلا إن أسلموا كلهم فيبقوا في بلادهم-، أما إذا كانوا أفرادا أو جماعات والبلاد كافرة فلابد عليهم أن يتحولوا من بلاد الشرك إلى بلاد الإسلام؛ لأن الهجرة واجبة، وفي بقائهم في بلاد الشرك وهم حديثوا عهد بإسلام ما يسبب عودتهم إلى الكفر، فلابد أن ينتقلوا من بلاد الكفر إلى بلاد الإسلام، فإن أبوا التحول أو كانوا في بادية -مثلا- فيخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين يجري عليهم حكم الله من إقامة الحدود كلها، ومن أداء الزكاة، ووجوب الحج، والصوم، ولا يكون لهم من الغنيمة أو الفيء شيء إلا إن جاهدوا مع المسلمين، وقد قال عمر: استوصوا بالأعراب خيرا؛ فإنهم مادة الإسلام[1]؛ يعني: يتقوى بهم الإسلام.

(فإن أبوا فاسألهم الجزية): إذا أبوا الإسلام فاطلب منهم الجزية، والفقير والمرأة والعبد والصبي لا جزية عليهم، وإنما على الرجال البالغين.

والجزية تؤخذ من اليهود والنصارى -فقط-، والمسألة خلافية، هذا قول الجمهور، أما مشركو العرب فإما الإسلام أو السيف، وكذلك الوثنيون، هذا قول جماهير العلماء سلفا وخلفا، بدليل الآية: ﴿ قَٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلْحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعْطُواْ ٱلْجِزْيَةَ عَن يَدٍ وَهُمْ صَٰغِرُونَ ﴾ [التوبة: ٢٩]، وكذلك

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٣٧٠٠).

المجوس تؤخذ منهم الجزية مستدلين بأن النبي ﷺ أخذ الجزية من مجوس هجر، وقال: «فَمَنْ أَسْلَمَ قَبِلَ مِنْهُ، وَمَنْ لَمْ يُسْلِمْ ضَرَبَ عَلَيْهِ الْجِزْيَةَ غَيْرَ نَاكِحِي نِسَائِهِمْ، وَلَا آكِلِي ذَبَائِحِهِمْ»[(١)]، وذهب شيخ الإسلام إلى أنها تؤخذ من مشركي العرب كما تؤخذ من أهل الكتاب[(٢)]، لكن الجمهور على خلاف ذلك، وهذا القول[(٣)] قوي؛ لأن النبي ﷺ ما كان يأخذها من العرب أبدا، بل كان يقاتلهم كبني المصطلق، وخزاعة، وأهل مكة، وأهل الطائف وغيرهم من قبائل العرب، وكذا الصحابة ما كانوا يأخذونها من العرب.

(وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم أهون من أن تخفروا ذمة الله). (الذمة) التي يذكرها العلماء في الزكاة والمعاملات هي: وصف يكون فيه المكلف من أهل الإلزام والالتزام.

لو قالوا: أعطونا ذمة الله.

يقول: لا، بل أعطيكم ذمتي، أما ذمة الله، فلا؛ لأنه إن نقض ذمته فذلك أهون من نقض عهد الله.

(وإن أرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله؛ لأنك لا تدري أتصيب حكم الله أم لا، ولكن أنزلهم على حكمك): هذا يدل على أن

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ح: ١٦٣٢٥).
(٢) ينظر: منهاج السنة (٨/ ٥١٦- ٥١٧).
(٣) أي: قول الجمهور.

حكم الله واحد، وإنما أنت مجتهد قد تصيب حكم الله وقد لا تصيبه.

وقول بعض المتسبين للعلم: «ما عندي إلا حكم الله» غلط، فهو لا يعرف هل يصيب حكم الله أم لا؟!

والمسألة مذكورة في كتب الأصول: «هل حكم الله واحد في كل قضية أو متعدد حسب اجتهاد المجتهد؟».



(٦٣) باب ما جاء في الإقسام على الله

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان؟! إني قد غفرت له وأحبطت عملك»[١].

وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد، قال أبو هريرة: «تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»[٢].



(١) أخرجه مسلم في صحيحه، باختلاف يسير (ح: ٢٦٢١).

(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده (ح: ٨٢٩٢)، وأبو داود في سننه (ح: ٤٩٠١).

شرح: باب ما جاء في الإقسام على الله

أي: من النهي عن ذلك، وهو أن الرجل يحلف على الله لا يغفر لفلان، هذا محرم، فرحمة الله لا نهاية لها: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [الأعراف: ١٥٦].

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «قال رجل: والله لا يغفر الله لفلان، فقال الله عز وجل: من ذا الذي يتألى علي ألا أغفر لفلان؟! إني قد غفرت له وأحبطت عملك»[(١)].

وفي حديث أبي هريرة أن القائل رجل عابد، قال أبو هريرة: «تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته»[(٢)].

(يتألى): يحلف؛ فإن الألية هي: الحلف، وهي المقصودة في كتب الفقهاء بقولهم: «كتب الإيلاء».

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه، باختلاف يسير (ح: ٢٦٢١).

(٢) أخرجه ابن المبارك في الزهد (ح: ٩٠٠)، والإمام أحمد في مسنده (ح: ٨٢٩٢)، وأبو داود في سننه (ح: ٤٩٠١)، وابن حبان في صحيحه (ح:٥٧١٢) من طرق عن عكرمة بن عمار، عن ضمضم بن جوس، عن أبي هريرة، به.
إسناده لا بأس به.
ثم اختلف فيه على عكرمة؛ فرواه البزار في مسنده (ح: ٩٤١٨) من طريق موسى بن مسعود، عن عكرمة، عن ضمضم، عن أبي هريرة، وجعل قوله: «تكلم بكلمة...» إلخ من المرفوع، ورواية الجماعة عن عكرمة هي الصواب، فالجملة هي من كلام أبي هريرة، وموسى بن مسعود أبو حذيفة فيه لين، قال الإمام أحمد (سؤالات المروذي ٢٢٩): «كان من أكثر الناس خطأ».

قال كثير عزة[1]:

قليـل الألايـا حـافظ ليمينـه ✽ إذا صـدرت منـه الأليـة بـرت

(فإني غفرت له وأحبطت عملك): هذا يدل على أن الإنسان ينبغي أن يحفظ لسانه وألا يطلقه، فهذا الرجل تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته - كما قال أبو هريرة-؛ أي: أهلكت عليه دنياه، وأفسدت عليه آخرته، كل ذلك بسبب اللسان، فعلى الإنسان أن يلاحظ لسانه، وألا يطلقه فيما لا يجوز له، لا من جهة الله، ولا من جهة الآدميين؛ كما في حديث: «وَهَلْ يَكُبُّ النَّاسَ فِي النَّارِ عَلَى وُجُوهِهِمْ أَوْ عَلَى مَنَاخِرِهِمْ إِلَّا حَصَائِدُ أَلْسِنَتِهِمْ؟!»[2].

فاللسان هو الكلب العقور، ربما تكلم الإنسان بكلمة الكفر التي تخرجه من الإسلام، أو بكلمة تفسد عليه دنياه وآخرته، كما في قصة هذا الرجل كيف يقول: (والله لا يغفر الله لفلان)، والله يقول: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُواْ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣ وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُواْ لَهُۥ مِن قَبْلِ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلْعَذَابُ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ﴾ [الزمر: ٥٣- ٥٤]؟!

---

(١) البيت من قصيدة له في رثاء عبد العزيز بن مروان. ينظر: ديوان كثير (ص٣٢٥).

(٢) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ٢٢٠١٦)، والترمذي في جامعه (ح: ٢٦١٦)، والنسائي في الكبرى (ح: ١١٣٣٠)، وابن ماجه في سننه (ح: ٣٩٧٣) من حديث معاذ رضي الله عنه.
وأسانيده ضعيفة، للانقطاع والاضطراب، والكلام عليه يطول. ينظر: علل الدارقطني (٦/ ٧٧)، جامع العلوم والحكم (ص٥٠٧).

هل خزائن السماوات والأرض والجنة بيدك؟!

هذا الذي حلف أعجبه اجتهاده في العبادة، فكأنه استشعر أنه سيدخل الجنة بعبادته، وأن هذا العاصي لن يدخلها!

ويقول الشاعر في شأن اللسان:

لسانك لا تذكر به عورة امرئ ❁ فكلك عورات وللناس ألسن[1]

ففيك من العيوب أكثر مما انتقدته على أخيك.

بقي سؤال: ما نقول في قصة الربيع حينما كسرت سن جارية فحكم النبي ﷺ بأن تكسر ثنيتها قصاصا، فقال أنس بن النضر أخوها: «والله لا تكسر ثنية الربيع»، فقال الرسول ﷺ: «إِنَّ مِنْ عِبَادِ اللهِ، مَنْ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»[2]، وفي الحديث الآخر: «رُبَّ أَشْعَثَ، مَدْفُوعٍ بِالْأَبْوَابِ لَوْ أَقْسَمَ عَلَى اللهِ لَأَبَرَّهُ»[3]، فهذا فيه القسم على الله؟

الجواب: لو أقسم على الله فيما فيه خير وصلاح، فالله يبر قسمه، أما لو أقسم على الله بما لا مصلحة فيه ولا خير للعباد فيه، فهذا لا يجوز، كما في حديث الباب، ففرق بين هذا وذاك.

---

(١) البيت منسوب للإمام الشافعي. ينظر: ديوان الشافعي (ص١١٥).

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٢٧٠٣)، ومسلم في صحيحه (ح: ١٦٧٥) من حديث أنس رضي الله عنه.

(٣) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٦٢٢) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٦٤) باب لا يستشفع بالله على خلقه

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله نهكت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله.

فقال النبي ﷺ: «سبحان الله! سبحان الله!»، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه؛ ثم قال النبي ﷺ: «ويحك، أتدري ما الله؟! إن شأن الله أعظم من ذلك، إنه لا يستشفع بالله على أحد...» وذكر الحديث، رواه أبو داود[1].



(١) أخرجه أبو داود في سننه (ح: ٤٧٢٦).

شرح: باب لا يستشفع بالله على خلقه

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله نهكت الأنفس، وجاع العيال، وهلكت الأموال، فاستسق لنا ربك، فإنا نستشفع بالله عليك، وبك على الله.

فقال النبي ﷺ: «سبحان الله! سبحان الله!»، فما زال يسبح حتى عرف ذلك في وجوه أصحابه؛ ثم قال النبي ﷺ: «إِنَّهُ لَا يُسْتَشْفَعُ بِاللهِ عَلَى أَحَدٍ مِنْ خَلْقِهِ، شَأْنُ اللهِ أَعْظَمُ مِنْ ذَلِكَ، وَيْحَكَ أَتَدْرِي مَا اللهُ؟!..» وذكر الحديث، رواه أبو داود[(١)].

---

(١) هذا حديث الأطيط، روي من طريق وهب بن جرير، عن أبيه، عن ابن إسحاق، عن يعقوب بن عتبة، عن جبير بن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، عن جده، به مرفوعا.
وقد اختلف فيه على وهب؛ فرواه من هذا الوجه:
أحمد بن سعيد الرباطي كما عند أبي داود (ح: ٤٧٢٦).
ويحيى بن معين كما عند الدارقطني في الصفات (ح: ٣٩)، والطبراني (ح: ١٥٤٧).
وعلي ابن المديني كما عند الدارقطني في الصفات (ح: ٣٩)، والطبراني (ح: ١٥٤٧).
وأبو الأزهر أحمد بن الأزهر النيسابوري كما عند ابن أبي عاصم (ح: ٥٧٦)، وأبي عوانة في المستخرج (ح: ٢٥١٧)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣١٧)، واللالكائي (ح: ٦٥٦).
وسلمة بن شبيب كما عند البزار (ح: ٣٤٣٢).
ومحمد بن علي بن وضاح كما عند البزار -أيضًا- (ح: ٣٤٣٢).
ومحمد بن يزيد الواسطي كما عند الدارقطني في الصفات (ح: ٣٨).
خالف السبعة فرواه عن وهب، عن أبيه، عن ابن إسحاق، عن يعقوب وجبير، عن محمد بن جبير بن مطعم، عن أبيه، به مرفوعا: =

= عبد الأعلى بن حماد النرسي كما عند البزار (ح: ٣٤٣١)، وأبي داود (ح: ٢٧٢٦)، ومن طريقه البيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٣١٧)، وابن أبي عاصم (ح: ٥٧٥).

ومحمد بن المثنى كما عند أبي داود (ح: ٢٧٢٦)، والبزار (ح: ٣٤٣١).

ومحمد بن بشار كما عند أبي داود (ح: ٤٧٢٦)، والبزار (ح: ٣٤٣١)، وابن خزيمة في التوحيد (١/ ٢٣٣) – في طبعة الزهيري، وأما نسخة الشهوان (١/ ٢٣٩) فوقع فيها «عن جبير» وهذا من جملة الأخطاء في هذه الطبعة-.

والظاهر من الوجهين: الأول؛ فإن ابن إسحاق لا تعرف له رواية عن جبير بن محمد، ورواة الوجه الأول أتقن وأكثر، صوب الوجه الأول: البزار، وأبو داود، والدارقطني (الأسماء والصفات ص٣١)، والمزي (تهذيب الكمال ٤/ ٥٠٦)، وابن كثير (البداية والنهاية ١/ ١٨)، والذهبي (العلو ص٤٤).

فإن قيل: ما الجواب عن اجتماع الثقات الثلاثة على روايته على الوجه الثاني؟

فيقال: قد أجاب عنه الحافظ البزار (٨/ ٣٥٤) فقال: «هكذا حدثناه أبو موسى [محمد بن المثنى]، وبندار، وعبد الأعلى بن حماد... فاتفقوا كلهم على هذا الإسناد؛ لأن نسخة وهب بن جرير، عن أبيه، عن ابن إسحاق، كانت لعبد الأعلى بن حماد، فكان في كتابه هكذا، ونسخ أبو موسى وبندار من كتاب عبد الأعلى؛ فوقع في كتبهم هكذا».

وقال أبو داود بعد إخراجه: «كان سماعهم من نسخة واحدة فيما بلغني».

وما مضى هو في بيان الصواب من طرق الحديث، ولما تبين أقول: هذا حديث غريب، وابن إسحاق لم يصرح بالسماع، وفي متنه ما لا يحتمل تفرد ابن إسحاق به، وجبير بن محمد فيه جهالة، وهو من طبقة يغلب عليها الستر والعدالة، وقد أعله بعنعنة ابن إسحاق البزار (٨/ ٣٥٤)، وضعف البيهقي الحديث (الأسماء والصفات ٢/ ٣١٧).

وصنف أبو القاسم ابن عساكر جزءا سماه: (بيان الوهم والتخليط الواقع في حديث الأطيط).

وقال الحافظ أبو عبد الله الذهبي رحمه الله (العلو ص٤٤): «هذا حديث غريب جدا، فرد، وابن إسحاق حجة في المغازي إذا أسند، وله مناكير وعجائب، فالله أعلم أقال النبي ﷺ هذا أم لا؟!».

واستغربه -أيضًا- ابن كثير (التفسير ٢/ ٢٤٩). =

(جاء أعرابي): (الأعرابي) هو: ساكن البادية، وهو في الغالب لا يعرف شيئا، بل هو على فطرته، وكان الصحابة يحبون أن يأتي الأعراب إلى النبي ﷺ فيسألونه فيستفيد الصحابة.

والحديث تضمن ثلاث مسائل:

الأولى: أن الاستشفاع بالله على خلقه منكر؛ فإن الله أجل وأعظم من أن يستشفع به على أحد، فكل الخلق فقراء إليه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِىُّ ٱلْحَمِيدُ﴾ [فاطر: ١٥]، فليس من اللائق أن تستشفع بالله على أحد من خلقه، لا نبي مرسل، ولا ملك مقرب، ولا سلطان، ولا حاكم؛ ولذا تغير وجه النبي ﷺ، وأخذ

= وأنشد ابن القيم رحمه الله:

واذكر حديثا لابن إسحاق الرضى ... ذاك الصدوق الحافظ الرباني

في قصة استسقائهم يستشفعو ... ن إلى الرسول بربه المنان

فاستعظم المختار ذاك وقال شأن ... الله رب العرش أعظم شأن

الله فوق العرش فوق سمائه ... سبحان ذي الملكوت والسلطان

ولعرشه منه أطيط مثل ما ... قد أط رحل الراكب العجلان

لله ما لقي ابن إسحاق من الـ ... ـجهمي إذ يرميه بالعدوان

ويظل يمدحه إذا كان الذي ... يروي يوفق مذهب الطعان

كم قد رأينا منهم أمثال ذا ... فالحكم لله العلي الشان

هذا هو التطفيف لا التطفيف في ... ذرع ولا كيل ولا ميزان!

يعظم الله ويسبحه، فمتى انتهكت عظمة الله ينبغي أن تبادر بالتسبيح والتعظيم، كما في حديث: «مَنْ حَلَفَ فَقَالَ فِي حَلِفِهِ: وَاللَّاتِ وَالعُزَّى، فَلْيَقُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ»[(١)].

الثانية: لا بأس بالاستشفاع بأحد من الخلق على الله؛ أي: تستشفع بالمخلوق على الخالق، هذا لا بأس به، إذا كان الاستشفاع من حي فيدعو لك؛ لأن الشفاعة تطلق ويراد بها: (الدعاء)، فالرجل إذا كان حيا صالحا من أهل التقوى والخير فلا مانع أن تقول له: «ادع الله لي»، وهذه شفاعة منه إلى الله، كما قال النبي ﷺ لعمر: «أَيْ أُخَيَّ، أَشْرِكْنَا فِي دُعَائِكَ وَلَا تَنْسَنَا»[(٢)]، هذا معنى الاستشفاع بالمخلوق على الله ﷻ.

والنوع الثاني من المسألة الثانية: طلب الاستشفاع من الأموات والغائبين، وهذا هو الشرك بعينه، لا يجوز أن تطلب من الميت أن يدعو لك، أو يشفع لك عند الله؛ فإن الشفاعة ملك لله، وهذا ميت انقطع عمله، بل نحن الذين نشفع له، ألا ترى ما جاء في حديث ابن عباس أن الرسول ﷺ قال: «مَا مِنْ مُسْلِمٍ يَمُوتُ فَيَقُومُ عَلَى جِنَازَتِهِ أَرْبَعُونَ رَجُلًا لَا يُشْرِكُونَ بِاللهِ شَيْئًا إِلَّا شَفَّعَهُمُ اللهُ فِيهِ»[(٣)]، فأخبر الرسول ﷺ بأن دعاءنا لهذا الميت وصلاتنا عليه هي شفاعة عند الله له، فكيف نعكس القضية ونطلب من الميت أن يشفع لنا؟! كما عليه أكثر الناس في غير هذه البلاد، يبنون القباب والأبنية على القبور، ويطلبون من الميت المدد،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٤٨٦٠) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) سبق تخريجه.

(٣) سبق تخريجه.

وتفريج الكربات، وقضاء الحاجات، ويصرفون للميت ما هو حق لله -تعالى- بزعمهم أنه واسطة بينهم وبين الله، وأنه يشفع لهم عند الله، وهذا من الباطل.

قد يقول قائل: أنا أعتقد أن النافع الضار هو الله، وأن الله يجيب دعاء من دعاه، لكن هذا رجل صالح من الأولياء، فأنا أقف عند قبره وأقول له: «يا فلان اشفع لي، أنت واسطة بيني وبين الله؛ لأني مقصر، فارفع حاجتي إلى الله».

نقول له: هذا هو الشرك بعينه، فالله لم يجعل بينك وبينه واسطة أبدا، بل أمرك أن تدعوه، ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، ولم يقل: «وإذا سألك عبادي عني فإني جعلت بيني وبينهم وسائط!»، بل قال الله: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]، وبهذا نعرف أن دعاء الأموات والغائبين وبناء الأبنية على قبورهم، وطلب المدد منهم أن هذا ينافي التوحيد بالكلية، وأنه من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله إلا بالتوبة منه.

ألا ترى أن عمر رضي الله عنه عام الرمادة لما أجدبت الأرض - حتى إن الوحوش جاءت للمدينة لعدم وجود ما تأكله-، قام يستسقي قائلا: «اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا، قم يا عباس فادع الله»(١)، ففسر التوسل بالدعاء، ولو كان التوسل بالميت جائزا فكيف يعدل عمر عن سيد الخلق صلى الله عليه وسلم إلى العباس؟!

لو كان جائزا لذهب إلى قبر النبي صلى الله عليه وسلم، ولكن لعلمه أن الميت لا يتوسل

---

(١) سبق تخريجه.

به ولا يدعى توسل بالحي، والتوسل هنا ليس بذاته بل بالدعاء، فأنت إذا قمت تدعو فهذه وسيلة، وإذا قرأت القرآن فهذه وسيلة.

المسألة الثالثة التي دل عليها الحديث: ما أخبر به النبي ﷺ من أن الله على عرشه، وهذه مسألة مهمة زلت بها أقدام، وضلت بها أفهام، ولها بحوث طويلة بين أهل السنة والجماعة أتباع الرسل، وبين أتباع جهم بن صفوان، بينهم معترك طويل، لكن القوم لم يصنعوا شيئا، ولم يصلوا إلى نتيجة، بل ضلوا عن الحق، وعن الصراط المستقيم، فالقرآن يدل على أن الله مستو على عرشه، وهم يفسرون الاستواء بالاستيلاء، وذكر ابن تيمية وابن القيم أن الاستواء ذكر في القرآن في سبعة مواضع، فهلا ذكر بلفظ (الاستيلاء) مرة واحدة؟![1].

ثم لفظة (الاستيلاء) تقتضي أن هناك من يغالب الله على العرش ثم استولى الله عليه، كما يقال: «استولى السلطان على البلدة»، لا يمكن الاستيلاء عليها إلا بعد مغالبة بينه وبين نده، لكن أهل السنة يقولون بما دل عليه الكتاب والسنة استواء يليق بجلاله، والله أعلم بذلك، إلا أنا نعتقد أن الله على عرشه يقينا.

قالت الجهمية ومن وافقهم: نستدل عليكم بأدلة عقلية.

قلنا: ما هي؟

قالوا: إذا أثبتم أن الله على عرشه فيلزم: أنه لو كان العرش مربعا - مثلا- كان الله مربعا، أو كان مثلثا كان الله مثلثا، أو كان واسعا كان الله واسعا، أو ضيقا كان الله ضيقا، أو لم يستو عليه؛ لأن من ذات الله قدرا زائدا على العرش.

---

(١) الحموية (ص٥٠٦)، واجتماع الجيوش الإسلامية (٢/ ١٤٤).

نقول: ما لنا ولهذه الإلزامات؟!

نحن لا نقول بقولكم، ولا نشبه الله بخلقه فتوردوا علينا هذا، بل نقول: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ ۖ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤] هذه الإلزامات لا تلزمنا، بل تلزمكم أنتم؛ لأنكم تشبهون الله بخلقه.

قالوا: إن أثبتم أن الله مستو على عرشه، لزمكم أن يكون الله جسما؛ فلا يمكن تصور الاستواء إلا من جسم، فالجسم يكون له عرض وطول وحد ونهاية.

نقول: لا يلزمنا شيء من هذا، وإنما نقول بما في القرآن والسنة، لكن على سبيل التنزل معكم نقول لكم: هل تثبتون لله ذاتا أم لا؟!

كلهم مجمعون -من الجهمية والمعطلة والمعتزلة- على أن لله ذاتا.

فنقول لهم: هل هذه الذات لابد أن يكون لها حد وطول وعرض من جنس ذواتنا؟!

يقولون: لا، لا تشبه ذواتنا.

نقول: -أيضًا- الله مستو على عرشه دون أن يشبه استواء المخلوق، تلزمكم بقولكم سواء بسواء.

وقد بسط العلامة ابن القيم مسألة الاستواء في كتابه «الصواعق»، ورد قولهم بنحو أربعين وجها، وألف العلماء في ذلك المؤلفات.



(٦٥) باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد، وسده طرق الشرك

عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه، قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى النبي ﷺ فقلنا: «أنت سيدنا»، فقال: «السيد الله -تبارك وتعالى-».

قلنا: «وأفضلنا فضلا، وأعظمنا طولا».

فقال: «قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستجرينكم الشيطان» رواه أبو داود بسند جيد[(١)].

وعن أنس رضي الله عنه، أن ناسا قالوا: يا رسول الله: يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال: «يا أيها الناس، قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد، عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل» رواه النسائي بسند جيد[(٢)].



(١) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ١٣٥٣٠)، وأبو داود في سننه (ح: ٤٨٠٦).
(٢) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ١٢٥٥١)، والنسائي في سننه الكبرى (ح: ١٠٠٠٦).

شرح: باب ما جاء في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد، وسده طرق الشرك

تقدم نظير هذه الترجمة: (باب ما جاء في حماية المصطفى ﷺ جناب التوحيد، وسده كل طريق يوصل إلى الشرك)، فهل البابان مكرران أم بينهما فرق؟

بينهما فرق؛ فالترجمة السابقة هي: في حماية جناب التوحيد، و(الجناب) هو: المتصل بالشيء، وهنا: (حماية حمى التوحيد)، فهو ﷺ: حمى التوحيد، ثم حمى جناب التوحيد، ثم حمى حمى التوحيد.

(وسده طرق الشرك)؛ أي: كل طريق يوصل إلى الشرك قولا أو عملا فقد سده النبي ﷺ، والتوحيد هو موضوع هذا الكتاب، والمصنف ألف هذا الكتاب مبينا فيه توحيد الربوبية، وتوحيد العبادة -وهو المقصد بوضع الكتاب وتأليفه-، وبين فيه توحيد الأسماء والصفات -ضمنا-، وبين فيه: ما ينافي التوحيد بالكلية من الشرك الأكبر، وما ينافي كماله الواجب من الشرك الأصغر، وبين فيه الذرائع الموصلة إلى الشرك المقربة إليه، وبين فيه البدع القادحة في توحيد العبد، والمعاصي المنقصة لثواب التوحيد، هذا موضوع الكتاب.

ولما ذكر هذه الأبواب ذكر: (حماية حمى التوحيد)؛ لأنه آخر الكتاب؛ كأنه يقول لك: ذكرت لك التوحيد وما ينافيه بالكلية، وذكرت لك الوسائل الموصلة إلى الشرك، وذكرت لك البدع القادحة في التوحيد، وذكرت لك المعاصي المنقصة لثواب التوحيد، وذكرت لك حماية النبي ﷺ جناب التوحيد، وها أنا أذكر لك في آخر الأبواب بابا في حماية النبي ﷺ حمى التوحيد، وسده كل طرق الشرك.

عن عبد الله بن الشخير رضي الله عنه، قال: انطلقت في وفد بني عامر إلى النبي ﷺ فقلنا: «أنت سيدنا»، فقال: «السَّيِّدُ اللهُ -تبارك وتعالى-».

قلنا: «وأفضلنا فضلا، وأعظمنا طولا».

فقال: «قُولُوا بِقَوْلِكُمْ، أَوْ بَعْضِ قَوْلِكُمْ، وَلَا يَسْتَجْرِيَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ» رواه أبو داود بسند جيد[(١)].

(لا يستجرينكم الشيطان)؛ أي: لا يتدرج بكم فيوقعكم في الشرك.

ولا شك أنه ﷺ سيدنا، وسيد العالمين، وإنما نهاهم عن ذلك؛ لأنه خشي أن يتدرج الشيطان بهم، فيرفعوه فوق منزلته التي أنزله الله إياها، فهذا يدل على أن المدح في مواجهة الإنسان لا يجوز، وقد قطعت عنق صاحبك إن فعلت، فربما يتكبر ويتعاظم بذلك، أو يؤدي إلى أنه يعجب بنفسه، هذا إن كنت صادقا، وإن كنت غير صادق في مدحك فأصبحت كاذبا في قولك، وغررته.

وعن أنس رضي الله عنه، أن ناسا قالوا: يا رسول الله: يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا، فقال: «يا أيها الناس، قولوا بقولكم، أو بعض قولكم، ولا يستهوينكم الشيطان، أنا محمد، عبد الله ورسوله، ما أحب أن ترفعوني فوق

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ١٣٥٣٠)، والبخاري في الأدب المفرد (ح:٢١١)، وأبو داود في سننه (ح: ٤٨٠٦)، والنسائي في عمل اليوم الليلة من الكبرى (ح: ١٠٠٠٤- ١٠٠٠٥)، والبيهقي في الأسماء والصفات (١/ ٧٨) من طرق عن مطرف بن عبد الله بن الشخير، عن أبيه، به.

وإسناده جيد، وهو حديث ثابت.



منزلتي التي أنزلني الله ﷻ» رواه النسائي بسند جيد[1].

قال: (ما أحبب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله ﷻ) مع أنهم لم يقولوا إلا: «يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا»، لكن خشي ﷺ أن يتدرج الشيطان بهم إلى الشرك، كما في حديث: «قوموا بنا نستغيث برسول الله»، فقال ﷺ: «إِنَّهُ لا يُسْتَغَاثُ بِي، إِنَّما يُسْتَغَاثُ بالله»[2]، مع أن الاستغاثة بالحي القادر الحاضر جائزة.

وأشرف مقامات الرسول ﷺ هي العبودية؛ فإن الله قال في مقام إنزال القرآن الذي هو أشرف الكتب: ﴿وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ﴾ [البقرة: ٢٣]، وفي مقام الإسراء قال: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [الكهف: ١]، ﴿سُبْحَـٰنَ ٱلَّذِىٓ أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِۦ لَيْلًا مِّنَ ٱلْمَسْجِدِ﴾ [الإسراء: ١]، ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]، ﴿فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾ [النجم: ١٠]، فقارن بين قول الرسول ﷺ في هذا الحديث وبين قول البوصيري[3]:

يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به ❁ سواك عند حلول الحادث العمم

إلى أن قال:

إن لم تكن في معادي آخذا بيدي ❁ فضلا وإلا فقل: يا زلة القدم

---

(١) أخرجه أحمد في مسنده، باختلاف يسير (ح: ١٢٥٥١)، وعبد بن حميد في مسنده، باختلاف يسير (ح: ١٣٣٧)، والنسائي في سننه الكبرى، باختلاف يسير (ح: ١٠٠٠٦).

(٢) سبق تخريجه.

(٣) ينظر: ديوان البوصيري (ص ٢٥٢).

وقال:

فإن من جودك الدنيا وضرتها ❁ ومن علومك علم اللوح والقلم

ماذا بقي لله؟!

أي شرك أعظم من هذا؟!

أنسي الشاعر قول الله -تعالى-: ﴿يَوْمَ لَا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِّنَفْسٍ شَيْـًٔا وَٱلْأَمْرُ يَوْمَئِذٍ لِّلَّهِ﴾ [الانفطار: ١٩]، (شيئا) نكرة في سياق النفي، والبوصيري يقول: لا، بل الدنيا والآخرة هي من جودك، و(من) هي للتبعيض، والله يقول لنبيه: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأعراف: ١٨٨]، والرسول ﷺ لا شك أنه أشرف الخلق على الإطلاق، ولكن لا تجوز تسويته بالله، أو صرف شيء من حق الله له.

لكن هل يجوز أن تقول: «يا سيدي فلان، سيدي فلان»، أو كما يقول بعض العامة: «سيدي فلان»؟

نقول: هذه المسألة فيها خلاف بين العلماء، منعها قوم، وهو المروي عن الإمام مالك، أن هذا لا ينبغي؛ لأن السيد الله -تبارك وتعالى-[(١)].

وأجازها آخرون، وقالوا: لا مانع منه؛ لأن النبي ﷺ قالها عن نفسه: «أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ، وَلَا فَخْرَ»[(٢)]، وقال ﷺ لما أقبل سعد بن معاذ ليحكم في بني

(١) يشكل عليه أنه قيل لمالك رحمه الله: يقولون: (السيد هو الله تعالى).
فقال: «أين هذا في كتاب الله؟!، إنما في القرآن (ربنا.. ربنا)». ينظر: المنتقى شرح الموطأ (٧/ ٣٠٦).
(٢) سبق تخريجه.

قريظة حين نزلوا على حكمه: «قُومُوا إِلَى سَيِّدِكُمْ»[1].

وتوسط آخرون فقالوا: إذا لم يقابل بهذا ولم يواجه به كما فعل الرسول ﷺ مع سعد فهذا لا بأس به، وأما إذا قوبل الشخص بهذا فلا؛ جمعا بين الحديثين، لكن الظاهر أنه إذا كان لا يؤدي إلى الكبر والعظمة، وصارت كلمة شائعة بين الناس وجودها كعدمها، فالظاهر: أنه لا بأس بها، وينهى عنها إذا كانت تؤدي إلى العظمة والكبر.



(١) سبق تخريجه.

(٦٦) باب ما جاء في قول الله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ الآية [الزمر: ٦٧]

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: «أنا الملك».

فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه؛ تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ الآية [الزمر: ٦٧].

وفي رواية لمسلم: «والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الله».

وفي رواية للبخاري: «يجعل السماوات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع»[١].

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعا: «يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟! أين المتكبرون؟!

ثم يطوي الأرضين السبع ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٤٨١١)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٧٨٦).

الجبارون؟! أين المتكبرون؟!»[١].

وروي عن ابن عباس قال: «ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم»[٢].

وقال ابن جرير: حدثني يونس: أنبأنا وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس»[٣].

قال: وقال أبو ذر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»[٤].

وعن ابن مسعود قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمس مئة عام، وبين كل سماء وسماء خمس مئة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمس مئة عام، وبين الكرسي والماء خمس مئة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم».

أخرجه ابن مهدي، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله.

ورواه بنحوه عن المسعودي، عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله، قاله الحافظ الذهبي رحمه الله، قال: «وله طرق»[٥].

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٧٨٨).

(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢١/ ٣٢٤).

(٣) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥/ ٣٩٩).

(٤) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥/ ٣٩٩).

(٥) أخرجه الدارمي في سننه (ح: ٨١)، وابن خزيمة في صحيحه (١/ ٢٤٤)، والطبراني في المعجم الكبير (ح: ٨٩٨٧).

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟».

قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: «بينهما مسيرة خمس مئة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمس مئة سنة، وكثف كل سماء خمس مئة سنة، وبين السماء السابعة والعرش بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله عز وجل فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم» أخرجه أبو داود وغيره[(١)].



(١) أخرجه أحمد في مسنده (ح: ١٧٧٠)، والبزار في مسنده (ح: ١٣١٠)، وأبو داود في سننه (ح: ٤٧٢٣)، والترمذي في جامعه (ح: ٣٣٢٠)، وابن ماجه في سننه (ح: ١٩٣).



شرح: باب ما جاء في قول الله تعالى:

﴿وَمَا قَدَرُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِۦ وَٱلْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَٱلسَّمَٰوَٰتُ مَطْوِيَّٰتٌۢ بِيَمِينِهِۦ ۚ سُبْحَٰنَهُۥ وَتَعَٰلَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ **الآية [الزمر: ٦٧]**

أي: ما عظموا الله حق تعظيمه؛ فإنهم نفوا عنه شيئا من صفاته الذاتية؛ كالسمع والبصر واليد الوجه وغير ذلك هربا من التشبيه، نقول لهم: الله أثبتها لنفسه: ﴿كُلُّ شَىْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨]، ﴿بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ﴾ [المائدة: ٦٤]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ﴾ [الحج: ٧٥]، فكيف ننفي ما أثبته الله لنفسه؟!

من نفى هذا ما قدر الله حق قدره، ومن جعل واسطة بينه وبين الله، أو طلب منه المدد، أو قال: «يا سيدي فلان أغثني وأزل الشدة عني» ما قدر الله حق قدره، وما عظمه حق تعظيمه، والله -سبحانه- بعث رسوله ﷺ بإثبات مفصل ونفي مجمل، وهذا في القرآن كثير: ﴿وَكَلَّمَ ٱللَّهُ مُوسَىٰ تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، ﴿وَلَمْ يَكُن لَّهُۥ كُفُوًا أَحَدٌۢ﴾ [الإخلاص: ٤]، ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢٢]، ﴿فَلَا تَضْرِبُوا۟ لِلَّهِ ٱلْأَمْثَالَ﴾ [النحل: ٧٤]، ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُۥ سَمِيًّا﴾ [مريم: ٦٥].

ومن دقيق فهم المصنف وذكائه: أنه ختم كتابه بهذا الباب الدال على إثبات أسماء الله وصفاته سبحانه، والدال على أن العبادة لا تصلح إلا الله، وأن من صرف شيئا من العبادة لغير الله ما قدر الله حق قدره، ومن شبه الله بخلقه أو نفى عنه شيئا من الصفات ما قدره حق قدره، فالكتاب متضمن لتوحيد الربوبية،

وتوحيد الأسماء والصفات، وتوحيد العبادة، وختم الكتاب بهذه الآية فيه: أن من أخل بشيء من أنواع التوحيد الثلاثة فإنه ما قدر الله حق قدره.

عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: جاء حبر من الأحبار إلى رسول الله ﷺ فقال: يا محمد إنا نجد أن الله يجعل السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والشجر على إصبع، والماء على إصبع، والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع، فيقول: «أنا الملك».

فضحك النبي ﷺ حتى بدت نواجذه؛ تصديقا لقول الحبر، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعًا قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الآية [الزمر: ٦٧].

وفي رواية لمسلم: «والجبال والشجر على إصبع، ثم يهزهن فيقول: أنا الملك، أنا الله».

وفي رواية للبخاري: «يجعل السماوات على إصبع، والماء والثرى على إصبع، وسائر الخلق على إصبع»[١].

(حبر): بالفتح، وبعضهم ضبطها بالكسر: (حِبر)، هو: عالم اليهود.

وفي هذا الحديث: دليل على عظمة الله وكمال قدرته.

وفيه -أيضًا-: إثبات الأصبع لله على وجه يليق بجلاله، لا كصفة المخلوقين.

وفيه دليل على إثبات الكلام، في قوله: «أنا الملك، أين الجبارون؟!، أين

(١) أخرجه البخاري في صحيحه (ح: ٤٨١١)، ومسلم في صحيحه (ح: ٢٧٨٦).

المتكبرون؟!»، والنبي ﷺ ضحك مصدقًا للحبر، ومؤيدًا لما قال، ومستدلًا على صحة ما قال الحبر بهذه الآية: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ﴾، تأمل ختم الآية بقوله: ﴿سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [يونس: ١٨]، فمناسبة ختم الآية بهذه الجملة: أن من صرف شيئًا من حق الله لغيره فإنه مشرك، وما قدر الله حق قدره، والذي ينفي صفة من صفات الله التي هي صفات كمال انتقص قدر الله بهذا النفي، فكأنه ماثل المشركين.

ولمسلم عن ابن عمر مرفوعًا: «يطوي الله السماوات يوم القيامة، ثم يأخذهن بيده اليمنى، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟! أين المتكبرون؟!

ثم يطوي الأرضين السبع ثم يأخذهن بشماله، ثم يقول: أنا الملك، أين الجبارون؟! أين المتكبرون؟!»(١).

وروي عن ابن عباس قال: «ما السماوات السبع والأرضون السبع في كف الرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم»(٢).

هذا يدل على عظمة الله؛ فكل المخلوقات بيد الله -جل وعلا-، وقد تضمن الحديث وأثر ابن عباس: إثبات الصفات لله، أنه مستو على عرشه، بائن من خلقه، والمعطلون يقولون عن قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ﴾ [الأنعام: ١٨]: (هذه فوقية القهر القدر، لا فوقية الذات).

ومثل ذلك يقولون في قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ﴾ [الملك: ١٦]؛ أنه علو القهر والقدر، وأن الله موجود في كل مكان.

(١) أخرجه مسلم في صحيحه (ح: ٢٧٨٨).
(٢) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٢١/ ٣٢٤) من حديث عمرو بن مالك، عن أبي الجوزاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وإسناده حسن.

نقول: أخطأتم؛ فإن الله له علو الذات، والقهر، والقدر، وقولكم يحتاج إلى دليل، أعطونا دليلا على أن الله حال في كل مكان، وأنه ليس على العرش.

فإذا قال: الدليل قوله تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّهُ فِي السَّمَاوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ﴾ [الأنعام:٣].

نقول له: هذه الآية دلت على أن المراد بذلك علم الله؛ لأن الله ختمها بقوله: ﴿يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾ [الأنعام:٣].

ثم نقول: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ﴾ [النحل:٥٠]، جاءت الفوقية مجرورة بـ(من) فلا تستطيعون أن تقولوا في هذه الآية: (إنها فوقية القهر والقدر)، بل هي فوقية الذات، وهذا الذي تدل عليه نصوص الكتاب والسنة، وهو الذي عليه أئمة السلف، وحتى جاهلية العرب تعرف أن الله على عرشه كما هو موجود في أشعارهم، قال أمية بن أبي الصلت:

مجدوا الله فهو للمجد أهل ۞ ربنا في السماء أمسى كبيرا(١)

وكذلك أشعار عبد الله بن رواحة ﵁:

شهدت بأن وعد الله حق ۞ وأن النار مثوى الكافرينا
وأن العرش فوق الماء طاف ۞ وفوق العرش رب العالمينا(٢)

وقد أنشد هذه الأبيات بين يدي رسول الله ﷺ، ولم يقل له الرسول ﷺ: «أخطأت»، بل أقره، وذلك حينما وقع على جارية له، فعلمت زوجته، فغضبت، فقالت له: وقعت عليها؟

---

(١) ينظر: تاريخ دمشق (٩/ ٢٧٧).

(٢) ينظر: الرد على الجهمية للدارمي (ص٥٦).

قال: لا.

قالت: إن كنت صادقا فاقرأ القرآن -لعلمها أن الجنب لا يقرأ القرآن-.

فأنشد البيتين المشار إليهما.

فقالت: «صدقتك وكذبت عيني».

فذهب إلى النبي ﷺ فأخبره، فضحك ﷺ[1].

وهذا أمر مفطورة عليه القلوب، حتى البهيمة عندما تحتاج شيئا ترفع بصرها للسماء، هذا مذهب أهل السنة والجماعة، لا كما يقول المبتدعة: إن الله حال في خلقه!

وفي ذلك ألف العلماء المؤلفات، الإمام الذهبي ألف كتابا سماه: «كتاب العلو»، وابن القيم ذكر طرفا من ذلك في: «اجتماع الجيوش الإسلامية على غزو المعطلة والجهمية»، وهو كتاب مطبوع معروف.

فالمصنف أراد أن يبين أن الله مستو على عرشه من القرآن والسنة، وقد

---

(١) قال أبو عمر ابن عبد البر رحمه الله في القصة المذكورة (الاستيعاب ٣/ ٩٠٠): «مشهورة، رويناها من وجوه صحاح».

وأنشد أبو عبد الله ابن القيم رحمه الله (الكافية الشافية ص١٠٢):

واذكر حديث الصادق ابن رواحة ... في شأن جارية لدى الغشيان
فيه الشهادة أن عرش الله فو ... ق الماء خارج هذه الأكوان
والله فوق العرش جل جلاله ... سبحانه عن نفي ذي البهتان
ذكر ابن عبد البر في استيعابه ... هذا وصححه بلا نكران

ذكر الله الاستواء في سبعة مواضع من القرآن، وقد بسط العلامة ابن القيم هذه المسألة بسطا لا مزيد عليه في كتابه: «الصواعق المرسلة»، وبين فساد ما عليه الجهمية القائلين: إن الله في كل مكان، فالجهمية يرون أن الله حال في كل مكان، لا يخلو منه مكان دن مكان.

قل لهم: ما دمتم تقولون ذلك فهل الله حال في الكنف والأماكن القذرة التي يتنزه عنها حتى أراذل الناس وسقطهم؟!

الله أجل وأعظم من أن يكون على هذه الصفة التي ذكرتم -هذا من جهة الرد العقلي-.

ومن قال بقول الجهمية فهو كافر عند أهل السنة والجماعة، فالجهمية سلبوا الصفات عن الله فجعلوه كالمعدوم، وإنما أثبتوا لله ذاتا مجردة عن الأسماء والصفات!

وقال ابن جرير: حدثني يونس: أنبأنا وهب، قال: قال ابن زيد: حدثني أبي، قال: قال رسول الله ﷺ: «ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس»[1].

قال: وقال أبو ذر رضي الله عنه: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ما الكرسي في

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥/ ٣٩٩)، وإسناده ضعيف؛ فابن زيد ضعيف سواء كان هو: أسامة أم عبد الرحمن، كلاهما ضعيفان، وكلاهما يروي عنهما ابن وهب، والخبر مرسل.

العرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهري فلاة من الأرض»[(١)].

وعن ابن مسعود قال: «بين السماء الدنيا والتي تليها خمس مئة عام، وبين كل سماء وسماء خمس مئة عام، وبين السماء السابعة والكرسي خمس مئة عام، وبين الكرسي والماء خمس مئة عام، والعرش فوق الماء، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من أعمالكم».

أخرجه ابن مهدي، عن حماد بن سلمة، عن عاصم، عن زر، عن عبد الله.

ورواه بنحوه عن المسعودي، عن عاصم، عن أبي وائل، عن عبد الله، قاله الحافظ الذهبي رحمه الله، قال: «وله طرق»[(٢)].

وعن العباس بن عبد المطلب رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «هل تدرون كم بين السماء والأرض؟».

قلنا: الله ورسوله أعلم.

قال: «بينهما مسيرة خمس مئة سنة، ومن كل سماء إلى سماء مسيرة خمس مئة سنة، وكثف كل سماء خمس مئة سنة، وبين السماء السابعة والعرش

---

(١) أخرجه ابن جرير في تفسيره (٥/ ٣٩٩) بإسناد الخبر السابق، ولا يصح؛ لما سبق؛ ولأن زيدا لم يسمع من أبي ذر، وله طرق أخرى عن أبي ذر لا يصح منها شيء.

(٢) أخرجه الدارمي في سننه في الرد على الجهمية (ح: ٨١)، وابن خزيمة في صحيحه في التوحيد (١/ ٢٤٤)، والطبراني المعجم الكبير (ح: ٨٩٨٧)، والبيهقي في الأسماء والصفات (٢/ ٢٩١)، واللالكائي (ح: ٦٥٩)، من حديث عاصم بن بهدلة، عن زر بن حبيش، عن ابن مسعود، به موقوفا.

إسناده حسن، وكلام الحافظ الذهبي هو في (العلو ص٤٦).

بحر بين أسفله وأعلاه كما بين السماء والأرض، والله ﷻ فوق ذلك، وليس يخفى عليه شيء من أعمال بني آدم» أخرجه أبو داود وغيره[١].

(كثف)؛ أي: غلظ كل سماء خمس مئة سنة، والله فوق العرش، لا يخفى عليه شيء من بني آدم، يبصر دبيب النملة السوداء على الصخرة الملساء في سواد الليل، ويسمع -جلا وعلا- مجاري أصول الأوردة في أجواف الأجنة في بطون أمهاتها، لا يخفى عليه شيء.

ونحن نثبت لله ما أثبته لنفسه من الصفات حقيقة، ولا نسك مسلك التفويض،

---

(١) باختلاف يسير: أخرجه أحمد في مسنده (ح: ١٧٧٠)، والبزار في مسنده (ح: ١٣١٠)، وأبو داود في سننه (ح: ٤٧٢٣)، والترمذي في جامعه (ح: ٣٣٢٠)، وابن ماجه في سننه (ح: ١٩٣)، والدارمي في سننه (الرد على الجهمية ٧٢)، وابن أبي عاصم في السنة (ح: ٥٧٧)، وابن خزيمة (التوحيد ١/ ٢٣٤)، وابن منده (التوحيد ١٩)، والحاكم في مستدركه (٢/٣١٦-٤١٠- ٥٤٣)، والبيهقي (الأسماء والصفات ٢/ ٢٨٥)، وأبو يعلى في مسنده (ح: ٦٧١٣)، واللالكائي (ح: ٦٥٠) من طرق عن سماك بن حرب -تفرد به-، عن عبد الله بن عميرة، عن الأحنف بن قيس، عن العباس، به مرفوعا.

وهذا هو حديث «الأوعال» المشهور، ولا يصح، لأمور منها:

أنه لا يحتمل تفرد سماك -وهو صدوق- بهذا الحديث بل بما دونه!

وعبد الله بن عميرة مجهول (الميزان ٢/٦٩٦)، ثم إن البخاري قال (التاريخ الكبير ٥/ ١٥٩): «لا نعلم له سماعا من الأحنف».

وقد أشار الترمذي إلى إعلاله فقال: «حديث حسن غريب»، وضعفه الذهبي (العلو ص٦٠).

ينظر: الضعفاء للعقيلي (٢/ ٢٨٤)، الكامل لابن عدي (٩/ ٢٧).

وأما إعلال عبد الحق في الأحكام الكبرى (١/ ٢٦٥) للحديث بعدم سماع الأحنف من العباس ففيه نظر؛ فإن الإمام أحمد قال (العلل ٢/ ٥٢١): «ذكره النبي ﷺ ولم يلقه، وأدرك عمر فمن دونه».

نعم نفوض كنهها وكيفيتها إلى الله لكن نثبت معناها، ونقول كما قال الإمام الشافعي: «آمنا بالله وبما جاء عن الله على مراد الله، وآمنا برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله»[١]، لا نزيد ولا ننقص، لا نغير ولا نحرف، ولا نعطل ولا نبدل، وهذه الصفات هي حقيقة إلا أنها لا تشبه صفات المخلوقين.

وكما قال الإمام أحمد: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه في كتابه، وبما وصفه به رسوله ﷺ لا يتجاوز القرآن والحديث»[٢]، ونقول كما قال نعيم بن حماد شيخ الإمام البخاري: «المعطل يعبد عدما، والمشبه يعبد صنما، والموحد يعبد إلها واحدا صمدا»[٣]، وأقوال الأئمة في هذا الباب كثيرة جدا.

وهذه العقيدة هي التي يجب علينا اعتقادها، وأن نعض عليها بالنواجذ، لكن يقول لك بعضهم: إذا أثبتم أن الله على عرشه يلزمكم أن تثبتوا أن الله في جهة -وهي جهة العلو-، فتزعمون أن الجهة تحوزه!، وأنه يشار إليه في جهة! -والله منزه عن هذا-.

نقول: لا، بل آمنا بالله وبماء جاء عن الله على مراد الله، وآمنا برسول الله وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله، وكما قال الإمام أحمد: «لا يوصف الله إلا بما وصف به نفسه، لا يتجاوز القرآن والحديث»، أخبرني أنت، هل الجهة موجودة في القرآن والسنة فأنا أثبتها.

---

(١) ينظر: لمعة الاعتقاد (ص٧).

(٢) ينظر: الحموية (ص٢٦٥).

(٣) ينظر: مجموع الفتاوى (٥/ ٢٦١)، ومقدمة النونية.

يقول: لا، ليست موجوة.

نقول: ماذا تريد بالجهة إذن؟!

يقول: أريد بالجهة: العلو؛ أي: أن الله على عرشه.

نقول: المعنى صحيح لكن لفظك بدعة؛ لا ننطق إلا بما نطق به القرآن، أما إثبات لفظ الجهة أو نفيه فهذا غلط، نسكت حيث سكت القرآن والسنة.

أما إن فسرتها بمعنى التحيز وما أشبهه، فنقول: اللفظ والمعنى كلاهما بدعة.

هكذا تسلك هذا المسلك في كل ما يرد عليك من شبهات أهل التعطيل.

قد يقول المخالف: إذا أثبتم أن الله على عرشه وأنه ينزل كل ليلة لزم أن يخلو منه العرش إذا نزل.

نقول له: هذه المسألة بحثها العلماء، فعبد الغني صاحب «عمدة الأحكام» يقول: «لا نقول إنه يخلو، ولا أنه لا يخلو، نقول: الله على عرشه وينزل».

لا يلزم من النزول أن يخلو العرش، ولا يلزم من الاستواء على العرش أنه لا ينزل، بل نقول: آمنا بالله وبما جاء عن الله على مراد الله، ولا نثبت إلا ما أثبته القرآن والسنة، وننفي ما نفاه القرآن والسنة، ونسكت حيث سكت الكتاب والسنة، هذا رأي عبد الغني في «عقيدته»[1].

وآخرون من أهل السنة قالوا: إن الله ينزل ولا يخلو منه العرش.

---

(١) **ينظر**: عقيدة الحافظ عبد الغني المقدسي (ص٥٥).

وقيل: بل العرش يخلو، وهذا الذي مال إليه بعضهم.

والحاصل: أن إيراد هذه المسائل ونظائرها إنما هو لتعرف شبه المخالفين، ويكون عندك جواب تسكتهم به، تقول: كما ثبت عن رسول الله ﷺ، وكما دل عليه القرآن، لا أقول: يخلو، أو: لا يخلو.

وشيخ الإسلام ابن تيمية قد بحث هذه المسألة وقررها في كتابه «شرح حديث النزول»(١) مع اختلاف الليل في البلدان الأخرى، والمسألة معروفة، والله أعلم، وصلى الله وسلم على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، والحمد لله رب العالمين(٢).



(١) ينظر: شرح حديث النزول (ص٣٢).

(٢) الحمد لله الذي يسر وأعان، الحمد لله على نعمه الظاهرة والباطنة، الحمد لله كثيرًا كما أنعم كثيرًا.

الفهرس